

أنيس ونور

الشيخ .. الشيخ



أنيس منصور

الحائز على جائزة مبارك في الآداب

التنين .. التنين



اسم الكتاب: اتنين .. اتنين.
المؤلف: أنيس منصور.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الثانية يناير 2005م.
رقم الإيداع: 2003 / 20706
التقديم الدولي: ISBN 977-14-2552-8

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02)3466434 - 02)3472864 فاكس: 02)3462576 ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmiser.com

المطابع: 88 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02) 8330287 - 02) 8330289 - فاكس: 02) 8330296
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmiser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 02) 5909827 - 02) 5908895 - فاكس: 02) 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales @nahdetmiser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 03) 5230569
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmiser.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع

www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

كلمة أولى

عندى مسرحية كوميدية اسمها «الأحياء المجاورة» ظهرت فى الستينيات. والمسرحية لها بطلان: سناء جميل وحمدى غيث. فى ثلاثة فصول. ليس لهما أولاد ولا خدم. ولا يزورهما أحد. ولكن من المتوقع أن يجىء أحد غير أن أحدا لا يجىء. ولكن هذا الاحتمال وهذا التوقع هو الذى يجعلهما، ويجعلنا نتلفت إلى الباب والشباك.. ولكن أحدا لا يجىء. وعلى الرغم من أن الزوجين لا ينفصلان ولا يتركان المسرح إلا قليلاً، فالدنيا كلها عندهما.. أخبارها وأسرارها ومشاكلها.. ثم إن الراديو ينقل إليهما آخر الأحداث والكوارث.. التى أصابت العالم وأصابت هذه الأسرية أيضاً. فليسا وحدهما. ولكن الدنيا الصغيرة تنتقل إليهما من تحت الباب.. من الأصدقاء فى الشارع وعلى السلم.. من الراديو..

فعلى الرغم من أنهما اثنان فقط، فالحقيقة أنهما ليسا كذلك فى أى وقت.. وبعد عشرين عاماً من ظهور هذه المسرحية قررت أن أعدل فيها.. وبدأت التعديل بأن جعلت لها اسماً آخر هو: أكثر من اثنين دائماً! أى إن هناك أكثر من اثنين فى أى مكان وفى أى وقت. منذ آدم وحواء فى الجنة ومعهما الشيطان والأفعى والملائكة ومخافة الله، حتى نزلا إلى الأرض فامتلات بهما الدنيا..

بل إن الإنسان إذا كان وحده فى زنزانه فى سجن.. أو كان راهباً

فى صومعة.. أو كان جاجارين فى أحد الأقمار الصناعية.. فرائد الفضاء الروسى كان وحده فى القمر الصناعى، ولكن عشرات الألوف من العلماء يتابعون نظراته وأنفاسه وقطرات العرق على وجهه ودقات قلبه.. إنه يشبه سائق سيارة بلا عجلة قيادة.. فالعجلة والقيادة على الأرض فى أيدي العلماء.. فهو - إذن - ليس وحده فى أى وقت.. بل إنه فى عيون وآذان مئات الملايين من سكان الأرض..

و«روبينسون كروزو» بطل الرواية المعروفة التى كتبها دانييل ديفو، لم يكن وحده فى الجزيرة.. فمن اللحظة الأولى لهبوطه هذه الجزيرة كان وحده.. لم نر غيره ولم ير هو غيره.. ولكنه هو خلاصة الحضارة الغربية.. بملابسه وأفكاره وقدرته على أن يصنع لنفسه بيتاً وأن يدافع عن نفسه بما حمل من أسلحة هى من صنع الحضارة الأوربية.. فهو ليس وحده فى أى وقت..

وعندما سئلت رابعة العدوية المتصوفة وقد جلست وحدها: من معك؟ قالت: أنا وحدى مع الله وحده؟ وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك.. فأنت أكثر من إنسان، أكثر من صورة لنفسك..

فأنت كما ترى نفسك

وأنت كما يراك الناس، أصدقاؤك وأعداؤك

وأنت كما تتمنى أن تكون..

وأنت الأب وأنت الابن.. وأنت المرءوس وأنت الرئيس..

فأنت كثيرون!

ومن أجل أن تتخذ صورتك شكلاً اجتماعياً فلا بد من امرأة.. تحبها وتتزوجها، أو تتزوجها بلا حب.. أو تستخدمها أو هى تستخدمك.. تكون فى يدها، أو تكون هى فى عنقك.. فى قلبك أو على قلبك..

والناس أمام المرأة نوعان:

ساسة وعشاق..

والرجل السياسى هو الذى يرى أن كل الناس «أدوات» لتحقيق طموحه.. إنهم مثل السكين والملعقة.. إنهم مثل السيارة والجرمة.. إنهم «وسيلة» لتحقيق ما يتمنى ولذلك فلا إنسانية عنده، ولا إنسانية لهؤلاء الناس.. إنه جردهم من كل صفات الإنسان.. وجعلهم «أشياء» تخدم مصالحه، وتحقق له القوة التى يريد.. ولذلك كانت قسوة الساسة وحشيتهم وسفالتهم أيضًا.

والمرأة - عندهم - هى الأخرى أداة من هذا النوع.. هى ضرورة اجتماعية.. ضرورة من أجل الأناقة، وسبيل لكى يظهر السياسى مستقيما اجتماعيا يحب الأسرة والزوجة والأولاد، مثل كل الناس.. فعالم السياسة، عالم بلا إنسانية.. عالم ليس فيه ناس..

والعاشق هو الذى لا يرى فى دنياه إلا المرأة التى يحبها.. هى الناس.. وكل من عداها لا شىء.. فلا يرى أحدا غيرها، ولا يسمع سواها.. وكل الطرق تؤدى إليها، أو تدفعه أن يبلغها..

فالناس جميعًا أدوات ووسائل من أجلها.. هوامش على طريقها.. فراشة على أشجارها، سحب فوق غاباتها.. وهو مستعد أن يضحي من أجلها، وينفسه أيضا.

فعالم العشاق ليس فيه ناس.. عالم العشاق فيه المحبوبة.. ويتمنى العشاق والمعشوق أن تخلو الدنيا لهما، فلا رقيب ولا حسيب ولا عذول ولا حسود..

السياسى يريد القوة

العاشق يريد الغناء

السياسى يرى الناس جميعا أشرارًا

العاشق يرى الناس طيبين والمحبوب أطي بهم..
السياسى يكذب حين يتحدث عن المبادئ..
العاشق لا يكذب ولا يتحدث عن المبادئ.. فالذى يعمل هو المبدأ،
والذى يعانيه هو العقيدة، والمحبوبة هي الكائن المقدس..
وإذا كان السياسى عاشقاً، فهو سياسى فقط.. مهما قال..
وأمر الساسة وأكثرهم سفالة هو: مترنيخ.. كان عاشقاً لعشرات
من الأميرات والغانيات.. وكنّ جميعاً يعملن جواسيس له.. يعملن
أجهزة للتنصت، شباكاً ومصائد لخصومه السياسيين.. فقد استغل
أشكالاً كثيرة من الضعف.. ضعف المرأة وضعف الرجل أمام المرأة..
وضعف الاثنين أمام المال.. وخوف الجميع من الغدر..

وليس فى الآداب العالمية مثل هذا العدد من «الثنائيات» التى جاءت
فى كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهاني من الجوارى والعشيقات
والمغنيات والملهومات والقاتلات ومصاصات دماء الأمراء من أجل
الشعراء، وقاتلات الشعراء من أجل الأمراء.. ولكن القاتل والقتيل فيهما
صفة مشتركة: حب الجمال.. جمال الجسم والصوت والفن..
كلهم عاشوا وماتوا من أجل العشق..
لا شغلهم السياسة ولا الحكم ولا السلطة: فالسلطان هو الشعر..
والملك هو الحب.. والمملكة كلها: تسودها المرأة وتلعب بها. والرعايا
سعداء أن يكونوا ألعوبة:

الخمير والموسيقى والجنس.. والجمال دائماً!
بل فى كتاب «الأغانى» تجد الزوج المحافظ الغيور يدخل بيته
والسيف فى يده فيجد زوجته على راحتها مع رجل غريب.. ويرفع
السيف فى وجه الغريب.. حتى إذا قالت له زوجته: إنه الشاعر فلان..

هنا يهبط ويجلس الزوج يستمع مع زوجته إلى الشاعر..
فالذنب مغفور والعذر مقبول إذا كان الغريب شاعرًا.. وإذا كانت
الفتنة هي الجمال.. ويجلس الرجل يسمع الشاعر يتغزل في زوجته،
ويسمع زوجته ترد عليه وتشيد برجولة زوجها وإخلاصه لها
وإخلاصها له.. وبالسعادة والأمان الذي يعيش فيه.. والفضل للزوج
الذي اتسع صدره للغريب مادام شاعرًا!

ولا نهاية للثنائيات في التاريخ الإنساني..
فهناك نساء تمر، ولم تترك أثراً.. ولكن هناك من حاولن..
وهناك نساء أمسكن التاريخ وجعلن منه عجينا وصنعن منه
تماثيل.. وهناك نساء حولن مجرى التاريخ، عندما وضعن قلب
الرجل في مكان عقله، وعقله تحت الأقدام فالنساء نوعان:
المرأة «الحادث»..

والمرأة «القدر»..

أى المرأة التى كانت حادثا عابرا لم تترك أثرا.. وإنما لفتت نظرا،
واحتلت أذنا، وشغلت قلبا، وراحت ضحية عقل.. وفي حياة المشاهير
كثير من هذا الطراز من النساء.. إنهن مثل الفراش حول الضوء.. يدرن
حوله ويحترقن به، وتجىء غيرهن إلى نفس النهاية ويتسلى العظماء
برؤية الفراش يتحول إلى رماد..

وهناك المرأة «القدر» التى تجذب العظماء فيدور العظيم حولها
فراشة.. فإذا هى تدخل حياته.. وتكون حياته.. وتوجهه يسارًا
ويمينًا.. وتضيف إليه بغريزتها العميقة فى البقاء والسلطة
والإبداع أيضًا.

وهذه هى المرأة التى تلهم الشاعر، وتحمى ظهر السياسى،
وتصون العالم، وتعكس الإبداع..

وفى التاريخ زوجات شهيرات وعشيقات أيضا وعاشقات ولكن
لسن جميعا «قدرا»..

فزوجة سقراط كان جهلها بعظمة الفيلسوف سقراط نكتة أطلقها
هذا الفيلسوف.. ولكنها لم تجعله يكره المرأة ويحتقرها.. فيبقى هذا
الاحتقار عشرات القرون.. فليس بسبب زوجته كره المرأة، ولكنه
احتقر المادة والجنس والرغبات العابرة، ولم ير أرفع من الفكر
والتأمل والفلسفة.. وكانت زوجته تراه رجلا عاطلا باطلا لا يأكل ولا
يشرب ولا ينشغل ببيته وزوجته.. فليس عنده وقت، ولا عنده وظيفة،
ولا هو يحب النساء.. كان يفضل الغلمان.. فهى امرأة مشهورة فقط.
وهى المرأة «الحادث» وليست المرأة «القدر».. وكذلك زوجات الأديب
لورانس وأوجينى والخديو إسماعيل وجوليت آدم ومصطفى كامل
وطه حسين وسوزان..

ولكن المرأة «القدر» هى دوقه وندسور وهى ايفا بيرون وهى
كليوباترا..

وشجرة الدر التى قتلت زوجها بالقباقيب وقتلها ابن زوجها
بالقباقيب وثار عليها العلماء وفى مقدمتهم قاضى القضاة العز
ابن عبدالسلام، لم تكن «قدرا» فلم يترتب على وجودها أو اختفائها
أى تحول فى مسار الأحداث والتاريخ..

بينما كليوباترا التاسعة ملكة مصر التى قتلت نفسها، حتى لا تقع
أسيرة فى أيدي أعدائها، ولم تكن جميلة. وإنما كانت سمراء متوسطة
القامة ذكية هى التى غيرت تاريخ المعارك وتاريخ الحكم فى الدولة
الرومانية بعد وفاة الإسكندر..

أما النساء «القدر» فهن:

الراهبة هلويز التى أحبها الراهب إبيلاز، والفتاة بياترتيشة التى

أحبها الشاعر دانتي وكلا را التي أحبها الشاعر بتراركة.. وسالومي التي
أحبها الفيلسوف نيتشه والعالم فرويد والشاعر ريكله.. وكذلك زوجات
فرويد وكارل ماركس وداروين ولفتجستون.. ومئات من ساحرات
البادية: لبنى وليلى وعبله وعزة وهند وغنية وغنيمه وفاضية
والفارغة والف فاطمة وأم الفضل وفكيةه وقرة العين وأم كلثوم وكلثم
ولبابه ولهب ولحاظ ولؤلؤة وألف عائشة وعاتكة وعاصية وعبرة
وعثمه وعفيفة وعمره وزاهده وزلفى وزمرد وعين النساء وعين العرب
وألف زينب وزنوبيا وسارة وست الأجناس وست الأخوة وست الأدب
وست الأهل وست الجميع وست الشام وست العراق وست العلماء وست
القضاة وست الفقهاء وست النعم وسديده وألف سعاد وسعدى وسعده
وألف سكيانة وسلامة وسلطانة وسلمى وسمراء والشطباء والشعثاء
والشقراء والشلبية وصالحة والصماء والصاخبة والطافية وطيبة دماء
السماء ومارية وماوية ومحبوبة ومدللة ومزاج ومصباح ومعتزة وملح
وملك وملكة ومليكة ومنورة ومنية ومهرى وموافقة ومؤنسة ومية
وميسة وميسون وميمونة ونائلة ونائفة وناجية ونزهة ونشوان
وهاجر وهيلانه ووالهة ووجيهه وولادة وياسمين.. وغيرهن كثيرات
فى كتاب الأغانى والعشق فى الأدب العربى القديم.

وسوف تمضى الثنائيات فى التاريخ علنا وسرا.
ومنذ قال امرؤ القيس، عندما وقف عند جبل «عسيب» بالقرب من أنقرة:
أجارتنا إن المزار قريب
وأنى مقيم ما أقام «عسيب»
أجارتنا أنا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

حتى قال كامل الشناوى:
أحببتها وظننت أن لقلبها
نبضاً كقلبي
لا تقيد الضلوع
أحببتها
وإذا بها قلب بلا نبض
سراب خادع
ظماً وجوع
فتركتها
لكن قلبي لم يزل طفلاً
يعاوده الحنين إلى الرجوع
وإذا مررت وكم مررت -
ببيتها
تبكى الخطى منى
وترتعد الدموع!
ومنذ قال عمر بن أبي ربيعة:
تقول وليدتى لما رأتنى
طربت وكنت قد أقصرت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء
إذا ما شئت فارقت القربنا
بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك أم لقيت لها خدينا

فقلت شكا إلى أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلمينا

وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقي العاشقينا!
حتى قال إبراهيم ناجي:
أحببت مية حبا لا يعادله
حب وأفنيت فيها العمر أجمعه
أحب عمرى الذى فى قرب مى وما
قد مر من دونها ما كان أضيعة
يامى ياقلبى الثانى أعيش به
وإن يكن فوق ظنى أننى معه
يابضعة من كيان الصب نابضة
بكل حب به الرحمن أودعه!

ومن القائد هانبيال الذى طلب من ضباطه أن يمر على البيوت
حتى تصرخ النساء ويبكى الأطفال، فتنحطم قلوب الرجال..
حتى هتلر الذى قال: سوف أجعل لكل امرأة ألمانية عشرين طفلا..
فالمرأة الألمانية لكى تلد، ويتضاعف الجنس الآرى ليسود العالم..
فالمرأة أم أولا وزوجة ثانية وعاشقة معشوقة ثالثا..
سوف تبقى المرأة هنا فى الظل، أو تجعل كل شىء فى الظل، لتبقى
هى فى النور وغيرها فى النار، أو هى النار والنور الذى يحرق ويضىء..
سوف يكون هناك اثنان.. بل أكثر من اثنين دائما!

أنيس منصور



هذا النوع من النساء

الناس يقولون: لطيف.. تقول هي: بل رجل ضعيف..
يقولون: عبقرى.. وهي تقول: مجنون.. يقول عنه الناس:
كان من الممكن أن يكون نبياً.. أما هي فتقول: يجوز..
ولكن من المؤكد لا يصلح ملكاً.. وإن كان يصلح ملكاً
بعض الوقت، فلا يصلح زوجاً أى وقت!
ويقول المؤرخون: أكبر غلطة أنه تزوج هذه الفتاة..
أما الفتاة فتقول: بل أكبر غلطة ألا أتزوجه.. إذ كيف أجد
كل هذا العدد الهائل من العشاق، بعلمه واختياره
وقراره وعلى جثته وكبريائه أيضاً!
أما هي فاسمها مسالينا « ٢٢ ق. م - ٤٨ م » أقوى
وأقسى امرأة فى التاريخ.. زوجها الإمبراطور كلوديوس،
أرق الملوك فى التاريخ.. والقاعدة: وراء كل ملك لطيف
امرأة عنيفة.. وراء كل ملك يكتفى بشرب الماء، امرأة لا
يرويها الدم. جميلة كاذبة محدثة لبقة. قادرة على
إقناعه بأى شىء. إذا أرادت منه شيئاً بكت وتلوت
وتمرغت عند قدميه.. ثم مرغته فى الوحل بعد ذلك.
وكانت قادرة على إقناعه بأن هذا الذى يعمل به بنفسه،
هو قمة الحكمة والتواضع.

كانت أمها تعمل بالسحر والدعارة.. وقد ورثت عن أمها الدعارة،
وسحر كل الناس أما الدعارة فكانت ترغب الجميلات على أن يقبلن
ذلك ثم تفضحن أمام أزواجهن!
ابنتها تزوجت الإمبراطور السفاح نيرون.
تتباهى مسالينا وهي على فراش الموت: لم أكن مخصصة لرجل
واحد يومًا واحدًا!
لماذا؟ تقول هي أيضًا: يكفي أن تخلصي للرجل وأنت بين ذراعيه..
إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك!
كانت متسلطة سليطة.. وكانت تريد أن يظل زوجها الإمبراطور
كلبًا مربوطًا في ذيلها.. ولا يهم أن تلتفت إليه، أو لا تفعل ذلك..
ف عزلته عن كل الناس. ولما علمت أن الإمبراطور يحب زوج أمها،
قتلته. وإذا نظر الإمبراطور في إحدى اللوائيم إلى واحدة. إلى ذراع أية
سيدة، قطعنها.. أو إلى ساقها بترتها. أبعدته تمامًا عن كل الناس،
وأخافته من الحارس والطبيب والصدیق.
وكان الإمبراطور يؤمن بالأحلام ويتفاءل ويتشاءم. فاتفقت مع
خادم له بأن يروى للإمبراطور أنه يحلم كل ليلة بأن أحدًا قد علق
الإمبراطور من شعره، وأغمد سكينًا في بطنه. ثم راحت تروى
للإمبراطور نفس الحلم!

هرب الناس من البلاد وانتحرت النساء خوفًا من مسالينا. وأحببت
راقصًا جميلًا ووضعت تماثيله في كل مكان.. وكان يحب فتاة أخرى.
أنت به أمام الإمبراطور وشكت أنه لا يطيع أوامرها.. أمره الإمبراطور
بأن يطيعها. فكان عشيقها بالأمر. ثم قتله بالسم.

ثم أحبت رجلاً طويلاً عريضاً وسيماً وطلبت إليه أن يطلق زوجته. فطلقها. ثم قررت أن تتزوجه بالإضافة إلى زوجها الإمبراطور. وأن يكون ذلك في حفل راقص، وفي غياب زوجها.

وكان عندها خادم قتلت زوجته لأنها تحبه! فذهب إلى الإمبراطور ونقل إليه أن الإمبراطورة قد أقامت قصرًا للعشيق وملأته بالتحف من قصر الإمبراطور. فاستدعاها الإمبراطور لتعترف أمامه. فطلبت أن يكون لقاؤهما غداً، حتى يهدأ. وكان في نيتها أن تساعد العشيق على الهرب. ولكن حراس الإمبراطور حاصروها، وخيروها بين أن تموت بيدها، أو بأيديهم.. وأخرجوا من صدرها منديلاً معطراً. ثم أتوا بالعشيق وقتلوه أمامها. وشنقوها بمنديلها.. وعند العشاء تذكر الإمبراطور أنه أمر باستدعاء زوجته والتفت حوله في هدوء: لماذا لم تحضر الإمبراطورة؟ فقليل له: لن تحضر يا مولانا..

فهز رأسه: أعرف.. لا بد أنها نائمة!

فقالوا: نعم!!

امرأة أخرى دخلت التاريخ باسم «المرأة الذئبة». وهي تختلف عن مسالينا في أن الإخلاص ليس مما يناسب زوجات الملوك والكهنة. فهؤلاء الرجال قد اختاروا شيئاً أهم وأبقى. واختاروا المرأة تكملة لذلك. فإما أن تقبل المرأة أن تكون هذه التكملة.. هذه البقية.. أو هذه الإضافة، وإما أن تخرج من حياته.. أو تخرجه هو من حياتها.. وإن لم تجد المرأة كلاماً كالعسل، فلديها ما لا نهاية له من السم تضعه في الكلام والقبلات والطعام والشراب.

اسمها ليفيا (٣٠ ق. م - ٢٩ م) وهي بكل المقاييس امرأة متوحشة. تكره باسم الحب وتقتل في سبيله، وتعيش على جثث غيرها من

أجله.. سمع القيصر عن جمالها. فنادها ومعه زوجها وقال له:
أعطني زوجتك الآن!

وأحنى الرجل رأسه، بينما اتجهت الزوجة فوراً ووقفت إلى جانب
الإمبراطور.. واندesh الزوج فلم يكن يعرف أنها سوف تستسلم بهذه
السرعة.. وأشارت إلى بطنها. أى إنها حامل. ولما ولدت بعث
الإمبراطور بالطفل لكى يقوم زوجها السابق بتربيته. وانشغل
الإمبراطور بالحرب. فهزم مارك أنطونيوفى موقعة أكتيوم. وبعدها
انتحرت كليوباترا فقد خافت أن تقع فى يده فيمسح بها شوارع روما
قبل أن تقبل قدمى الإمبراطورة ليفيا.

كانت تقول له: أنا مثلك.. أنت تستعرض الشباب بملابسهم
العسكرية.. وأنا أفضل أن يكونوا بلا ملابس.. صدقنى إن منظر رجل
عريان تماماً، مثل تمثال من الرخام بلا حياة!
بدأ الخلاف على العرش.. مات أولادها فى يوم واحد قتلت أحد
أبناء الإمبراطور.. وحفيداً له..

كانت أذكى وأقوى وأشجع.. ولم يكن غريباً أن تقول له فى إحدى
الليالى: هذا العرش الذى تجلس عليه أنا دافعت عنه سراً.. فمن أجله
قتلت فلانا وفلاناً.. وأحرقت فلانا وشيقت فلاناً.. فعرشك على كفى..
تعال وامسح وجهك فى هذه الكف.. انهض!

ويكون الإمبراطور قد شرب حتى سقط على الأرض.. ويسانده
الحراس حتى يقبل كفيها وقدميها!

تقول له: تظن أننى سعيدة بأن أرى الرجل الذى سبحت من أجله
فى بحور الدم هكذا ضعيفاً.. إن فما يقبل قدمى امرأة يجب سده
بالسم.. إن هذه الأكف لم تخلق إلا لصفع النساء!

وقبل أن تموت ليفيا، استدعت خادماً لها. وقالت: أنت تمنيت أن
تلمس قدمى.. وتلمس يدي.. الآن هذه فرصتك وفرصتى الأخيرة!

وأشارت إلى كرباج من الجلد المجدول بالذهب: أغمسه فى النار..
ثم فى النبىذ.. ثم فى النار.. واقتلنى به.. فقد تمنيت أن أرى القسوة فى
عينى رجل واحد.. لقد حرمتنى الآلهة من كل شىء يوجعنى.. فلم أر
إلا دموعاً، وإلا صراخاً!

ولم يقو الخادم على ذلك، فأتت بآخرين يضربونه ولم يقبل:
فشتموه وعيروه بأنه أعور وأنه أعرج وأنه لم يكن رجلاً قط.. فغضب
وثار وانهاه على الإمبراطورة.. حتى ماتت سعيدة بهذا الهوان!

فى الطريق إلى موسكو قالت لها أمها: ابنتى.. اكذبى لتعيشى.. لا
تصدقى أن الرجال يحبون الصدق.. كلما كبر الرجال كان استعدادهم
للكذب أكثر.. وأكثر الناس طلباً للكذب هم الملوك.. إنهم ولدوا فى
ظروف خرافية، وكل من حولهم يكذب عليهم.. فالصدق مثل الشمس،
ولأنهم عاشوا فى القصور فهم لا يرونها. ولا يحبون ذلك.. ولن
يعطيهم أحد هذه الفرصة..

ولم تفهم ابنتها. ولكن الأم عادت تقول لها: أنت ألمانىة مائة فى
المائة.. وفرنسية ٥٠٪.. ولكن ليست فى عروك قطرة دم روسية..
وسوف تكونين إمبراطورة على روسيا.. فما لم تكذبى على كل الناس
فلن يصدقك أقرب الناس..

فقالت ابنتها: سوف أفعل!

وقالت الأم: أشكرك على هذه الكذبة.. أعرف أنك لن تفعلى. ولكن
لن أموت قبل أن أراك أجمل وأعظم كذابة فى أوربا!

إنها كاترينا الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) - حكمت روسيا ٣٤ عاماً.
وهى أعظم ملكة فى التاريخ. ذكية قوية. ناعمة عنيفة. ليس لها إلا مطلب
واحد من كل الناس ابتداء بالإمبراطور وانتهاء بكلبها: الطاعة المطلقة!

إن التاريخ قد وضع علامات استفهام كثيرة عن مقتل رجال واختفاء نساء وانتحار فتيات. ولكن من المؤكد أنها وراء كل ذلك - وكان زوجها واحدًا من ضحاياها.

يوم استدعوها إلى القصر الملكي ليروها إن كانت تصلح زوجة لولى العهد، لم تكن لديها ملابس تليق. كانت شاحبة. ولكن بذكائها الفريد استطاعت أن تعرف من هم الذين سيحيطون بها، ومن الذين سوف ينقلون أخبارها ومغامراتها يومًا بيوم، وتزوجت. وفى أول ليلة جاء لولى العهد مخمورًا مترنحًا. قيل له إن الألمانية لهن سيقان جميلة وصدور أيضًا. فأنكفأ يفتش فى ملابس العروس عن مفاتيحها. فنقلته العروس إلى السرير. وفوجئت به قد أخرج من جيوبه «لعبًا» - على شكل دبة وثمانين.. تركته يلعب، ونامت على الأرض!

وأيقنت العروس من أول لحظة أن هذا الزواج صامت - أى لا حوار بينهما. لا هى تقول ولا هو قادر على أن يكمل حديثًا بدأه.. إنه زواج فاشل! وعرف زوجها أن لها عشيقًا متزوجًا، فاستدعاه هو وزوجته. وطلب من الجميع أن يلعبوا الكوتشينة حتى الصباح!

وأنجبت ولدًا آخر من عشيق لها. وفى إحدى الولايم قال زوجها، وقد أصبح إمبراطورًا: فى الدنيا سؤالان بلا جواب.. الأول: كم عدد النجوم فى السماء؟.. والثانى: من هم آباء أولادى؟

وغضبت الإمبراطورة كاترينة وغابت عن القصر وباتت فى أحضان عشيق ثالث وعاونها هذا العشيق وإخوته على انقلاب ضد الإمبراطور. ونجح. وحبست الزوج. وعندما ذهبت تزوره فى السجن وجدت سجينًا يقال له السجين الأول، عمره ٢٢ عامًا، دخل السجن وهو فى السادسة.. ولا يعرف شيئًا إلا السجان والقضبان.. وهو واحد من المطالبين بالعرش.. ولم تعد الإمبراطورة إلى قصرها إلا بعد أن أعدم هذا الشاب وقلبته برجلها جثة هامة على الأرض!

وكان لابد أن تتخلص من الذين ساعدوها على الانقلاب. فهربوا إلى عواصم مختلفة. واحد منهم اختفى في باريس. ثم أرسل إليها أعظم ماسة في التاريخ واسمها «نادر شاه».. ولكن عرفت بعد ذلك باسمه هو «ماسة أورلوف».. وكانت كلما تذكرته تقول لمن حولها: كل خلية في جسمي تناديك أيها المتوحش..

ولما علمت أنه مات أغمى عليها. فلما أفاقت قالت: أين هو؟ فسألوها: من هو..

فذكرت اسمًا لم يعرفوه.. وكان ذلك عشيقها الجديد الذي يصغرها بثلاثين عامًا.. ولما علمت أنه انتحر طلبت أن يأتوا بشفتيه وأن يسحقوهما وتشربهما في كأس من النبيذ في ضوء الشموع والموسيقى وقالت عبارتها المشهورة: نحن الملوك اعتدنا على أن نحتوى كل الأشياء وكل الناس.. فإن لم نستطع اكتفيننا بسلب أرواحهم!

كانت القضايا المعروضة على مجلس الوزراء مهمة وعاجلة. وتلفت نابليون إلى القادة والخبراء وسأل أين.. فلم يرد أحد.. واقترب منه واحد ليقول كلمة في أذنه. وظهر الغضب على وجه نابليون قائلاً: مرة أخرى يا بولين! مرة أخرى!

أما بولين (١٧٨٠ - ١٨٢٥) فهي أخته.. أحب الناس إليه.. رقيقة ناعمة جميلة.. لطيفة.. تجلس على ساقيه كأنها قطعة صغيرة وتضع رأسه على صدرها وتلعب في شعره القليل وفي أذنيه وفي شفتيه.. وقبل أن يلومها - وكان يلومها دائماً - تقول: ما ذنبي.. أخى أعظم رجل في التاريخ.. وأنا أجمل امرأة.. عظمتك تحتم عليك أن تدخل المعارك وأن تنتصر فيها. وجمالى يحشد العشاق حولى وأخوض معهم معارك لابد أن أنتصر فيها.. أنت وأنا محكوم علينا بالعذاب.. عذاب المجد، وعذاب الحب.. إننى أجد لك ألف عذر، فاعذرنى!

وكانت بولين قد اتخذت من أحد معاونى نابليون عشيقاً لها، وانفردت به فى الغرفة المجاورة لمجلس الوزراء.. وهى لم تترك واحداً من معاونيه من الشبان.. فقد كان يختار أجمل الشبان، وكانت هى سعيدة بذلك..

وهى رقم ٦ بين إخوته الثلاثة عشر. وكانت ترافق نابليون فى كل مكان إعجاباً به وحباً له. وانتقلت من جزيرة كورسيكا، فتاة ريفية عادية، إلى بريق باريس.. فأخذتها الأضواء، ودوّختها، وكانت هى ألمع نجوم باريس جمالاً وانحلالاً..

عندما تزوجت كتب إليها نابليون: بولين حبيبتى.. أحبى الناس.. أحبى زوجك وبيتك، أسعدى نفسك. واعقلى. عمرك الآن ٢٤ سنة. أنت ناضجة. كونى عاقلة!

دار حولها رجال كثيرون فأداروا رأسها، ودوّختهم. كان عندها ٦٠٠ فستان ومجوهرات بالملايين. وعريتها تجرّها ستة خيول. كانت تخرج من الحمام لتدخله مرة أخرى.. تستحم بالزيوت واللبن والعطور - فى زمن لم تكن المرأة الفرنسية تعرف الاستحمام إلا نادراً.. كانت تبدو كأنها مخلوقة فوراً، كأنها نزلت من السماء برسالة محددة إلى الأرض أن تكون معبودة معشوقة عاشقة!

وكان عندها خادم زنجى يحملها إلى الحمام الدافئ ثلاث مرات يومياً.. وأحياناً خمس مرات.. حتى هذا الخادم عندما زوّجته فتاة زنجية جميلة كانت تصر على أن يحملها من الحمام وإليه..

وعندما عاتبها أخوها الإمبراطور كيف تفضح نفسها وتفضحه فتجلس عارية تماماً أمام الفنانين لكى يصنعوا لها تمثالاً مثل فينوس. قالت: لم أشعر بالبرد فقد كانت هناك مدفأة!!

وتزوجت مرة أخرى.. وأرسلها بعيداً إلى إحدى جزر المحيط الهادى. ومات زوجها هناك لتعود تبحث عن عشيق جديد. ثم زوجها نابليون

ثالثاً.. ولكنها خانتة.. وعندما نفى نابليون إلى جزيرة ألبا، سافرت معه. وكان نابليون يبحث عنها فيجدها قد جلست عارية فوق إحدى الأشجار. وقبل أن ينطق بكلمة كانت تقول له: ألا ترى أنني آخر أساطير الإغريق.. ألا ترى أنه يتحتم عليك أن تجعلني إلهة للجمال والحب؟ ثم تقول: لا داعي.. لقد جعلت من نفسي إلهة.. كما أنك قد وضعت بيدك التاج على رأسك!

آخر كلماتها: كانت حياتي تفسيراً يومياً لهذه الحكمة: أتعس الرجال أقواهم جداً وأتعس النساء أجملهن جداً.. وكنت أتعس الجميع فقد كنت الجمال والقوة معاً!

لم يعرف الجنرال الكبير أن المقعد الأمامي قد تصلب لا يندفع لا إلى الأمام ولا إلى الوراء.. فكان لابد أن يجلس إلى جوار السائق، وكان السائق جندياً جميلة.. ولم يلاحظ أيضاً أن «الجوب» قد نقصت بضعة سنتيمترات. ولا أن الوقوف المفاجئ للسيارة كان ينتهي عادة بأن تلتوى السائقة إلى ناحيته لعله يرى شيئاً من صدرها.. وكانت لكل هذه الحيل نتيجتها.. فقد قرر أن يتزوجها. وتقدم لها ولكن الرئيس ترومان منعه من ذلك!

ذلك هو الجنرال أيزنهاور (١٨٩٠ - ١٩٦٩) قائد الحلفاء في أوروبا وبطل غزو نورمانديا وبداية النهاية للحرب العالمية الثانية في أوروبا وشمال إفريقيا. وأمامه استسلم الألمان يوم ٧ مايو سنة ١٩٤٥، إنه بطل الحرب، رئيس الجمهورية لفترتين (١٩٥٣ - ١٩٦١). أبوه بائع لبن. فقير طبعاً. كان يعمل لينفق على إخوته.. ثم دخل الجيش. تزوج ابنة رجل غنى. الزوجة اسمها ميمى. قال لها يوماً: أقول من أول يوم في زواجنا: أحب بلادى أولاً ودائماً. وأنت ثانياً.

وهو كجندى محترف تنقل في أماكن كثيرة في هذا العالم . ٣٤
مكاناً في أمريكا وفي آسيا وأوروبا.

وكان صديقاً لكثير من القادة، فكانوا يبحثون عنه لأنه بارع في لعبة البريدج. لم يكن من الذين يحبون المرأة. لقد كرهها صغيراً. وكان يرى أن الزواج علاقة كمالية.. إنه مثل الكرافتة. لا تدفئ الصدر.. ولكنها تتعلق من رقبة كل إنسان، كالزوجة بلا سبب معقول. كانت زوجته تضيق بالسكنى مع الضباط. أول أبنائه مات بالحمى القرمزية. وقرر ألا يكون له أولاد.. ولكن جاء الأولاد.

ولم يعرف الحب إلا يوم عرفت السائقة الإيرلندية أن تثيره. ولكن قال لزملائه القواد: شيء غريب قتله الزواج في أعماقي، قتله بالتدريج.. إننى غير قادر على أن أحب..

وكتب في مذكراته: استطاعت هذه الفتاة أن تنفخ في كل شيء قد مات في جسمى ونفسى.. فهذه النهضة الجسمية والنفسية هى من حقها وحدها.. وسوف أتزوجها!

ولكن الجنرال ماريشال عندما علم بذلك قال: لو فعل فسوف أطرده من الجيش. وكان يكتب لها خطابات غرامية.. وهدده ترومان بأن هذه العلاقة سوف تنسف مستقبله السياسى.

وكان مرشحاً للرئاسة. ونجح وانشغل. ولكنه فى إحدى الليالى قال: لم تعطنى الرئاسة شيئاً.. ولا أنا أحببت زوجتى، ولا هى أحبتنى.. إن أجمل كلماتها فى ساعات السعادة والهناء العائلى: أنت رجل مجنون! وعندما كان أيزنهاور ضابطاً صغيراً كان هو الذى يعد القهوة ويطهو الطعام ويحيك الملابس لزوجته. ويرى تفسيراً لذلك: أنه ليس الحب العائلى. وإنما هى روح الجندية.. فالجندى يعتمد على نفسه.. وإذا احتاجت جارته إلى مساعدة، ساعدها!

وآخر كلماته: عشت طول عمرى حريصاً على حياة مئات الألوف من البشر، وعندما انفردت بوحدة، لا أنا استطعت حمايتها، ولا هى استطاعت.. فقط تلك الفتاة التى كانت تقود سيارتى، كان فى استطاعتها أن تجعل هذه السيارة قمراً صناعياً فى الطريق إلى الجنة.. وأنا فى داخله أدعو الله ألا تهتدى إلى الجنة.. فنحن معاً - وهذا يكفى!

يقول : لا تصدق أن المرأة تكره الكذاب.. إنها تحب من يكذب عليها إذا كان يتحدث عن جمالها وذكائها.. فاكذب عليها.. اكذب.. حتى لو تأكدت أنها لا تصدقك!

وكان يواجه الناس بأزياء مستعارة من ريش الببغاء: البنطلون أخضر. والجاكete زرقاء والكرافطة حمراء.. والزراير ذهبية.. وعينان تلمعان كأنهما من الماس الأسود.. ثم لديه هذه القدرة النادرة على الحديث وإطلاق النكت واحتمال النساء. ثم يعود إلى البيت يحسب الخسارة والمكسب فى رصيده اليومى. ثم يقول لنفسه دائماً: اليوم كسبت. وسوف أضاعف هذا المكسب غداً!

إنه دزرائيلى (١٨٠٤ - ١٨٨١) رئيس وزراء بريطانيا، أقدر رؤساء الوزارات ومستشار الملكة ومؤسس حزب المحافظين. وأكبر ذئب عرفته ليالى لندن.

خاض الطريق الصعب إلى مجلس العموم ليبقى فيه ٣٠ عاماً. إن السلم الذى صعد عليه، كل شبر منه: امرأة ترفعه إلى الأمام أو إلى الخلف. ولكن الأيدى التى امتدت إليه كانت ناعمة دائماً!

يصفه خصومه: بأنه انتهازي حقيقى.

وكان يرد على ذلك قائلاً: دلونى على طريقة أخرى لكى ينجح أى سياسى!

وهو رجل صناعته الأدب.. أدب فى الحديث وأدب فى الكتابة أيضاً، يقول: تحدث دائماً إلى المرأة. فى أى مكان. ولا تكف عن الحديث إليها ومعها وعنّها. سوف تكون حديث المدينة. سوف يتضايق منك الرجال. استعن بالمرأة أيضاً. سوف يكون لك نفوذ. لا تحاسب نفسك على كل ما تقوله للمرأة. ولا تكن حساساً. قل ما شئت فى أى وقت. لا تخف إن المرأة تريد أن تسمع الكثير عنها وعن غيرها وعنك ومنك.

وينتقل من عشيقة إلى عشيقة نبيلة ثم إلى غنية. ثم اختار عشيقة أرملة أكبر منه ١٢ عاماً. طلب إليها فى يوم من الأيام أن تتزوجه قائلاً: بدلاً من أن أكون عشيقاً مأجوراً، أكون زوجاً مجانياً!

فصفعته على وجهه. ولكنه تمسك بثوبها.. وأخرج ورقة وقلمًا وراح يكتب لها اعتذاراً من ألفى كلمة. واعترف بأنه كان وقحاً. فقد أنساه الغرور من تكون سيدته، وما الذى فعلته من أجله.. واعترف بأنه أرادها لفلوسها، ولكنه الآن يريدّها هى.

ووافقت على الزواج الذى دام ٣٣ عاماً.

تقول زوجته فى مذكراتها: يسألوننى إن كان مخلصاً. وجوابى ما دمت قد اخترت من كل الطيور نسرًا عظيمًا، فكيف يكون نسرًا لا يطير.. ولا يمزق ملابسك بمخالبه ولا يهددك بمنقاره.. وكيف نحاسبه على أنه يعيش فى القمم، وأن رائحة الدم تفوح من ريشه الطويل الجميل؟!

عندما قابلها الصحفيون وسألوها إن كانت تريد حقاً أن تفضح عشيقها؟

أجابت: ليس أسهل من ذلك.. ولكننى فكّرت كثيراً. وبكيت على فشلى معه. وضحكت على سذاجة عظمتة: إنه يستطيع أن يحمى قارة، ولكنه لا يستطيع أن يحمى امرأة واحدة!

ذلك هو ماك آرثر (١٨٨٠ - ١٩٦٤) ألمع قادة الحرب الأمريكان وأكثرهم نياشين وحفلات تكريم.. وأعظمهم عند الشعب. طويل عريض قوى. من معالمه: منظاره الأسود والكاب والعصا والبايب. أعداؤه يصفونه: بارد جامد شرس.

أصدقاؤه يصفونه: لطيف.. رقيق.. ودود.

الأصدقاء والأعداء معًا: بل مغرور بلا حدود!

طلب منه الرئيس الفلبيني كرزون أن يكون قائدًا لقواته المسلحة. فكان صاحب أكبر أجر في تاريخ العسكرية في العالم. وعندما أعلنت أمريكا الحرب على اليابان اختاروه ليكون القائد الأعلى لقوات الحلفاء في المحيط الهادئ. وأمامه استسلمت اليابان سنة ١٩٤٥ وأصبح دكتاتور اليابان. واستدعته الأمم المتحدة ليدافع عن كوريا الجنوبية. واختلف مع الرئيس ترومان، الذي استدعاه وفصله؛ لأنه تجاوز سلطاته العسكرية، وراح يصدر قرارات سياسية!

ولكنه فشل في معركتين للحرب. عرف فتيات كثيرات. وفي إحدى المرات فوجئ بأنه عرف الكثيرات. وقال: لم أكن أتصور أن تكون لى مثل هذه العلاقة مع الأعداء!

عرف فتاة غنية مطلقة تحب الحفلات والرقص حافية ونصف عارية. تزوجها. لم تحضر أمه هذا الزواج. فقد كانت تتمنى لابنها من هى أجمل وأشد تمسكًا بالدين والشرف!

سافر مع زوجته لوييزة هذه إلى الفلبين. لم تطق الحياة هناك ولا أحد كان يطيقها، قررا الطلاق. وتم الطلاق.

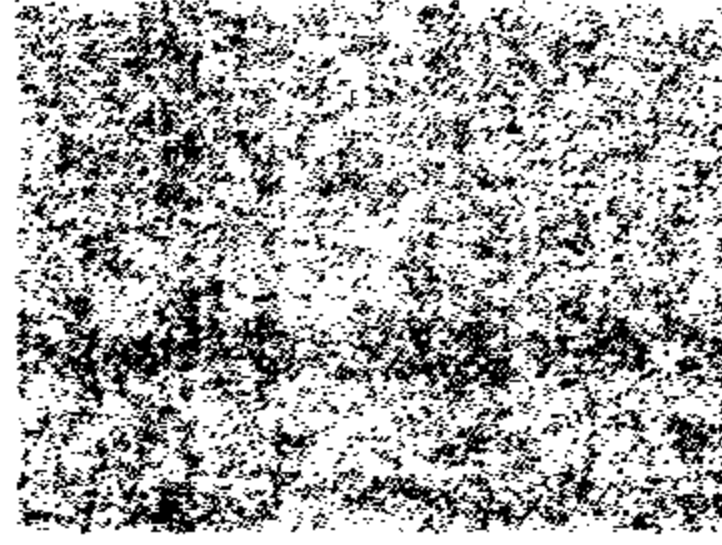
وعرف إيزابيلا فتاة صينية الأم أسكتلندية الأب. عاشت معه. نقلها إلى واشنطن، أسكنها فى جناح بأحد الفنادق. اشترى لها كل ملابس النوم، لم يشتري لها فستانًا واحدًا تخرج به. حتى ترى الشارع

مطلقاً! وكان ينفق عليها ببذخ. وفي غيابه ترددت على صناديق الليل وعرفت عدداً كبيراً من العشاق وسافرت إلى كوبا وخسرت أموالها في القمار. كتبت إليه تقول: عندى التهاب رئوى. ربما البرد! فأدهشه ذلك وكتب يقول: هذه أول مرة أعرف أنه من الممكن أن يصاب الإنسان بالتهاب رئوى فى السرير.. احرصى على قفل النوافذ والباب، فقد قرأت أن الجو شديد البرودة؟!!

وماك آرثر قد أغضب بعض الصحفيين. فتصيدوه ووصفوه بالمتوحش الدكتاتور. وكان قد طرد الفتاة الصينية بعد أن اكتشف خيانتها له، فاتصل بها الصحفيون الذين اشتروا لها ملابس أنيقة. وحصلوا على خطاباته الغرامية لها. وهددوه بالنشر. ودفعوا لها مبلغاً كبيراً من المال. وسحب شكواه ضدهم وكان قد طلب مليونى دولار تعويضاً على القذف والتجريح. وفتحت الفتاة الصينية صالونها للحلاقة.. ثم هاجرت إلى كاليفورنيا. وهناك انتحرت فى ظروف غامضة!

ومن عباراتها التى نشرتها الصحف أيضاً: أنا أحب سذاجته الفخمة.. فهو قائد عظيم.. ولكنه عبيط عظيم أيضاً!

وقالت: شىء واحد كان يحبه جداً وهو أن أستمع إليه وأنا جالسة عند قدميه، وهو يروى معاركه العسكرية وكيف فكر ودبر وانتصر.. وأحياناً كان يأتى بالخرائط.. أحب هذه العظمة.. أحب هذه القوة فى صوته وفى حركاته.. أحب هذا القائد، وإن لم أكن قد فهمت شيئاً واحداً مما يقول! وقالت أيضاً: ليس صحيحاً أن الرجال العظماء يحبون الكلام.. ولكن الصحيح هو أن المرأة تحسن الاستماع.. وعندما يتحدث الرجل فإنه لا ينظر بدقة إلى وجه المرأة أو عينيها ليتأكد إن كانت تسمعه.. إنه يريد أن يقول.. ولا يهمه كثيراً إن كانت تسمعه.. وهنا تكمن قدرة المرأة على الصبر.. هو صبر مثل شبكة حريرية ناعمة، أعدتها غريزة المرأة ليسقط فيها هذا الصياد المغرور!



الكبار والكبائر والكلمات الصغيرة!

فى البدء كانت الكلمة الصغيرة. والكلمة الصغيرة
سمعتها أذن مرهقة. والتقطت الكلمة نفس متوهجة،
فكان الانفجار العظيم.
وتكون الكلمة: أحبك..
أو تكون: كرهتك..
أو تكون: بل أحببتك لأن فيك شيئاً من فلان..
أو تكون: كرهتك لأنك لا تحب فلاناً..
وشىء عجيب من مثل ذلك.. فهذا الساحر الذى اسمه
الحب قادر على أن يجعل الصغير عملاقاً، والعملاق
قزماً، ويجعل الجنة نارا، والنار فردوساً..
والا فكيف يتحول قديس إلى إبليس.. وكيف يتحول
رجل يدعو الناس إلى حب الله، إلى رجل يدعو إلى
الحب الذى يجعل الناس يفسون الله.



إنها كلمة تقولها فتاة، دون أن تدري إلى من قالت وكيف قالتها.
ثم تمضى إلى حياتها، فإذا بالعاشق الكبير فاسق أكبر، وإذا بالمحب
الغارق فى دموعه وحش يخوض فى دموع الأخريات..
إنها «كيمياء» عجيبة التى تجعل الكلمات دماراً على العاشق
والمعشوقة. وعشرات الأبرياء..

مثلاً: كيف استطاع البابا جون الثانى عشر (٩٣٨م - ٩٦٤م) أن
يستولى على أموال الكنيسة، وأن يجعل الكنيسة ماخوراً وأن يحكم
روما والعالم المسيحى بمعاونة عدد من النصّابين والبلطجية. وكيف
أنهم كانوا يستوردون له العشيقات وهو لا يزال فى العشرين من
عمره.. فتيات من كل طول وعرض ولون. كيف وقف البابا يتصيد
المؤمنات الجميلات ويستدرجهن إلى فراشه.

مرة واحدة فقط رأى أحد الأزواج البابا وهو يطيل النظر إلى
زوجته.. وإلى زوجة تخرج من الصفوف وتتجه إلى قداسته، والاثنان
معاً يتجهان إلى الداخل.. وسار وراءهما الزوج.. ثم انهال ضرباً على
البابا حتى مات بعد أيام.. وكان الزوج لم يكفه ما فعل بل راح
يستعدى عليه الناس جميعاً. يصرخ ويقول: أنت الذى تمسك مفاتيح
السموات.. أنت مجرم مقدس.. أنت!

أما البداية فقد كانت أن البابا وهو فى الثامنة عشرة قد رفضته
فتاة صغيرة. تهجّم عليها. فأسقطته.. وداسته بقدميها. ونهض البابا
الصغير ينفذ خجله وعاره ويتوعد.. ولكن الفتاة اختفت لتظهر
عشرات الفتيات ينتقم منهن البابا!

إنها مرة أخرى قصة الملك شهريار الذى خانته زوجته، فقرر أن

ينتقم من كل النساء. فكان يقتل واحدة كل ليلة.. حتى ظهرت له شهرزاد تشغله عن الاستمرار في الجريمة ألف ليلة وليلة!

وحتى في القرن العشرين عندما ظهر رجل في نيويورك يدعى الألوهية.. إنه الأب المقدس (١٨٧٧ - ١٩٦٥) جورج كيلر الذي أسس بعثة السلام. وسارت وراءه ألوف النساء يعشن بلا جنس، حتى لو كنّ متزوجات. ولكنه كان غارقاً في الجنس. وفوجئت المؤمنات بأنه متزوج من زنجية.. ثم من واحدة بيضاء.. وله عشيقات.. وفي سنة ١٩٣١ اعتقل البوليس هذا المقدس الزنجي.

ولما سئل كيف تكون مقدساً تدعو إلى الطهارة وأنت هكذا.. وإلى الإخلاص، وأنت بلا إخلاص، كيف تعتدى على المؤمنات؟ فأجاب: بل إننى أخرج الشر من أجسادهن، ثم أقضى عليه! وأدخلوه السجن عشرات السنين. وفي السجن كتب اعترافه يقول: زوجة أبى عندما وجدتني أعانق فتاة صغيرة بيضاء بالإكراه، أمسكتني ووضعت رأسي عند ذيل إحدى الأبقار وهي تقول: يجب أن نعطيك ما هو أسوأ من الوحل.. ولم أنس هذه الكلمات ولا هذه العقوبة.. ولا أعرف كيف انقلبت هكذا على كل الناس!

وكذلك السيدة المقدسة إيمي ماكفرسون (١٨٩٠ - ١٩٤٤) مؤسسة الكنيسة العالمية، وأتباعها كثيرون. وفي سنة ١٩٢٦ أعلن البوليس أنها نزلت إلى البحر ففرقت.. ولكن اكتشف البوليس أنها ظهرت في المكسيك وقد أقفلت الكوخ على نفسها وعشيقها عشرين يوماً.. وأفلحت في أن تقنع المؤمنات بأنها في ذلك الوقت تتلقى الوحي.. وجاءها الوحي وأمرها بأن تعود إلى الكنيسة؛ لأن ألوف النساء سوف يسرن وراءها.. وصدقته النساء، وتضاعف عددهن!

أما سر هذه المقدسة فقد أعلنه واحد من عشاقها بعد ذلك. إنها لم تكن جميلة ولا مثيرة.. ولكن صوتها فقط. فهي تصب كل مشاعرها في حنجرتها إنها مطربة لا تغنى.. فإذا استمع إليها أحد وهي تهمس في أذنه فهو ضحيتها لاشك، وإذا زارت مريضاً أصبحت هي المرض الجديد.. وإذا هنأت عروساً بزفافها أحس العريس أنها هي التي يجب أن تكون عروساً.. فصوتها دافئ هامس.. كأن كل نبراته أصابع ناعمة تلمس وتدغدغ وتثير. وهي تعلم ذلك تماماً!

أما مأساتها فقد اعترفت بها إلى إحدى المؤمنات.. فقد وقفت أمام المذبح تقول: يا ربى.. يا سيدى أنت خلقتنى شديدة الحساسية، نافذة الصبر.. مفتونة بالرجال.. لا أقوى على انتظار عقابك.. سامحنى.. اغفر لى.. سأتولى عنك تعذيب الرجال.. فإن كان عذابك أكبر من عذابي فعاقبنى، وإن كان دون عذابك، فالذى فعلته يرضينى.. سامحنى!

أما عذابها الذى دفعها إلى الانتقام: فقد أكرهتها زوجة أبيها على أن تكون عشيقة لعشيقها هي أيضاً. وكانت فى الثامنة عشرة!

أما التفسير النفسى لهذا الطراز من الناس فهم جميعاً يعذبون ويتعذبون. فكلما اعتدى واحد على واحدة بكوا لذلك.. ولكنهم لا يستطيعون أن يتوقفوا. لا يقدرّون على أن يكفوا.. يغسلون أيديهم فى الدم ثم يشربون، ولا يرتوون.

أما الضحية فقد كان عذابها ساعات، أما القاتل فعذابه سنوات.

وفى تاريخ الحب ثلاث قصص تناولها الأدباء والشعراء والموسيقيون. وفى هذه المآسى الثلاث كثير من الدم والعار، وكثير من الآهات والأسى.. وفى واحدة: رجل يقول إنه ظلّ الله على الأرض.. وهو قد أذل الإنسان ومسح العرض بالأرض.. وفى المأساة الثانية:

الحب أقوى من كل عاطفة أخرى.. وباسم هذا الحب ترتكب المعاصي والجرائم.. وأقصى وأقصى درجات ودركات العذاب والهوان على الناس.. وفي الثالثة: لا حب ولا قداسة وإنما وحشية تتسلط على النساء، فيركعن عند قدمي القداسة المتوحشة..

لا أحد لا يعرف قصة البابا إسكندر السادس (١٤٣١ - ١٥٠٣) وليس من رجال الدين واحد لا يضع يديه على عينيه عندما يقرأ اسم الرجل، وليس من الراهبات واحدة لا تهرب من سماع اسمه.. والجميع على حق: فقد استباح هذا البابا كل المقدسات باسم القداسة، واعتدى على كل الحرمات، وكان مجنوناً ويدعو إلى الجنون أيضاً.. ولد في أسبانيا، واستطاع أن يصل بالمال والمغامرة إلى مكانه الرفيع في الكنيسة الكاثوليكية. ولا أحد يعرف على اليقين، كم عدد أولاده غير الشرعيين.

وقد اعتمد هذا البابا على أسرته الغنية القوية: أسرة بورجيا. واستخدم المال في الحصول على لذاته وشهواته. ثم أنه ككل أفراد أسرة بورجيا قد احتكر صناعة السموم. فهو يضعه في النبيذ. وهو أول من استخدم حبات العنب ووضع فيها السم ينقله من فمه إلى فم المعشوقة؛ لتموت بين يديه وسعادته الصارخة.. وبدأ حياته الفاجرة في سن مبكرة.. وكانت له عشيقة وهو في السادسة عشرة.. وثانية وثالثة.. وكان الناس يسمون عشيقته «عروس السماء».

وامتلأت الغرف المقدسة بالفتيات العاريات.. الراهبات والمؤمنات.. والراقصات.. وكانت للبابا نزوات شاذة.. فقد كان يأتي بالراهبات العاريات، ويلقى على أجسادهن «أبوفروة» ساخناً ملتهباً. وكنّ يصرخن، وهو في غاية السعادة.. ثم يلقي على أجسادهن الملهبة بالنبيذ؛ ليزداد صراخهن ونشوته..

وكانت ابنته لوكريسيا سفاحة دموية.. وكان أبوها المقدس يدرّبها على الجنس فكانوا يأتون لهما بالخيول والكلاب ويشرح لها أبوها بالضبط ما هذا الذى يفعله الذكور بالإناث.. وأن هذه الطرق أفضل وأقوى وأمتع..

ولا أحد يعرف إن كانت لوكريسيا هذه قد أنجبت أولادها من أبيها أو من أخيها.. وهذا الفاجر المقدس يجد له المؤرخون مكاناً عريضاً فى عالم الفن.. فهو قد شجع الفنانين على الرسم والنحت.. وأنفق عليهم الكثير من المال.. أما تفسير ذلك فهو أن قداسته كان يحب أن يكون جو المذابح فنياً فريداً.. أى إنه يحب أن يعتدى على الفنانين أيضاً، وأن يشركهم معه فى الجريمة.. وليس الفنانين وحدهم، وإنما الملائكة أيضاً. وكان فى جنون نشوته يقول: إننى أرى الملائكة تتدلى من سقف الكنيسة تبارك هذا السحر الحلال والقداسة الحرام!

أما كيف كانت بداية هذا الفجور فالبابا قد رواه بنفسه فى إحدى الليالى وقد جلس على العرش البابوى.. وهو لا ينسى ذلك اليوم حين اعتدت سيدة كبيرة عليه وهو طفل وقد أحبها بجنون.. والفارق كان ثلاثين عاماً.. أكرهته.. ضريته.. ثم أكرهته فأحبها أكثر.. ثم هددته بأن تحرقه بالنار.. ثم أحرقته.. وكلما صرخ من الاحتراق غطت جسمه بالزيت.. وراحت تبكى لبكائه، ثم ألبسته فستاناً من الحرير وأشعلت فيه النار.. هو يصرخ وهى تبكى على ذلك.. ولم ينقذه إلا حين أغمى عليها.. ولم يكن البابا فى حاجة إلى أن يرفع صوته، عبر القرون، لنسمعه وهو يقسم على أن ينتقم.. وقد انتقم!

وفى سيبيريا السوفياتية ظهر فلاح ضخم طويل عريض.. كان يتهجم على الفتيات.. وكان يتوارى وراء الأشجار.. ولا يكاد يرى فتاة

تمشى وحدها، حتى يقترب منها.. وبعد لحظات يعتدى عليها.. ثم يعتذر لها ويقول: لا أعرف.. إن فى داخلى شيطاناً يستولى على عقلى ويسخرنى لخدمته!

وعرفت النساء هذا الفحل راسبوتين (١٨٧١ - ١٩١٦). وتحدثن عنه. وتعرضن له فى الطريق. وقد أدرك بذكائه أن المرأة هى أحسن داعية لأى شىء.. وكان لابد أن يهرب من القرى خوفاً من غضب الآباء والأزواج. ولم يجد مفراً من أن يتزوج، حتى يأمن له الناس. فى العشرين أنجبت له الابن الأول.. والرابع والخامس..

وكانت له ذاكرة قوية. فقد حفظ كتاباً فى السحر والعلاج الروحى.. وكان ذلك سبيلاً مضموناً لقلب المرأة، ولجسمها قبل ذلك. وكان قد درس الدين. وأقسم أن يكون قسيساً.. وهكذا تجمع له الدين والسحر والجنس. ولا أحد يعرف كيف استطاع هذا الفلاح القس أن يعالج المرضى، وأن يشفى النساء من كل مرض.. لقد كان مرضاه من النساء وكن أكثر الناس إيماناً بقوته وعظمته وقداسته أيضاً. وكانت النساء تقف بالطابور. وكل واحدة تعرف بالضبط ما هو العلاج الذى ينتظرها.. وكان قادراً على شفاء عشر وعشرين فى جلسة واحدة!

واتجه إلى العاصمة، وانتقلت سمعته إلى آذان الإمبراطورة، وقبل أن يصل إلى العاصمة كانت جلالته تفكر فى طريقة للوصول إليه.. فإذا به يصل إليها ويستولى عليها وعلى القصر وعلى كل قرار تصدره جلالته. وفى القصر عرف أجمل جميلات الأسرة المالكة. وبدأت مغامراته بالجملة: زوجات الأمراء وعشيقاتهم وزوجات الجنرالات وعشيقاتهم وخادماتهم.. وتسلمت إليه أيضاً نبيلات الدول الأوربية.. وكان راسبوتين يجد متعة فى أن يتحدث عن قدراته الخارقة، ويجد سعادة أكبر من أن يترك النساء يتحدثن عن ذلك.. ويطلب إليهن المزيد

من الوصف الدقيق.. وله نظرية: إذا أردت أن تستولى على امرأة، فاترك امرأة أخرى تمهدُ لذلك.. فهي أقدر على فهم المرأة.. وهي فى نفس الوقت لأنها مغرورة فسوف تتباهى وتضيف إلى نفسها صفات ليست لها.. وهي بذلك تتحدى كل امرأة أخرى أن يكون لها حظ معي.. ولا شيء يشعل النار فى امرأة إلا غيرتها من امرأة أخرى.. وإذا أردت أن تحطم قلب امرأة، فاطلق عليها امرأة أخرى.. وإذا كان من الصعب أن تستخدم امرأة فى القضاء على امرأة، فأسهل من ذلك أن تقضى على رجل.. أى رجل.. والسلاح هو المرأة دائماً..

وكانت له عقيدة دينية - هي لا دينية أيضاً، يقول: كيف نطلب من إنسان أن يستغفر إذا لم تكن له خطيئة.. كيف يعفو الله عن الذين لم يرتكبوا إثماً.. إذن لا بد من الخطأ والخطيئة حتى يكون العفو والمغفرة، والجنة بعد العقاب والحساب. وكلما كانت الخطيئة فادحة كان احتياجنا إلى الصلاة وطلب العفو أكبر!

وطبيعى بعد ذلك أن يتكاثر عليه أعداؤه - الذين أهيئوا فى عرضهم، والذين يتطلعون إلى السلطة التى استولى عليها عندما احتكر الإمبراطورة والإمبراطور.. ووضعوا له السم. فكان أقوى من السم. فأطلقوا عليه الرصاص، وكان أقوى من الرصاص. فألقوا به تحت الجليد؛ ليموت رجل الدين الذى ادعى أنه كان يعبد الله على طريقته، والذى كان يساعد العدل السماوى على تحقيق الرحمة والعفو عن الناس! وراسبوتين يشغل مكاناً بارزاً فى علم نفس الجريمة. وعلم نفس الشذوذ.. وقد حاول كثير من العلماء أن يتسللوا إلى نفسيته المعقدة، كان لكل واحد رأى، ولكن راسبوتين لم يدع لأحد أن يجتهد فى تفسير هذا الساحر النصاب. فقد جاء فى مذكرات له نشرت فى سنة ١٩٤٧ أنه اكتشف فجأة هذه القدرة الشاذة. وأدرك أيضاً أنه من الصعب أن

يكون داعياً للحب والرحمة والاعتدال والزهد. فقد أكل عشرين سمكة وشرب وراءها زجاجة فودكا وابتلع رطلا من السكر، وكان في الثانية عشرة من عمره!

وفي إحدى الليالي أمسك فانوساً ووقف أمام البيت حتى الصباح في انتظار والدته . وعندما طلع النهار كان مثل تمثال من الجليد، تطل منه عيناان لامعتان لم تعرفا النوم . وكانت أمه قد عادت دون أن يدري بذلك.. ولم يصب بمرض!

أما البداية الأليمة فعندما استدرجته إحدى الغانيات إلى فراشها.. ولم تمض لحظات حتى ألقت به من فوق السرير وهي تقول: كأنك ثور خرج من الزريبة تَوًّا!

ولم يكن من عادته أن يستحم!

ويعلق راسبوتين على هذه الحادثة بقوله: منذ ذلك الحين قررت ألا أستحم حتى الموت.. وأن تكون رائحتي الكريهة هي العطر المفضل عند النساء!

ومن خمسة وعشرين عاماً صدرت مذكرات الفيلسوف الألماني الكبير باول تليش (١٨٨٦ - ١٩٦٥) وهو أيضاً من رجال الدين، وقد تحدث عن راسبوتين، وراح يبرر كل خطاياهم.. إلا أنه لا يستخدم الماء، ويفضل عليه العرق! ويختلف معه في أن أجمل ما في المرأة ليس وجهها وإنما قدمائها.. ففي هذه القدم توجد كل ملامح الوجه: العيناان والشفتان والنعومة والانسياب..

تقول زوجة الفيلسوف تليش: لو لم ير قدمي، ما تزوجني! ويقول: إن الإغريق والرومان قد اخترعوا الأحذية.. ولكن لأنهم عشاق لأقدام المرأة جعلوا الصندل في قدميها منات السنين.. وقد عرفت المرأة ذلك، فكانت تضع العطور بين أصابعها.. وتضع الخواتم

الماسية أيضًا.. وكان من عادة المرأة الرومانسية أن تلقى بالخاتم من إصابعها في أقذار النبيذ.. وكان الرجال يتبارون في امتصاصه ووضعه في أطراف أصابعها ليتوالى سقوطه حتى الصباح!
ويقول تليش أيضًا : وعندما انتشرت موضة شرب النبيذ في أحذية راقصات الباليه، كان السبب هو أن النبيذ الذي يتساقط من الأقدام لا يكفي لارتواء الرجال..

وكان راسبوتين هو الذى يضع النبيذ فى حذائه الضخم، وتتسابق النساء فى شربه.. أو إلقائه على أجسادهن!

وأخيرًا.. لابد أن تحتار العيون مع هذه المأساة الخالدة. هل نبكى عليها بعين واحدة. هل نلطم خدًا واحدًا.. هل تفتح الجنة لهما، عفواً عنهما، هل نكمل عذابهما حين نتعاون على إلقائهما فى النار التى دخلهما معاً فى باريس وفى أديرة أخرى كثيرة.. هل لأنه رجل دين، ولأنها راهبة، فالعقاب أعنف واللوم أشد والقذوة الحسنة واجب.. هل لأن الحب سيد الموقف.. الأمر الناهى.. هل لأن الموت هو الأمل؟ ولذلك فقوانين الأرض والسماء لا تسرى على المحبين.. هل نرفع أيدينا فلا نرجمهما بالطوب والحجارة.. أو هل نبني لهما بالطوب والحجارة قبرًا من الشوك والأفاعى.. عذابًا لا نهائيًا لهما؟!!

إنه الفيلسوف الدينى أبيلار (١٠٧٠ - ١١٤٢) من أسرة غنية قادرة على أن تستأجر وتشترى له بيتًا فخماً، وأن تساعد على بناء المدارس والأديرة لمن يؤمن بفلسفته التى اصطدمت بالأفكار المنتشرة فى ذلك الوقت..

هل لأنه بتكوينه الطبقي والفلسفى غير تقليدى، ومخالف للمألوف، قد اندفع دون أن يدري إلى حب إحدى تلميذاته.. راهبة اسمها هلويزه فى الرابعة والعشرين من عمرها وكان فى الثامنة

والأربعين.. إنها كارثة. مصيبة سوداء أن يفتح الفيلسوف كل كتاب ويقلب صفحاته فلا يجد إلا صورتها، وإلا صوتها. إذا دقت الكنائس أجراسها أحس كأنه عريس شرف وأن هذه الأجراس زغاريد.. وكلما أحس بالفجيعة التي سوف تصيب راهبًا عظيمًا انكفأ يكتب على طريقة العصور الوسطى خطابًا باللغة اللاتينية إلى أحد الأصدقاء يعترف بما أصابه. وبما سوف يصيبه. إنه الحب العنيف.. إنه سلطان سلاطين مملكة الفكر وشيطان شياطين الحب.

وكانت هلويزه تعيش مع عمها. وعمها رجل بخيل. ولم يعترض على أن يقوم أبيلار بإعطائها دروسًا خصوصية. ما دامت بالمجان. وليس معروفًا إن كان عمها. فلا أحد يعرف شيئًا عن أبيها وأمها وأسرتها. ولكن هذا العم يتكفل بها. وكانت هلويزه جميلة ذكية واسعة الثقافة الفلسفية والدينية والأدبية. وعندما اكتشف الأثريون بقايا جسمها من قرون لاحظوا أنها عريضة الجبهة وأن جسمها متناسق وأنها رقيقة.

وكان أبيلار لا يمل وصفها في كل رسائله. يقول: لا أرى لك نظيرًا بين النساء. ولا أرى لك نظيرًا بين العلماء. ولا أرى لي حياة بغيرك، ولا سعادة مع سواك، فهذا قدرى وقدرك، هذا قدرنا.. كما أن العذاب قدرنا. وتقول هي: لا ملك ولا فيلسوف يرقى إلى مستواك.. يا من هو أعلى من كل جبل، وأسمى من السماء، وشمس تبهر الشمس! يقول الفيلسوف أبيلار إنه القلم وليس اللسان وسيلته الوحيدة لأن يعيش الحب، وأن يصلى له.. إنها وحدة الكلمات المكتوبة. أما الكلام فذلك شيء بعيد.

وهرب أبيلار إلى الحياة في الأديرة يقاوم الحب الذي جرفه بعيدا عن الدين. وظل في الدير سنوات. وبعدها خرج أكثر اندفاعًا يبحث عنها.

وعاد عم هلويزه يطلب إلى الفيلسوف أن يتفرغ لتعليم هلويزه ليلاً ونهاراً. يقول أبيلار: وهكذا وجد الذئب الجائع هذا الحمل الوديع! ويقول: فى تلك الأيام قلنا معاً كل ما له علاقة بالحب والحنان والحرام والحلال والهرب والانتحار، كل هذا قلناه ولمسناه وعشناه.. وقررناه، وكل ما عدانا أصبح صغيراً، وكل من حولنا أصبح شبحاً وظلاً.. لقد كبرنا جداً، وصغرت الدنيا جداً.. لقد حكمنا بالإعدام على الكون، وأفرغناه من الناس والقوانين، وظلت لنا الكرة الأرضية: بلا أحد! وأرهقته الليالى الطويلة، ولاحظ الطلبة أن أستاذهم لم يعد قادراً على أن يكون أستاذاً. انشغل بنظم الشعر وتأليف الأغانى والموسيقى.. وفاجأ العم الفيلسوف والراهبة فى فراش واحد. وكانت صدمة للعم.. وطردهما، أما هى فكانت سعيدة. تقول: أخيراً وجدت واحداً، أى واحد، رأى وأيقن من هذا الحب الذى بيننا!

ثم دخلت أحد الأديرة وأنجبت ابنها الذى أسموه «أسطربلاب» - وهو اسم تلك البوصلة القديمة التى يضعونها فى السفن. ولكن أحداً لم يعرف لماذا هذا الاختيار؟

وذهب أبيلار إلى عمها يعده بالزواج من هلويزه! واختلف العاشقان: هل يتزوج الرجل الذى نذر نفسه لله. إن القديس بولس لم يتزوج، والفيلسوف شيشرون والحكيم سنيكا.. فكيف يتزوجان؟

إن أبيلار يقدر الله، وهى تقدر الله الذى فى داخله. ولكنها تقدر النظام الذى أمانها وفضحتها.. إنها تقدر رجلاً أمان الدين والقداسة! وقالت له: إن زواج سقراط كان فادحاً.. فضيحة.. فلم يكن من السهل أن يتزوج فيلسوف. فالفيلسوف يجب أن يتفرغ لشيء ليس عادياً، والزواج يجعله رجلاً عادياً..

وقد طلبت منه ألا يتزوجها. ولكنه كان العاشق الغيور عليها من أن تحتويها أحضان رجل آخر.. وتركا الطفل عند أخته في شمال فرنسا ولم يذكره واحد منهما بعد ذلك..

وعاد الاثنان إلى باريس وتزوجا سرًا. وقرر عمها أن يعرف الناس هذا الزواج. فأقام حفلًا دعا إليه كل الأصدقاء والأقارب والخدم والأعداء، وتحدثت باريس عن هذا الزواج، الذي أنكره أبيلار وهلويزه.

ولكن العم قرر أن ينتقم منه. فاستأجر عددًا من البلطجية، وهجموا على أبيلار ومزقوا أعضائه! وتوارى أبيلار في أحد الأديرة مع الفضيحة والعار عشر سنوات. لم يشأ أن يبحث عنها. ولا أن يبعث لها بخطاب واحد..

وسافر إلى روما.. والتقى برجال الدين والبابا؛ ليكسب عطف الناس عليه..

ومات بعد ذلك بعشرين عامًا. وفي هذه العشرين عامًا كان يحدث الناس عن عذابه وعن هوانه.. وكانوا يستمعون مرة إلى عذابه ومرة يشمتون في هوانه.. وكان له أعداء في الفلسفة والدين، وأصدقاء في الحب والعشق..

والتقى بهلويزه.. ورأت كهلاً محطمًا. ورأت قبرًا يمشى على قدمين.. ورأت أفكاره مثل تراب القبر، وقلبه مثل كهف مظلم رطب.. ولكنه في داخل الكهف لاتزال شمعة الحب تضيء، ولو لم يكن هناك أحد.

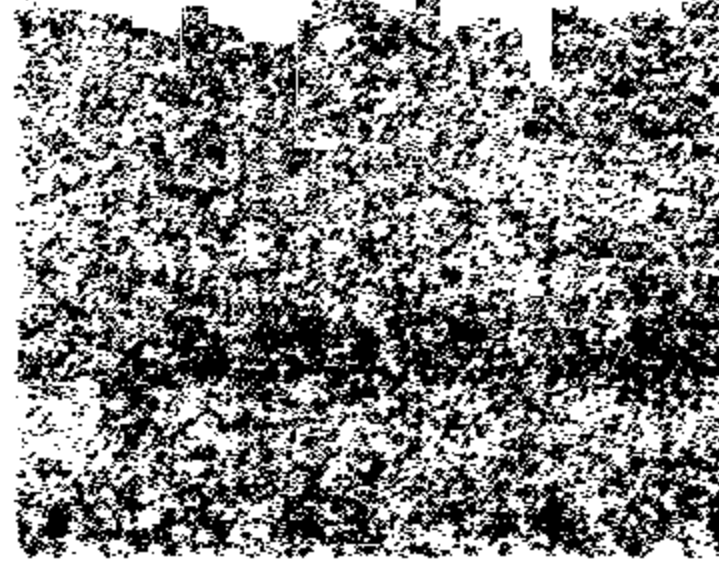
ومات ودفنوه. ولما ماتت هي أيضًا دفنوها في نفس القبر. ويقال إنهم عندما أنزلوها إلى القبر نشرت ذراعيها ونشر هو ذراعيه.. واستأنف الاثنان عناقهما الأبدى!

تقول هلويزه فى رسائلها: ما حيلتى.. إذا كان الإيمان يجعلنى بلا جسد، وإذا كان الحب يجعلنى بلا إيمان.. وإذا كنت أجد فىك الحب والإيمان.. فما تقوله لى: أمر.. وما تفعله: واجب مقدس.. فكيف أقاوم من استطاع أن يجعل السماء لحمًا وشحمًا ودمًا ونورًا ودفنًا؟ قل لى أرجوك كيف؟!

ويقول أبيلار: أنت أحسن حالاً.. أنت استطعت أن تفرقى بين السماء والأرض.. بين الإنسان والملاك.. بين الله وبين الشيطان.. بين نداء الحب وصوت الرب.. ولكن أنا لم أستطع.. لم أعرف الفرق بين الألوان.. وبين الأصوات وبين الناس.. فكل الأصوات صوتك، وكل الناس أنت، وكل نجوم السماء عيناك، وكل رحيق الزهور شفتاك، حتى أنا أجدنى فىك.. فأنت أنا وأنا أنت، والذى اختاره لنفسى، لنفسك أيضًا.. فنفسى نفسك.. وليس عندى وقت أفكر فيما تقولين، فالذى تقولين هو ما أقول.. ولا أعرف كيف أفكر فيما أقول.. فأنا مندفع إليك.. بل إننى لا أبرح نفسى.. فأنا مندفع فى داخلى.. اعذرينى.. لم أعد ذلك المدرس القادر على الشرح.. فالدرس صعب، والمدرس قليل الحيلة، ولا أتوقع منك خطابًا، فخطابى إليك هو خطابك إلى.. اعذرينى.. فأنا عندما حاولت بك ولك ومعك أن نمحو الكون كله من أجل أن نبقى وحدنا، نسيت ومحوت نفسى ومحوت نفسك.

محونا أنفسنا.. فانمحيننا.. إن عدمى يخاطب عدمك.. فيا عدمى الذى هو أقوى من الوجود لم أعد فى حاجة إليك، فقد استغنيت بك عن كل شيء وكل الناس.. استغنيت بك عنك!

أما ردها عليه، وهو آخر كلماتها إليه: معك حق، معى حق.. أنت وأنا: الحق!



المستحيل: زوجة السلطان !

هذا فيلسوف عاشق لم أجد اسمه بين الفلاسفة
أو العشاق. هي الصدفة التي جعلتني أقفز في أعماله
الأدبية وحياته. هل هي مأساة؟ هو يقول إنها كذلك،
إنه دوموس فيكتور. من أصل إيطالي! يجوز. من أصل
مصري! ربما.. هل لا أصل له؟ محتمل..

ولكن من المؤكد أنه «عجري» الطباع.. نافر.. بعيد..
متباعد.. وحريص على أن يظل كذلك. هو يقول: إنني لم
أتزوج، وليس في نيتي. والحقيقة: أنه متزوج.. ويفسر
ذلك بقوله: إن الزواج شعور بقيود كثيرة، ولكني لست
أشعر بشيء من ذلك.. ولا يريد!!



يقول كثيرًا وطويلاً هكذا: لها حياتان: حياتها وحياتي! نحن
عقلان في رأس واحد: رأسها!
أفضل أن أذهب إلى طبيببة الأسنان، فعندها أجد من يقول لي:
افتح فمك!
أحب أن أنظر إلى الأرض عند قدميها كلما حدثتني: إنها قطعة
أرض في مقابل قطعة سلام!
ليس صحيحاً أن المتزوجين أطول عمراً، فقط إنهم يشعرون بأن
سنواتهم تتحرك ببطء!
أنا وهي نحب شخصاً واحداً: هي!
تزوجنا على الحلوة والمرّة - لم أستطع أن أكون أحلى، ولم تستطع
هي أن تكون أكثر مرارة!
متناسبان تماماً: فكل منا يكره الآخر!
الحب كأفلام التصوير يجب تحميضها وطبعها في الظلام..
وكأفلام السينما القديمة لها نهاية سعيدة.. وكأفلام السينما
الجديدة لا تنتهى بالزواج!
- أحب ومستعد أن أموت من أجلك!
- متى؟
- ما الذى يجعلك على يقين من أنهما مخطوبان؟
- هي تضع دبلة وهو مفلس!
- ما الذى تعرفه عن الحب؟
- كثيراً جداً.. لقد عملت سائق تاكسى لخمس سنوات!
- لقد أرهقنى حبها!

- إنها غلطتك لماذا لا تكف عن الجرى وراءها؟!
قبل الزواج وعدتني أن تمسح وتكنس وتكوى - فلم تتوقف عن
مسح دموعها، وكنسى من البيت.. ثم كوتنى بنار الغيرة!
لم أكد أوافق على الزواج حتى أخرجت ورقة من جيبها وكتبت :
الشقة ومدرسة الأولاد.. وهل من الضروري أن تزورنى أمك ما دامت
لا تتفق مع والدتى!
- يقال إنه سوف يتزوج!
- يستاهل. إنى أكرهه!
- هل هو زواج سعيد؟
- أعتقد ذلك.. فهو لا يزال يبتسم رغم مرور يومين على هذا الحادث!
ليس عاراً أن تكون فقيراً، ولكنه فى غاية التعاسة!
قلبها من ذهب: جامد لا مع بارد!
من المؤكد أن قلبها معى، ولكن بقية أعضائها، مع الآخرين!
بعض فساتينها تفضحها، ولكنها تفضح أكثر فساتينها!
أسميها: قوة - فقد عرفت معها الأرق والليالى الطويلة!

إن قصة هيامى بالفجر وحياة الفجر طويلة.. فإننى أرى حياة
الفجر أنسب حياة للفنانين والفلاسفة: أن يكونوا بعيداً عن الناس
ولكن يرقبونهم.. من حين إلى حين يذهبون إليهم، يتزودون بالمعانى
ثم يعودون إلى أبراجهم يفكرون ويتأملون دون أن يطاردهم حاكم أو
قانون أو تقاليد: إنهم دودة قز.. إنهم حيوان لؤلؤ.. إنهم نسور يبنون
أوكارهم فوق! سعداء؟ ليس من الضرورى.. فالسعادة ترف عظيم..
إنهم على الحافة بين الرضا والسخط، بين الأمن والقلق! تعساء؟ ليسوا
سعداء ولكنهم معذبون بما لديهم من حساسية شديدة.. هل هناك حل؟

لا حل فهم مشكلة إنسانية مهمتها حل مشاكل الإنسانية.. إنهم مثل مخترعى العدسات.. أكثرهم ضعيف النظر. ولكن مهمتهم خلق شيء يستخدمه الناس ليروا أوضح وأبعد وأعمق..
فما الذى يريده دوموس فيكتور (٨٥ عامًا) من حياته ومن غرامياته؟

إنه اختار المستحيل. وكفى..

وكل فنان يختار نوعاً من المستحيل، ويمضى العمر كله يحاول الوصول إليه.. كل الشعراء أحبوا القمر.. ولياليه.. وأحبوا معه المحبوبة.. وكرهوا مع لونه الغيرة، وخافوا مع اختفائه من الهجر والموت.. وأحبوا الأماكن البعيدة المهجورة.. ليبقى الحبيبان وحدهما. وكان الشاعر الجاهلى القديم يقول لمحبوبته: لو كنا جملين أجربين فى صحراء مقفرة - فلا يقربهما أحد، ولا يراهما.

وكل فتاة تحلم بمن يجيء والناس نيام ويضعها على حصان أبيض.. ويظل الاثنان على ظهر الحصان حتى الموت.. أو قبل الموت بدقيقة واحدة فى مكان مهجور.. فقط تريد أن تكون وحدها معه، حتى ولو لم يكن هناك هدف - حتى فى القبر!

وفى الأساطير القديمة: كانت بنت السلطان - أى الرجل القوى العظيم صاحب القلاع والحراس ليلاً ونهاراً.. ثم يجيء الحب ويدوس القلاع والحراس ويجمع بين العاشق الولهان وبنت السلطان المحرومة من السعادة.. ولكى يصل العشاق إلى بيت السلطان، لابد من معجزة.. وتكون المعجزة أن تهرب بنت السلطان.. أو تجيء ساحرة وتساعد العاشق على دخول قصر السلطان.. أو يمرض السلطان ويرى فى نومه أن شاباً فقيراً واقفاً بالباب هو وحده الذى سوف ينقذه من الموت، وتكون المكافأة: زواجه من بنت السلطان!

وكانت أولى قصص دوموس فيكتور أنه أحب ابنة قائد الشرطة
التي حاصرت أحد مخيمات الغجر على حدود مدينة ميلانو الإيطالية.
وفى نومه قام بطل قصته «وعلقت حذاءها فى عنقى»، وقتل
جميع أفراد القبيلة.. ثم فرش بملابسهم الأرض.. وزرع رءوسهم
أشجاراً، ومن زراير بدلهم عقوداً وأقراطاً.. ثم ألقى بقلوبهم فى النهر..
لتجىء ابنة قائد الشرطة لترى الفضيحة التى قدمها العاشق.. فتعلق
حذاءها فى عنقه.. وأسعده ذلك.. وفى نهاية القصة يقول: هناك
شعوب خلقت للعرش، وشعوب للركوع أمامه، وشعوب تتفرج على
ذلك.. ونحن نكتفى بذلك الشرف العظيم: أن نكون على مقربة من
حفلة التتويج هذه. وأن أحمل إلى قومي دليلاً على صحة ما حدث..
فهذا حذاء بنت السلطان قلادة فى عنقى!

ولكن دوموس اكتشف، مع الأسف الشديد، أنه يحب زوجة
السلطان.. متوسطة الطول سمراء لها ابتسامة جميلة ونظرة أجمل
ولمسة من أصابعها مع هزة من رأسها، والتفاتة من جيدها، تجعله
يدوخ فى مكانه، ويتقلب فى فراشه.. ولكن ما الذى يقوله لأحد.. إنها
زوجة السلطان.. ولكن ما الذى يستطيعه السلطان لمن يحلم كل ليلة
بزواجه ويجعلها زوجته.. ويحدثها طويلاً عن السلطان الذى هو
سلطان لكل الناس.. ثم لا أحد يحب السلطان.. ولا هى.. ولكنه هو
وحده الذى يستطيع أن يعطى وأن يقول.. وأن يرد لها إنسانيتها.. وأن
يوقظ النائم فى أعماقها: قلبها.. كرامتها.. أنوثتها.. ما قيمة
السلطان.. إنه رأس رسمى مزركش.. هو يصفق له والناس لا
يحترمونه.. أين هذا من الفستان الحريرى والسريى الحريرى والعطر
المترنح فى فراشه كل ليلة.. أين هذا من المغنيات والراقصات على

سقف الغرفة وعلى جدرانها كل ليلة.. أين العرش من زورق حالم على
سطح الماء، وهى على سطح الزورق وهو.. كل ليلة.
- فاشل هذا الحب؟!

- نعم. وكل حب فاشل. فالذى يتحقق قد انتهى. والذى انتهى لم
يعد حباً وإنما هو ذكرى حب. فالحب الحقيقى يولد ولا يموت! وإنما
الحب يتوالد.. كالشمس تشرق وتغرب وتشرق.. والحب كالشمس أطول
عمرًا على الأرض التى يشرق عليها.. ولكن إذا ماتت الأرض فلا
شروق ولا غروب.

فهذا الحب من عمر عمرى.. ومن فشلى أيضًا! ثم إن أكثر الشعوب
حضارة أكثرها فشلًا فى الحروب: ألمانيا وفرنسا والصين والنمسا
والمجر وتركيا ومصر!
- هل هو حرام؟

- ليس حرامًا.. ولكن العذاب حرام، ما ذنب المحب إذا اختار
المستحيل فالذى يحب المستحيل لا يستحق الموت، فليس مجرمًا، ولا
يستحق العذاب فهو لم يغتصب حقًا ولم يهتك عرضًا.. إنه يضع خياله
وأحلامه ويبكى على عمره!

ويوم اختلف دوموس مع صاحب الفندق.. ولم يدفع فهدده
بالحبس فقال له:
- الحبس أرجوك.
- لماذا؟

- أنا حبس طوال عمرى فى هذا الجسم.. فى هذا المجتمع.
فى هذه الطبقة.. فى هذه الفئة الضالة من مخلوقات الله.. حبس
هذه الأرض.. ضعنى فى السجن يا سيدى.. فى السجن سوف أشعر

ببرودة الجدران والأرض والسقف والحشرات.. احبسنى يا سيدى.. ففى السجن سوف أجد عذاباً محدداً.. وخارج السجن فلا حدود لعذابى..
- هل هو القدر؟

- قدرى يا سيدى.. لو كنت عند بدء الخليقة لسألت الله: ولماذا قلب واحد يا رب؟ لماذا لا يكون لى ألف قلب، فيكون ذلك توحيداً للعذاب وتركيزاً له فى عضو واحد ومكان واحد.. لسبب واحد هو أننى أحببت زوجة السلطان.. أحببت المستحيل أحببت عرشاً أحلم بأن أجعله فراشاً وثيراً.. بل حصيراً ممدوداً.. بل تراباً ناعماً أتمرغ عليه فى شمس الوفاء.. وأموت بعد لحظات من ذلك.. هل هذا كثير؟.. ليس كثيراً!
- وبعد؟

لا بعد.. هذا هو «بعد».. فلا بعد وراء ذلك! انتهى كل شىء.. إنها نقطة فى نهاية السطر.. إنها ذرات الكلمات فى هذا السطر.. بل إننى صدى أصداء التراب على التراب.. حرام والله يا الله!

- ليس حراماً ما أراد الله!

- أمنت بالله.. ولكنه حرام!

- كيف تؤمن بالله وترى الحرام حلالاً؟!

- إنه حلال فوق، حرام تحت.. لو سقط نيزك من السماء، فلا أحد فى السماء يشعر به، ولكن الأرض تهتز والزرع يموت والحيوانات.. وأنا أحترق.. ألا يحق لى أن أرفع صوتى صارخاً: حرام يا رب؟!

- سقوط نيزك ليس حراماً.. إنه حجر ملتهب يسقط على حجر بارد.. ولكن الحرام هو أن كل هذا الكون يتحرك ضدك.. أن تتصور ذلك وتصدقته وتحاول إقناعنا به.. وأنت المظلوم، لا واحداً من ملايين، ولكن الواحد المظلوم.. فلست عظيمًا إلى هذه الدرجة، ولا هذا الكون تافهاً إلى هذه الدرجة!

- ولكن ألا ترى أن صرخة مظلوم فى وجه الكون شىء جليل.. ألسنت ترى أن يكون للإنسان ألف قلب، أكبر من احتمال.. ألا ترى أن كائنًا طويلًا جدًا يحرق رأسه فى قرص الشمس.. ألا ترى أن قزمًا صغيرًا جدًا يتخبط برأسه فى بيوت النمل.. ألا ترى فى ذلك درجات من العذاب بلا جريمة؟!!

وعندما دخلت الخادمة عليه وقد ألقى أوراقه على الأرض.. ثم نهض وكدسها فى جانب من الغرفة.. ثم عاد ففرّقها على الأرض.. وقسمها يمينًا وشمالاً.. ومسح بها عرقه ودموعه.. ثم أعاد ترتيبها والتفت إليها.. فقالت له: كل هذا للحريق؟! فأجابها: بل بسبب الحريق! وهزت رأسها وكتفيتها وأقفلت الباب. فلم تفهم!

والتقى به أحد رجال الدين، ولم يقل لنا من أى دين. فتارة يوهمك بأنه يهودى وتارة بأنه مسلم أو بوذى شيوعى أو ملحد.. أو وجودى أو غجرى. ثم لا نعرف من الذى يسأل ومن الذى يجيب! - كان من الممكن أن تصبح واحدًا من رجال الدين. - نعم. كذلك كان من آمال العالم الفلكى كبلر وعالم الأحياء داروين وعالم النفس فرويد.. فلا بد أن يكون للإنسان دين وكل من يحب فهو مؤمن.

- ولكنك فيلسوف لم تكتب إلا قصة واحدة وقصيدة واحدة. - وتشترشل كتب رواية واحدة وكذلك موسولينى والممثلة سارة برنار. فعندما كتبوا كانوا أدباء، وإن كانت لهم اهتمامات أخرى أكثر بريقًا!

- وفى هذه الرواية كانت جنتك؟! -

- جنتى هى حيث أكون. إننى أستطيع أن أعيشها فوراً. أغمض عيني فلا أرى غيرها ولا أسمع سواها.. والجنة هى أحلام يقظة الشعوب أيضاً.. فما من شعب إلا ويقنع نفسه بأن الجنة سوف تكون على أرضه، مصر والعراق واليمن وأندونيسيا وأمريكا.. وربما الصين وروسيا.. فهم جميعاً يحلمون بأن يكونوا شعب الله المختار. وأرضهم هى الجنة الموعودة.. ولكنهم ينتظرون حتى تقوم القيامة.. أما أنا فأقيم الدنيا وأقعدھا.. وأبنى جنتى فوق كتفى وأحملها ذهاباً وإياباً. جنة وهمية وجهنم مؤكدة!

تعلم دوموس فيكتور فى مدرسة صغيرة فى إحدى القرى الصغيرة لمدينة تورينو الإيطالية، ورحل إلى مدينة أخرى.. ثم رحل إلى الثالثة.. وكان ينظر من فتحة فى العربة التى تنقله إلى الحقول والوديان والجبال والغابات ولا يفهم شيئاً.. لماذا كل شيء له صوت.. له دوى.. لماذا كل شيء متحرك.. وحتى عندما تتوقف القبيلة الفجرية فإنه ينقل السرير وأدوات الطعام والمقاعد.. ويجرى من السوق إلى الخيمة.. وفجأة.

يعاد كل شيء إلى ما كان عليه وترحل القبيلة الفجرية.. مرة واحدة أدخلوه السجن. فقد رأى أحد عساكر المرور جليلاً مهيباً فقفز من العربة واتجه إليه وحاول تنحيته عن مكانه ليقف بدلاً منه راسخاً ثابتاً وكل شيء يتحرك حوله بأمره وإذنه.. فقد كان يرى فى عسكرى المرور أعظم إنسان فى الكون.. فهو الأمر الناهى.. ومرة أخرى دخل السجن. فقد تسلل إلى إحدى الكنائس ألقى طوبة

على القسيس فقد رآه أبيضَ لامعًا مشرقًا. والناس ينحنون له
ويسجدون ثم يقبلون يديه ويتركونه!

ثم دخل المستشفى بعد أن أصيب بالتهاب رئوي، فبحث عنه أهله
ووجدوه قد ربط نفسه بالحبال فوق شجرة في يوم مطير.. ولما
سألوه قال إنه قرأ قصة لأحد الرهبان قد جلس فوق شجرة يأكل
ويشرب بعيدًا عن الناس الذين يمشون حوله فيبصق عليهم!
وظهرت موهبته الفنية..

فقد علمته أمه أن يغنى وأن يرقص وأن يمد يديه بخفة إلى جيوب
الناس وأن يسرق وأن يهرب.. وأن يبتلع الذي سرقه إن كان ذهبًا
أو كان من الماس!

وظهرت موهبته في العزف.
وعلمه أبوه ترقيع الأحذية وعلمه أيضًا ذبح الطيور..
وكان أعظم يوم في حياته عندما علمه أبوه أن يقود السيارة رغم
صغر سنه، ولكن والده بدأ يشكو من آلام الروماتيزم. ولم يكن أبوه
لطيفًا ولا كان عنيفًا، ولا شيء على وجهه يدل على أن لديه أى نوع
من الإحساس.

وفي يوم سأله دوموس وكان في الخامسة عشرة من عمره:

- يا أبى.. هل كانت أمك تضربك؟

- كثيرًا.

- وهل كنت تتعذب لذلك؟

- نعم.

- وإذا تذكرت هذه الأحداث الآن ألا يحزنك ما حدث؟

- جدًا.

- ولكن شيئًا من ذلك لا يبدو على وجهك!

- نحن يا ولدى بلا وجوه.

- كيف؟

- إن أحدًا لا ينظر إلى وجوهنا.. لا يعرف ماذا نريد؛ لأنهم يعرفون
ماذا نريد ولذلك فلسنا فى حاجة إلى تعبير.. ولا إلى وجه يبدو عليه
هذا التعبير!

- ألسـت بشـراً؟

- لا يا ولدى!

- إذن من نحن؟

- كما ترى.

- بشراً!..

- سوف تغير رأيك عندما تكبر..

- ولكنى كبرت.

- عندما تكون فى سنـى!

- وما رأيك الآن يا أبى؟

- لسنا بشراً.. ولكن الذى يرانا عن قرب يخيلُ إليه كذلك!

- لأننا من العجر؟!

- نعم.

- والعجر ليسوا بشراً؟

- ماداموا بلا دولة!

- ولكن أناسًا كثيرين لهم دول، يعيشون فيها كالحيوانات:

كالكلاب..

- ولكن لهم دولة.. فهم كلاب رسمية.. ونحن كلاب ضالة!

- وإذا كنت أخالفك فى هذا الرأى!

- سوف تتفق معى فيما بعد!

- لن أتفق!

- ستفقد كثيرًا يا ولدى.. معي أولاً.. ومعهم ثانيًا!

- ويعد؟!

- إنى مريض يا ولدى.. لا ترغمنى على أن أعود إلى قيادة السيارة
حرصًا على حياة أمك وأخوتك.. فأنت الآن لا تصلح لقيادة السيارة..
أو قيادة هذه القبيلة.. كنت أريد أن أعلن لك عن اختيار القبيلة لك..
فهم يرون فيك أملاً لمستقبلهم..

- أنا شيخ لهذه القبيلة!

- ولكنك الآن خذلتنى.

- أنا شيخ لهذه القبيلة؟!

- نعم.

- لماذا؟

- لأنك ذكى.. لأنك مطرب وراقص.. وشاعر.. ولأنك ولدى.. فقد كان

جدك شيخًا لهذه القبيلة!

- لكى أعمل ماذا؟

- لكى تواصل.

- أواصل ماذا؟

- تواصل هذا!

- وما هذا؟

- هذا الذى لا تراه على وجهى..

الصمت والغموض.

- والهرب!

- من ماذا؟

- من أن نبقى فى مكان واحد فيتسع أمامنا فنفكر فى حالنا.

وإذا فكرنا أصابنا ما أصابك.. فثرنا على حالنا.. فندخل السجن
فنفقد الشيء الوحيد الذى نحرص عليه: الهرب.. الهرب.. ولو لم تكن
هناك جريمة.. وإلا قل لى ما هى الجريمة التى ارتكبتها الحمار ليكون
كذلك.. والخنزير والكلب والصرصار لا جريمة.. وكذلك نحن بلا
جريمة وبلا خلاص ولا أمل فى ذلك!

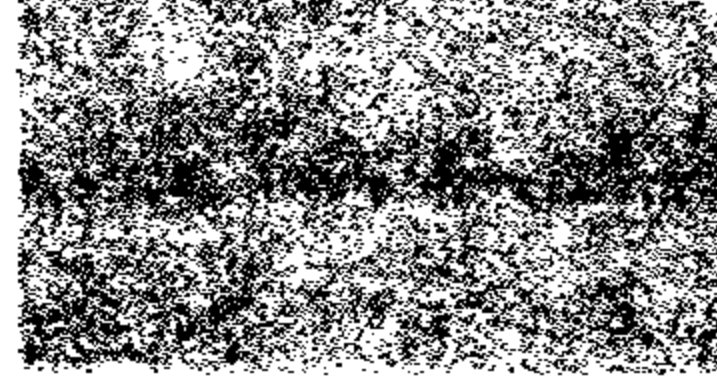
وأما أعماله الأدبية فهى دراسات عن التاريخ والإنسان.. وعن
الجماعات المنعزلة على أطراف الغابات ووسطها والواحات
وجماعات الغجر فى المجر وبولندا وأسبانيا والمغرب.. وكتب أخرى
فى الصناعات اليدوية.. وقراءة الطالع.. وتدوين الأغاني الغجرية،
ويبحث عن مصادرها الأوربية والآسيوية..
ومن أشهر أعماله رواية «أشجار لا تعرفها الطيور» ولها نفس
المعنى الذى يتعذب بها أبناء الغجر..
وله ديوان من الأغنيات الشعبية الإيطالية والفرنسية والألمانية
والبولندية والصحراوية والزنجية. وقد حاول أن يجعلها رمزية. وقد
ظهرت كل أعماله فى لغات كثيرة، ولأنه بلا جنسية فهو لا يتعاقد مع
أحد.. وإنما يعطيها للناس ويتقاضى أجرها فوراً ويتوازى.

وأما بطلات قصائده فلها أسماء سلافية أو خليط من الشرق
والغرب: تها.. توخا.. هالينا.. سوذى.. سوزان.. منونة..
وأحدث أعماله ديموس الأدبية هو الذى نشره قبل مرضه. إنه
مذكرات أدبية. أو مذكرات بأسلوب أدبى، وإن كانت مواقف
ومحاورات ذاتية - مونولوجات.
يقول:

- يا دوموس حيرتني: إن كنت مريضاً فليس عندي شفاؤك. إن كنت سليماً فليس عندي ثوابك.
- أعرف ولكن كيف لا أشكو.. كيف لا أشكو.. كيف لا أشكو نفسي لنفسي!

- يا دوموس إن كان كل الذي تريده هو السلطان، فهذا سهل. كثيرون استطاعوا أن ينالوا السلطة وأن ينالوا من السلطان.. ولكن زوجة السلطان يا دوموس كيف؟
- ولكن كيف لا أحلم بذلك؟
- ولكن من هو الحالم الذي لا يريد أن يكون الحلم حقيقة؟
- أنا الذي لا أريد الحقيقة.. والذي أعرفه من الحقيقة يوجعني. أعرف حقيقة أننا بشر ولسنا بشراً! وأعرف أننا أناس دون الناس. أعرف أننا أحياء فضلاً وكرماً من الناس.. أعرف أننا لا كلاب ولا طيور ولا خنازير.. بل دون ذلك.. فكيف تتصور لحظة واحدة أنني أريد الحلم أن يكون حقيقة؟! فقط أحلم!
- ولا حق لك في أن تحلم.. فلست مؤهلاً لذلك.. يحلم أن يكون ضابطاً من هو جندي، يحلم بأن يكون قائداً من هو ضابط.. يحلم بأن يكون سلطاناً من هو ابن السلطان.. يحلم ببنت السلطان ابن سلطان آخر.. يحلم بزوجة السلطان مجنون.. حتى أنت لست مجنوناً.. فالمجنون يحب أن يكون وأنت لست كائناً.
- بل كائن!!

نعم. ولكن على هامش الكائنات!



يسعدنى كثيرًا أن تموت كل النساء من أجل!

تراحمنا ووقفنا وجلسنا حول الرئيس السادات فى
بيت السفير المصرى فى واشنطن نريد أن نعرف أسرار
«كامب دافيد» وكان الرئيس مرهقًا يمسح عرقه
بمناديل من الورق وبيديه ولكن فى غاية الحيوية.
وفجأة طلب واحد منا وكان صادقًا فيما يقول: ألا ينشر
خبر استقالة وزير الخارجية حتى لا يودى إلى إفساد
هذه البهجة باتفاقية السلام.. أو حتى لا يكون بقعة
سوداء فى ثوب الزفاف..

وثار الرئيس السادات.. وقال كلامًا موجعًا
واندهشت عندما سمعته يقول:
ميمى بيه.. أما ميمى بيه حقة!



و«ميمى بيه» اسم شخصية كاريكاتورية لم يعد أحد يرسمها أو يتذكرها.. هل لأن هذه الشخصية انقرضت بعد أن ظهرت كرد فعل على الخشونة المطلوبة بعد ثورة يوليو؟ أو لأن «ميمى بيه» أو «ميمى» لم يعد بينهما فرق كبير.. فكلاهما أصبح يضيق بالخشونة والتقشف!

فكيف تذكر الرئيس السادات «ميمى بيه» ووصف ووصم به أحد الزملاء.. لا بد أن الرئيس السادات قصد من ذلك أن يصف موقفه بالضعف وبأنه لا يفهم فى السياسة العنيفة.. أو لا يعرف ما يجب أن يفعله السياسى الخشن فى مثل هذه المواقف.

سألت الأستاذ الكبير مصطفى أمين متى ظهرت هذه الشخصية الكاريكاتورية. فقال لى: إنها من اختراع المرحوم على أمين والفنان الكبير رخا. وإنها كانت بقصد السخرية من الشخص الناعم أى من الرجل الأنثى - أى أقصى درجات الرخاوة والطراوة!

وظهرت فى الخمسينيات فى مصر أيضاً تعبيرات لها نفس المعنى: جيمس دين.. وهو الممثل الأمريكى الذى مات فى حادث سيارة. وقد أطلقته السينما الأمريكية رمزاً للفتى الضعيف الذى يثير عاطفة الأمومة عند كل امرأة.. وكانت له خصلة تتدلى على جبهته.. وكنا نصف من يقلده بأنه جيمس «دون»!

ومع ظهور أغنية عبدالحليم حافظ «أبو عيون جريئة».. ظهر بعض الشبان ولهم شعر جيمس «دون» ولهم عيون تبثق فى الفتيات.. وكان ذلك نوعاً من الخروج على الآداب والتقاليد.. أو على الانضباط المطلوب من أبناء مصر بعد ثورة يوليو.. وقد اعتقل المشير

عبدالحكيم عامر عددًا من هؤلاء الشبان وحلق رأسهم بالموسى - وهو نوع من الانضباط العنيف!

ولنفس الأسباب ظهرت شخصية مارلون براندو.. وأصبحنا نطلق هذا الاسم على الناس الذين يعتنون كثيرًا بالوجاهة والأناقة وجاذبية النساء. حتى أننا أطلقناه على الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، أجمل الأصوات فى ذلك الوقت وأكثر القراء أناقة وشياكة، فقلنا عبدالباسط براندو!

وقبل ذلك كنا نغمز ونلمز عند مرأى رجل أنيق أو سيدة «قنزوحة»: هه.. بتوع نادى الجزيرة!

أول مرة سمعت اسم نادى الجزيرة كان فى اجتماع التحرير لمجلة «روزاليوسف» سنة ١٩٥٠.. فقد سمعت محررًا اسمه إسماعيل سرى، ابن أخى رئيس الوزراء حسين سرى باشا يشكو الأستاذ صلاح حافظ للأستاذ إحسان عبدالقدوس.. أما الشكوى فجاءت هكذا: إننى لا أستطيع أن أدخل النادى.. سوف يأكلون وجهى.. هل معقول أن ترتدى «مولى» - يقصد آمال الشقراء الجميلة الفارعة - جوبًا أسود وبلوزة حمراء بنقط سوداء؟ إننى أضحوكة نادى الجزيرة.. ثم إننى نبهت صلاح حافظ أكثر من مرة أن يراعى الدقة.. أن «روزاليوسف» هى نكتة نادى الجزيرة.. أقسم بشرفى!

أما الخطأ الفادح فهو أن صلاح حافظ عندما أعاد كتابة هذا الخبر جعل لون البلوزة أحمر، مع أنه كان أبيض!

وفى ذلك اليوم تسلفت مع أحد أقاربى الأغنياء إلى نادى الجزيرة.. ولا أذكر بوضوح ما الذى رأيت.. هل صحيح أن كل الموجودين كانوا من الخواجات.. هل كانوا جميعا يتكلمون الفرنسية.. هل كل سيدة تسحب وراءها كلبها وزوجها.. وكل شىء كان لامعًا: العيون

والصدور والآذان والأصابع والأكواب.. والدموع فى عيني.. عندما أمسكنى أحد موظفى النادى وسألنى إن كنت عضواً؟! (وهذا قد يفسر لى أننى عضو فى نادى الجزيرة من ثلاثين عاماً ولم أدخله إلا خمس مرات - ربما؟!).

وبعد ثورة ١٩١٩ ظهر تعبير أصحاب «الجلاليب الزرقاء» - أى الفلاحين والعمال فى مواجهة أصحاب القمصان البيضاء والبدل - أى الطبقة الأرستقراطية.. ثم ظهر أصحاب «القمصان الزرقاء» أى شباب حزب «الوفد».. ومع ظهور الفاشية فى إيطاليا ظهر أصحاب «القمصان البنية».. ومع ظهور النازية ظهر أصحاب «القمصان السوداء».. أى الذين لا يهتمون بمظهرهم الخارجى.. والذين لا يحرصون على الملابس المتنوعة الأشكال والألوان، وإنما هم أصحاب الزى الواحد الموحد.. أى الذين يطالبون بالمساواة القومية بين العمال والفلاحين والجنود، فى مواجهة الطبقة النبيلة: الأغنياء ورجال الأعمال والأسرة المالكة!

ولسبب ليس واضحاً تماماً ومن مائتى عام ظهر فى بريطانيا اتجاه اجتماعى اسمه: شباب المكرونة.. ولم تكن المكرونة نفسها - تلك العجائن المعروفة - شيئاً جديداً فى بريطانيا ولا حتى فى أوربا.. فهى اختراع قديم صنعه الصينيون وانتقل إلى ألمانيا واستقر فى إيطاليا بأحجام وأشكال وألوان متنوعة لذيدة.

ثم ظهر فى بريطانيا فى سنة ١٧٧٠ سلوك اجتماعى وصفه الناس بأن هؤلاء الرجال: مكرونة.

ثم كان النادى المعروف باسم «نادى المكرونة» وقد اتخذ النادى هذا الاسم؛ لأن المترددين عليه يرتدون زياً مختلفاً: القميص الأبيض

الحرير والبنطلون الأبيض ورباط العنق الأحمر الفاقع.. والوردة الحمراء فى الصدر ثم الإيشارب الأزرق والبنطلون المفتوح من أعلى المخنوق من أسفل.. ثم إنهم يفضلون الوقوف أمام باب النادى. ومن عاداتهم أيضًا أنهم يدورون بعيونهم وأجسادهم كلما مرت سيدة جميلة.. وكانوا حريصين على الانحناء يمينًا وشمالاً تحية للجمال العابر.. وبعضهم كان يحمل زجاجة من العطر فى جيبه، ويلقى بقطرات منها فى يده.. وأحياناً فى يد غيره.. أو يلقي بالزجاجة كلها عند قدمي أية حسناء.

وأكثر هؤلاء الشبان لم يكن أحد يعرف إن كانت لهم وظيفة، أو أنهم من أولاد الذوات.. ومن علاماتهم أيضًا: أنهم ينادون بعضهم البعض بأسمائهم الصغيرة. فلا أسماء عائلية.

وبعضهم كان يتباهى بأنه لم يذق نومًا ولا طعامًا أيامًا.. لماذا؟ إنه الضيق بكل ما فى البيت. والبيت نفسه ويأنه مضطر إلى أن يعود إلى نفس الفراش ويتمدد إلى جوار نفس الزوجة.

وفى ذلك الوقت من نهاية القرن الثامن عشر انتشرت «قصيدة المكرونة» - أى الشعر الذى تنتهى أبياته عادة بكلمات أجنبية: يونانية أو لاتينية.

وكان قد برع فى هذا الفن الشاعر الراهب فولنجو وذلك فى نهاية القرن السادس عشر، وكان له أثر كبير على الشاعر موليير وعلى الأديب الفرنسى رابليه أيضًا.

وهذا الطراز من شباب المكرونة لم ينتشر إلا فى لندن وحدها. ولكن ظهر هذا الشباب بصورة أخرى فى باريس مع الثورة الفرنسية، وبعدها أيضًا. فمع الانضباط والقسوة والتكشف الذى

أشاعته الثورة الفرنسية ظهر تمرد على كل ذلك تعبيراً عن الضيق والسخط وإراقة الدماء والظلم. صحيح أن الشعب الفرنسي قد كفر بالملكية، وجاهلية الأسرة المالكة وحكم الغوانى. ولكنه فى نفس الوقت لم يحتفل أن يجىء ظلم جديد بدلاً من ظلم قديم.. فبعد أن كان الظالم ملكاً أنيقاً وغانية مثيرة، جاء الفلاحون الأجلاف والعمال الغلاظ يسومون الشعب الفرنسي ظلماً من نوع جديد.. ولذلك ظهرت جماعات تعيد الأناقة والميوعة والوقوف بظهورهم إلى الحائط يتفرجون على الوحوش الأدمية التى ترفع أسمى مبادئ الإنسانية.

ثم أخذت الثورة الفرنسية تأكل أولادها زعيماً بعد زعيم.. ويوم أعدموا زعيمهم روبسبير سنة ١٧٩٤ كانت الفرحة تعم البيوت. وفى ذلك اليوم اهتمدى التريزية فى باريس إلى قميص أحمر به نقط بيضاء.. وقمصان بيضاء بها نقط حمراء.. ثم قمصان بيضاء حولها أربطة زرقاء.. ثم اختفى اللون الأحمر.. اختفى لون الدم.. أو كان ذلك واحداً من آمالهم.

وكان الفرنسيون قد أطلقوا على الشعب اسم «سان - كيلوت» أى الذين لا يلبسون الكيلوت. والكيلوت هو البنطلون القصير الذى يرتديه أبناء الطبقة الأرستقراطية - يجب أن يكون قصيراً مناسباً لركوب الخيل. أما الشعب فهو الذى يرتدى البنطلون الطويل أو السروال.

وظهرت الحفاوة الشديدة بالزى وبالمظهر الخارجى. والثورة الفرنسية هى التى دفعت الفرنسيين إلى التفنن فى الأزياء الأنيقة. أى الأزياء التى تعبر عن الانفلات من قيود الثورة.. أى رفض الزى الواحد، والقالب الواحد والنظرية الواحدة.. فالثورة الفرنسية فجرت عبقرية فرنسية أخرى: عبقرية الأزياء وتصميم الأزياء وبيوت الأزياء، وإذا كانت ثورة فرنسا هى أم الثورات.. فهى أيضاً أم الأناقة..

أم هذا التغيير المتجدد فى اللون والقماش والخط، فهى الثورة التى لا ينتهى إبداعها مع فصول السنة. فلا تزال باريس هى عاصمة النور والعطور والحدود. وهى التى تحكم الذوق العالمى - ولا استئناف لهذا الحكم إلا فى بيوت أزياء باريس!

ثم استطاع الشعب الفرنسى عاشق الحرية الفردية أن يعقد زواجاً سعيداً بين الثورية والأناقة. فكان الأنيق جداً ثورياً أيضاً. ما المانع؟ إنه حر، اختار الثورة الفرنسية واختار أن يكون فلاحاً أو عاملاً أو مفكراً اشتراكياً أو أنيقاً فوضوياً. وأصبحنا نجد الفرنسى الأنيق «ميمى بيه» أو «الرجل العايق» أو «المعجبانى» وكذلك السيدة «المشخلعة» - وكلهم يعبدون البطل الأسطورى نابليون.

ولكن نابليون رغم ما يتمتع به من عبقرية عسكرية، ومن حرية ثورية جعلته كالبركان يقذف بالجديد فى مجالات العلوم والفنون، فإن إحدى الفتيات قد رفضت الزواج منه.. لماذا؟

قالت الفتاة: إنها نظرت إليه من ثقب الباب فوجدته يمسح حذائه فى بنطلونه وأنفه فى كفه ويدوس بحذائه ما بصقه على الأرض.. وأكثر من ذلك: لم تجد معه صندوقاً للعطور والبودرة!

فناپليون الذى كان شمساً تضىء وتدفى كل بيت، قد نسى نفسه! وفى وليمة فى بيت أحد النبلاء أمسك نابليون السكين بيده اليسرى والشوكة بيده اليمنى.. ولما وقعت الملعقة على الأرض أعادها إلى المائدة، واندesh الحاضرون. فقال نابليون: لا تنسوا أننى أنا الإمبراطور.. أليس من حقى أن أخرج على قانون وضعته أنا ولو مرة واحدة؟!

ويبدو أن الفرنسيين لم يستريحوا إلى هذا التفسير.. فالإمبراطور يجب أن يكون أول من ينحنى للقانون، ولو كان هو صاحب هذا

القانون، أما هذا القانون فهو أن يمك السكين باليد اليمنى والشوكة باليد اليسرى وإذا سقطت المعلقة أن يتركها فى مكانها حتى يتشرف بتقديمها أحد من النبلاء أو الوزراء. ولم ينس الفرنسيون أن نابليون هو أول من رتب وضع السكين إلى يمين الطبق والشوكة إلى يساره والمعلقة فوقه والفوطة تحته!

ونابليون أيضًا هو أول من طالب بإناء صغير به ماء ساخن ليغسل به أصابعه - فقد حدث أن كان مرهقاً غير قادر على أن ينهض لغسل يديه!

ومع الإمبراطور نابليون ظهرت موضة «الأمبير» أى الإمبراطورية فى الأزياء وفى الحفلات وفى الطعام وفى الرقص وظهر طراز من الرجال فائق الأناقة - ذئاب بالغة النعومة!

ولكن لم يعرف العالم كله رجلاً مثل جورج بروميل (١٧٨٨-١٨٤٠). وقد ولد معه فى نفس الوقت شاعر عظيم معجبانى ولورد بيرون.. ولورد بيرون هو الذى قال: إننى أفضل نابليون النظيف الأنيق على ولنجتون الذى انتصر عليه..

وبروميل هذا كان شخصية فريدة.. أو هو طراز عجيب من البشر. فهو رجل اختار أن يكون أنيقاً بأى ثمن. وأن يكون الثمن من جيب المعجبين والمعجبات به.

وله فلسفة: عندما أبدو أنيقاً فأنا متعة للعين.. وهذه العيون التى تجد المتعة يجب أن تدفع الثمن، وأن تساعدنى على أن أظل هكذا دائماً.

ويقول أيضاً: أنا ضد التضحية التى لا مقابل لها.. كيف أضحي من أجل أحد لا يضحي هو أيضاً؟!

ويقول: لا أفهم أن يتعذب رجل من أجل امرأة.. ولماذا لا تتعذب هي أيضًا.. إن الحب فعل مشترك، فلماذا أكون أنا الخاسر دائمًا!

يقول: مثلى الأعلى شيوخ القبائل فى أواسط إفريقيا.. إنهم يتزوجون بالمئات، بشرط أن تبقى كل واحدة فى بيتها، ثم يلتقى بها فى الغابة - بعيدًا عن بيته وبيتها!

وكان جورج بروميل قد وجد الممول الكبير لملابسه الفخمة الكثيرة. وكان ذلك أحد النبلاء. وقد أنفق عليه كثيرًا. فقد كان شديد الإعجاب به.

يقول بروميل: إن كان هدفك أن تغزو قلب رجل فتحدث دائمًا عن عقله وذكائه وحكمته.. وإن كان الهدف امرأة فتحدث عن ملابسها وأملأ جيوبك بالحلوى.

وكان بروميل هو الذى يصمم أزياءه بنفسه.. وهو أول من اخترع القمصان بلا ياقات.. واخترع القمصان ذات الأكمام القصيرة.. وأول من صمم الجاكيتات المحرقة ذات الزراير المتعددة.

بروميل كانوا يسمونه: بو. . أى الجميل.. والقميص الذى نرتديه فى الصيف واسمه «بوشيرت» أى قميص بروميل!

وكان يصمم أزياء النساء اللاتى يعجب بهن.. ومؤرخو الأزياء يرون أن قمصان النوم ذات «الأجور» التى بها ورود على الذراعين من تصميم بروميل.. ولا أحد يعرف من أين اخترع بروميل رسم كلمات جميلة أو أبيات من الشعر على حزام قميص النوم - لقد قرأنا فى «ألف ليلة وليلة» عن مثل القمصان.. ففى «ألف ليلة» نجد شهرزاد تقول للملك شهريار: ولما اقترب من ذات الحسن والجمال وقد دار رأسه من فتنتها، وقام بأصابع مرتعشة وقلب يعلو ويهبط، وفك تكتها. أشار إليه أن يقرأ ما هو مكتوب عليها... إلخ، وبروميل هو أول

من جعل الحذاء من قماش الفستان.. وهو أول من صمم «حزاما»
لرؤب الرجال.. وهو أول من ربط حزام الرؤب بحزام قميص نوم
المرأة، ليرقصا عاريين!

يقول بروميل: إن حبى الشديد للمرأة ليس سببه إعجابى بها، فأنا
معجب بالطيور والزهور، ولكن ليس من الضرورى أن أتزوج عصفورة
وأعشق وردة! إن إعجابى بالمرأة هو إعجابى بشيء انتقل منى إليها..
أحب خضوعها؛ لأننى متسلط، أحبها أن تحبنى.. أعشقها إذا هى
عشقتنى، أصلى عليها إذا ماتت من أجلى.. يا ليت كل النساء يمتن من
أجلى.. أو يمتن لكى أستريح!

يقول: إننى مثل نابليون العظيم، عندى قوات احتياطية لكراهية
المرأة!

وقد اختلف بروميل مع المعجب الوحيد به، ذلك الأمير الذى أصبح
ولياً للعهد، فهرب إلى فرنسا هرب من الأمير ومن الدائنين ولم يفلح
فى أن يكون له أثر فى باريس ولكنه استطاع أن يعرض ملابسه
بالمئات فى مزاد علنى. وقد اشترت النساء معظم المعروضات
وبأسعار مرتفعة. وكان بروميل هو أول من وضع الحروف الأولى من
اسمه واسم الفتاة التى يحبها أو تحبه على المنديل!

وله فلسفة جاءت فى مذكراته التى نشرتها إيطاليا منذ خمسين
عاماً وصايرها موسولينى وصايرها هتلر أيضاً. المذكرات عنوانها
«حياتى ملابسى»، يقول: لا يزال الريش الجميل يصنع الطيور الجميلة!

عندما ينام العقل يصحو الفستان!
هذا رجل عجوز، ألا ترى ملابسه داكنة؟
مؤكد هذا رجل عجوز فهو يخلص لامرأة واحدة هى زوجته!

الأناقة تبدأ من ملابسك، والنظافة من تحتها!
المرأة ترتدى أى شىء لكى يظهر منها أى شىء: إلا سنّها!
الفستان ثلاثة أنواع: قصير وطويل وثالث اسمه: عيب لا تنظر
أكثر!

كلما قصر الفستان طالت النظرة إليه!
هذه المرأة مثل الفستان الطويل جداً: إنها لا يمكن أن تنحط أكثر
من ذلك!

قالت لى سيدة: إن ملابسك الفضفاضة تعجبني فأنا عندما أراك
لا أعرف إن كنت لم تكمل ارتداء ملابسك أو شرعت فى خلعتها!
وأنا أحب الفستان الذى تبدو فيه المرأة كأنها هربت من حريق
وأنها اختارت الفستان الخطأ - هذا الاضطراب وهذا الفزع واليأس
يثيرنى تماماً!

أنت لست فى حاجة إلى أغلبية لكى تشعل ثورة، فقط أقلية قوية
مصممة، وقضية عادلة - وكانت قضيتى أن أكون أنيقاً إلى أقصى
درجة!

إذ لم تستطع أن تقدم لها ثوباً من حرير، فاجعل كلامك كذلك!
وبروميل هذا هو طراز من الناس. تجدهم فى كل مكان. ولو لم
تكن بينهم صلة. أو هو مزاج نفسى وأسلوب اجتماعى. وفلسفة
سياسية.

فى مستهل حياتى الصحفية كان لى صديق هو «عدلى جلال»
المحرر بـ «الأهرام» إنه إنسان لطيف رقيق ودود، قد أحزننا على
أنفسنا.. ففيه كل ما ليس فينا.. فهو شديد الأناقة.. شديدة الحفاوة
بصحته، لا يأكل مثلنا ولا يشرب مثلنا ولا يضحك مثلنا. كل شىء
محسوب. ولم نكن نعرف كيف يستطيع هكذا أن يختار ألوان ملابس


ولا من أين يأتى بالقوط إذا جلسنا على رفارف السيارات أو المناديل
الورق لكى يمسك بها السندوتشات. ولا كيف يصفف شعره واحدة
واحدة. ولا أين تعلم - وهو الفلاح من دمنهور - كيف ينحنى للسيدات.
ولا لماذا هو أسرع من يدعونا إلى الغداء والعشاء وأسرع من يدفع.
ولا يحاسبنا. أو يطالبنا بأن نقسم الثمن. ولا كيف يعرف هذا العدد
الهائل من الفتيات. ولا كيف هو ضاحك دائماً؟!

وكان الشاعر الغنائى مأمون الشناوى يسخر منه قائلاً: إنه إذا
رأى القمر طالعاً فى السماء، التفت إليه قائلاً بمنتهى الرقة والنعومة:
يا قمر نورك زاهى مرسى والله!

أو يقول عنه: إنه ذهب للحلاق مرة فاعتذر له بأنه جاءه طويل
الشعر! وأنه طلب إلى الحلاق أن يقص له أظافره فجرحه.. فاستأذنه
فى أن يتألم، فقال له الحلاق: تفضل يا بيه؟ فقال: آى!

ولم يخطر على بال أحد منا أن يقول عنه: إنه «ميمى بيه» فهو فى
تمام الرجولة والشهامة والكرم فقد كان ذنباً مدرياً تدريباً جيداً!
ومن قراءة قصة حياة بروميل وجدت فيها حوادث من هذا النوع،
بل تكاد تكون هى هى.


ومن المؤكد أن بروميل المصرى لم يقرأ عن بروميل الإنجليزى..
ولا واحد منا قرأ عنه فى تلك المرحلة المتقدمة من حياتنا.



الرجل «العينل» مشكلة العصر!

منذ أيام شاهدت فيلم «آخر الفراعنة» عن حياة
وسقوط وموت الملك فاروق. وفي الفيلم رأيت الأستاذ
على أمين يحكى أن الملكة فريدة أخبرته بأن الملك
فاروق جاءها باكياً حزيناً. ولما سألته عن السبب قال
إن محبوبته طردته.

تقول الملكة فريدة: إنها لم تتضايق فهي تعتبر
الملك ابنها. وأنها حريصة على أن يظل هكذا.



على أن يظل طفلاً وتظل هى الزوجة الأم. هو لا يكبر، وهى لا تريده أن يكبر!

فالطفل نوعان: الطفل.. والرجل الذى لا يريد أن يكبر!
اليقيم نوعان: الذى مات أبواه.. والذى عاش أبواه ولا وجود لهما!
والأم نوعان: الأم.. والزوجة التى تريد أن تظل أمًا لزوجها!
والطاغية نوعان: الطاغية.. والحماة التى تريد أن تبقى أمًا، مهما كان عدد أحفادها!

وفى عصور المساواة بين الرجل والمرأة، اتخذ الرجال تحذيرًا يقول: فتش عن المرأة؛ لأنها وراء كل مصيبة تلحق بالرجل، وكارثة تصيب المجتمع!

لماذا؟ لأنها خرجت من البيت إلى العمل، ووقفت إلى جوار الرجل تطالبه بالمساواة فى الحقوق، اعتمادًا على ما قاله الرجل بأنه يؤمن بالحرية للرجال والنساء والسود.

أى إن المرأة طالبت الرجل بأن يكون صادقًا فيما يقول. فليس من الحرية أن يكون حرًا، وألا تكون.

وعندما ذهب الرجل إلى الحرب قامت المرأة بما كان يقوم به الرجل فى الحقل والمصنع والمكتب.. وكانت هى الأب والأم فى البيت. ولم يعد الرجل قادرًا على أن يتراجع عن هذا القرار.

وكأنما أراد الرجل أن يعاقب المرأة على ذلك، فأساء إلى سمعتها وراح يعمق لديها الشعور بالندم على أنها خرجت، وعندما خرجت تأمرت على سيدها الذى منحها الحرية.. وأن يحفر فى أعماقها هذا العقوق له، لعلها تعود إلى البيت، كما كانت.. وهكذا تختفى المرأة،

ويصبح الرجل وحده هو المسئول عن كوارث الدنيا - ومع ذلك منذ
أصر الرجل على أن المرأة أمٌ لهذه الكوارث بل إن أمومة المرأة لا حد
لها، فلو جلس عزرائيل على حجرها لفتحت صدرها وأرضعته!
ولكن كيف تكون المرأة عبداً ذليلاً للرجل مغلولة اليدين والشفيتين
والعينين ثم تقوم على تربية أطفال يؤمنون بالحرية وينادون بها،
ويستشهدون دفاعاً عنها؟

وفى مرحلة تالية لممارسة المرأة لحرقتها، أصبح الشر رجلاً وامرأة.
والخطيئة: شركة. واللعنة: مناصفة. والجناية على الأطفال متكاملة!
أى إن كل شيء قد بدأ فى الأسرة، أو بسبب الأسرة. فإن اعتدت
الأسرة اعتدل الطفل. وإن انحرفت انحرف. وإن كانت مريضة فلا بد أن
يمرض، وإن كانت سوية فهو مستقيم.

ولأن تربية الطفل جزء من مسئولية المرأة، فاتخذ التحذير شكلاً
واحداً فى العالم: فتش عن الأم!

فالمراة لأنها خرجت تركت الطفل وحده أو مع والدتها أو خادمتها..
وعندما كبر انفردت به الخادمة، والتليفزيون الذى يقوم بدور الأب
والأم والمدرس ورجل الدين وبنات الجيران: يعلم ويربى ويسلى ويفسد..
وتدحرجنا إلى عصر «العبيد» - حكم العبيد.. أى عصر الخادومات..
فالأم ليس لديها وقت لكى تكون أمًا.. وإذا خيرت الأم الآن بين أن
تعمل أو أن تكون أمًا، لاختارت أن تعمل.. وبعد ذلك تتزوج لكى تكون
أمًا. وإذا خيرت بين أن تكون أمًا بغير زواج، وأن تكون زوجة بلا أولاد
اختارت الأمومة مع التحرر من قيود الزوجية.. ولأن أعباء الحياة
المادية قاسية، فإن المرأة تختار المعادلات الصعبة: الزواج الفاشل
والأمومة الفاشلة والعمل الفاشل أيضًا - أى تختار شيئاً من كل شيء..
ولكن التعاسة مؤكدة للجميع: للأب والأم والأولاد.

ولكن ذلك كله لا يهم مادامت تعمل!
فكأن المرأة اختارت أن تكون أمًا بعض الوقت وزوجة بعض
الوقت وعاملة بعض الوقت وتعيسة كل الوقت!

ومن النتائج الخطرة على الطفل فى هذا العصر: أنه حرم من حنان
الأم. ولذلك فهو يريد أن يتجدد فيه هذا الإحساس. فإذا تزوج فلانة
يريد أن يستقل بحياته عن أبويه، عن أسرة تعيسة.. وهو يريد أن تكون
زوجته أمًا له.. يريد أن يعود إلى الطفولة. والزوجة بسرعة غريزية
تصبح أمًا له.. يريحه ذلك ويرضيها أيضًا. وهذه هى مشكلة مشاكل
العصر الحديث.. قد تضيق المرأة بهذا الطراز من الرجال الذين لا
يكبرون، ويضيق الرجال أيضًا بهذه الأمومة التى تحتم عليه أن يكون
عاجزًا. ولكن لا مفر: الزوج طفل والزوجة أم، لقد اعتاد واعتادت.
والإنسان أسير العادة. والرجل إذا تحرر فإنه بسرعة يترد إلى عاداته
القديمة. فكأنه تحرر ليكون عبدًا من جديد.

ومن الغريب أن الرجل الذى هو «عيل» - أى يعول على أمه كثيرًا -
عندما يتزوج فإنه يكون حريصا على كل عادات وتقاليد الأسرة التى
تمرّد عليها!

أرجو أن تلاحظ أننا دخلنا معًا فى مصيدة شديدة التعقيد فى
حياتنا الحديثة: فكل الذين نواجههم: عيال.. الرجل عيل والمرأة عيلة.
وهم جميعًا يعتمدون على بعضهم البعض، وفى نفس الوقت
يتشككون كثيرًا فى قدرتهم على القيام بهذا العبء الصعب. الرجل
يبحث عن الأم، والزوجة تبحث عن أم..

وفى السنوات الأخيرة ظهرت مئات الكتب - عندي منها عشرات -
تفسر لنا ظاهرة: الرجل الذى أوقف نموه والمرأة التى تعاضمت
شخصيتها رغم إحساسها بالهوان وأنها لم تنهيا نفسها اجتماعيًا
للقيام بهذا الدور الكبير..

و«الرجل العيل» هو الظاهرة الخطيرة التي تجتاح الدول الصناعية التي فتحت الأبواب والنوافذ فقفزت منها المرأة إلى الشارع، ولم تعد. ولن تعود.

وهذا «الرجل العيل» ليس لديه شعور بالأمان. فهو قلق. وهو ينتظر ما تقدمه الزوجة الأم أو الصديقة الأم أو الخادمة الأم. فهي التي تقرر وهي التي تختار. ولذلك فليس لديه شعور بالمسئولية. فقد ألقى عند قدميها كل شيء. وهي وحدها التي تتعب له وتتعب من أجله، أو تجد لذة في التسلط عليه.. وهو يتفرج. هي اعتادت أن تقرر، وهو اعتاد ألا يفكر في ذلك. هي تدفعه يميناً وشمالاً، وهو مستسلم. والتاريخ يحتفظ لنا بذلك الحوار النموذجي بين الطاغية نيرون وزوجته. يقول لها: قولى بسرعة ماذا تريدين وأنا أنفذ لك كل رغباتك. لماذا لا تأمريننى أن أقتلك؟! إني على أتم الاستعداد لذلك.. أنت التي تختارين ملابسى وعشيقاتى لماذا لا تأمريننى أن أذبحك وأن أحرقك فوراً؟

هو الطاغية المستبد الجبار لا يملك أن يتخذ قراراً.. إنه ينتظر من ضحاياه أن يأمره بماذا يفعل بهم؟! - إلى هذه الدرجة يعتمد على زوجته التي هي أصغر منه وأضعف. ولكنه لا يريد إلا أن يكون رجلاً عيلاً!

والرجل العيل مشغول بنفسه.. فقد اعتاد على أن يجد كل شيء من أجله. كل شيء يدور حوله فهو مركز البيت. مركز الكون. وهو لا يمد يده للآخرين.. إنه ينتظرهم يمدون له الأيدي. إنه لا يبحث عن الغير، إنه يتوقع الغير أن يجرى إليه. وهو هكذا منطو على نفسه، فقد أدخل نفسه في نفسه. ووضع يديه في جيوبه، وساقاً على ساق، وأحنى رأسه على صدره.. لقد تكور وتدور. وامتلاً بنفسه، وانتظر أن تجيء

المرأة إليه وأن يجيء الرجل.. وكل الدنيا. فإذا لم يحدث كل ذلك، أصابه الشعور بالخيبة واليأس..

فهو مدلل.. أنانى.. نرجسى.. متعصب؛ لأنه شخصيًا هو المهم. الأهم. وأفكاره هي الصحيحة. ودنياه هي الدنيا.

وهو فى السياسة «وطنى متعصب» - لا مانع من أن يكون وطنيًا. ولكنه وطنى متعصب. أى إنه وطنى ضيق الأفق. فهو يؤمن بأن بلاده هي البلاد. أجمل ما فى الدنيا وأكملها وهو لذلك لا يحب البلاد الأخرى. ولا يحب الأجانب، ويرى أن سلامة بلاده مثل سلامته هو، أن تنطوى على نفسها. وأن تنعزل عن غيرها.

وهو يؤمن بأن العالم كله يتربص به؛ لأنه يريد أن يقتلعه عن عرشه - العرش الذى هو صدر الأم وصدر الزوجة الأم وصدر الوطن الذى هو أم الجميع!

وعلماء النفس لا يتعبون من تفسير قسوة هتلر وموسوليني وستالين ونبيرون وكاليجولا بأنهم أطفال لم يكبروا. فهم يريدون الطاعة التامة من كل الناس، فإذا لم يجدوا ذلك ثاروا وقتلوا وحاربوا.. فلم تكن المرأة هي مشكلة حياتهم، وإنما المرأة الأم.. الزوجة الأم.. أو العشيقة الأم - أى إن الذين تزوجوا فقامت الزوجة بدور الأم يبحثون عن الزوجة التى تقوم بدور العشيقة. وكثير من هؤلاء الطغاة قتلوا عشيقاتهم؛ لأنهم يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة طاهرة نظيفة. فالمثل الأعلى لها: هي أن تكون أمًا - فهم - إذن - حائرون بين الأم التى لا يجدونها، والعشيقة التى لا يريدونها. أى إنه إذا وجد الأم لم يجد الزوجة وإذا وجد الزوجة لم يجد العشيقة وإذا وجد العشيقة لم يجد الأم فانتقم من كل الناس الذين ينعمون بالأمومة والزوجة والعشيقة؟!

وفى التاريخ أطفال عندما لم يجدوا الأم هربوا إلى أمهات من الحيوانات.. فأطفال صغار أرضعتهم الذئاب. حدث ذلك فى أسبانيا والأردن والهند وتونس. فوجئ الناس بأطفال بين قطعان الذئاب. والأطفال يمشون على أربع ولا يتكلمون. وقد اكتسبوا بعض صفات الذئاب كالخوف من الإنسان وأكل اللحوم النيئة والعواء.. ولما حلل الناس استئناس هذه الأطفال ماتت!

وبعض الفنانين الكبار يرون فى الحياة بين الوحوش كالوحوش، مثلاً عاليًا للحرية.. أى الانطلاق والتفرد على قيود الأسرة الصغيرة أى العائلة والأسرة الكبيرة. أى المجتمع والمجتمع الكبير أى العالم. فهم يفضلون أن تكون لهم عقول آدمية وأجسام وحشية. وإن هذا السلوك هو خلاصة العبقرية الإغريقية. فالإغريق جعلوا آلهتهم يسكنون قمم الجبال. ولكن إذا أرادوا أن ينعموا بالحياة ولذاتها، تحولوا إلى بشر.. أو إلى حيوانات ونباتات.. ولذلك كان آلهة الإغريق يحققون على الإنسان. فالإنسان قصير العمر، وهم خالدون.. والإنسان يخاف ويتعذب ويقلق ويستمتع.. ويحب ويكره. وهم محرومون من كل ذلك. فالآلهة الإغريق يحققون هذه المعادلة يوميًا: عقول الآلهة وأجسام البشر.. أو عقول البشر وأجسام الحيوانات. وهذا أقصى ما يتمناه الفنان..

وفى العصر الحديث تقدمت صناعة اللعب.. وهذه اللعب حلت مشكلة عائلية. والحقيقة أنها أجلت الحل إلى ما بعد. بل أجلت الحل إلى الأبد. وبقي الأمل فى الحل عميقًا فى نفس كل طفل. فالأب يشتري اللعب لأطفاله، أى يشتري للطفل ما يجعله ينشغل عنه. فكأن الأب يشتري سكوت الطفل؛ لأن الطفل لديه سؤال واحد: أين أنت؟ فأبوه ليس موجودًا ولا أمه. وهذه الهدايا والفلوس التى

يعطيها الأبوان للطفل هي تعويض عن غيابهما. والطفل ينشغل باللعب عن أبويه.

ولكن شيئاً خطيراً يحدث. وهو أن الطفل يرى أن اللعب والفلوس حق مكتسب.. حق مفروغ منه.. تماماً كالأكل والشرب والملابس. وهذا الشعور بالأمان. وعلى ذلك فلا معنى لأن يبحث الطفل عندما يكبر عن عمل أو مكان آخر يحقق فيه حريته، ويشتري فيه طعامه، ويكون له الأمان الخاص به ويمن يحب.. وهكذا يجرد الأب ولده الصغير من البحث بنفسه عن مستقبل حياته. فكأن الأب والأم معاً، بدلاً من أن يربيا الطفل ليكون رجلاً، يفرضان عليه طفولة طويلة ليظل في البيت يتلقى الطعام والشراب والفلوس.. فهو رجل يلهو والأبوان يريان الطفل لعبة يلهوان بها - حين يعودان إلى البيت!

ولكن هذا الابن يضيق بهذه الحياة، ولذلك يبحث عن ملذات جديدة خارج الأسرة. ويجد فيها حرته التي تنمو وشخصيته التي تريد أن تستقل. وهذه الملذات النفسية والاجتماعية سوف تكون خارج البيت، بل خروجاً عن البيت. وكل من في البيت.

هنا فقط أصبح الابن هدفاً لعائلات أكبر.. هذه العائلات هي الجماعات الشابة: الساخطون في بريطانيا والصاخبون في أمريكا والخنافس والأحجار المتحركة، والماфия والحب في الكهوف والدخان الأزرق - ومئات غيرها من الجماعات التي تجذب الشبان من كل الدنيا ليستأنفوا الحياة التي حرموا منها.

والشباب في عصرنا لديهم هذا الشعور: السخط والهرب من الأسرة والإدارة والقيادة.. إنه يريد أن «ينتمي» إلى هيئة.. إلى جماعة.. إلى شلة.. ولكن هذه الجماعات لها شروط. أول هذه الشروط أن ينسى العضو كل ما كان يميزه عن الآخرين: الأسرة والطبقة والزى والجنس. أى مطلوب منه أن يكون واحداً مثل الآخرين.

شئ عجيب حقًا: فهوَّلاء الشبان أو الأطفال الكبار الذين يعانون من الضياع فى الأسرة الصغيرة يختارون الضياع فى داخل هذه الأسرة.. ويرون أن الضياع العائلى مفروض عليهم، ولكن الضياع الجماعى باختيارهم.. أى إن هناك فارقًا بين أن تعطينى حقنة بنج فأدوخ، وبين أن أخذها بنفسى.. وإذا كانت عائلته تفرض عليه النظافة والنظام والانضباط، فإنه يقبل فى داخل هذه الجماعة أن يستسلم للقذارة والبهذلة والتراخى.. وأن يلتزم بذلك!

وكذلك الفتيات.. مطلوب منها إذا دخلت هذه الجماعات أن تنسى أنها أنثى، ولذلك يجب أن تكون غليظة صلبة.. مثل الولد فى ملابسها وتعاملها وأن تختار هى الولد، وأن تغتصبه. أى على الرغم من هذا المظهر الخشن، فإنها لا تنسى أنها أنثى وإن كانت قد استعارت أسلوب الرجل!

وفى الدول الصناعية الكبرى: أمريكا وبريطانيا واليابان وألمانيا وفرنسا ألوف الجماعات من كل لون سياسى ودينى وجنسى.

ولأن هذه المجتمعات الصناعية الكبرى تقدر الحرية الفردية، فهى لا تعترض على الشذوذ؛ لأنه مظهر من مظاهر الحرية الفردية. ولذلك تؤيد الشذوذ الجنسى. والشذوذ الأخلاقى. وحتى إذا كان المحترفون أقلية فإن الأقلية وحمايتها أكبر دليل على أن الحرية لا تتجزأ.

فهذه الجماعات الخارجة عن الدين لها نفس تقاليد الجماعات الدينية.. لكى ينضم أحد إلى أحد الأديرة، فلا بد أن يغير ملابسه وأن يغير اسمه وأن يحلق شعره وأن يمشى حافيًا.. أى يقطع صلته بالدنيا، ليدخل فى عالم يتساوى فيه كل الناس.. ومن بين الأسماء التى يختارها الرهبان: الغلبان.. المسكين.. العريان.. الأعرج.. المشلول.. الأقرع.

وإذا كان هذا دليلاً على التجرد والزهد والتواضع، فهو دليل جديد على أنه أصبح شخصاً آخر، لا ميزة له.. إنه مثل كل الرهبان.. وكذلك الذى ينضم إلى الجيش: يدخل إطارات حديدية من الانضباط والربط والاستعداد للموت. وحتى يكون موته مميزاً فهم فى الجيوش يقولون: لا «الموت» وإنما: الشهادة والاستشهاد. وفى الجيش يناودنه: يا دُفعة.. يا عسكري.. يا نفر.. يا كتيبة.. يا مواطن! تماماً كما يفعل عسكري المرور الذى يجد أمامه سيارات من كل نوع.. كتلاً من الحديد تتحرك فينادى عليها: أنت يافيات.. يا مرسيدس.. يا نقل.. يا دقهلية.. يا كارو.. فهذه السيارات قد تساوت عند عسكري المرور: ماركات وألوان وأشكال فقط. ولا يهتم من يكون راكبها أو صاحبها!

وفى السجون يدخلون فى سلاسل وفى جدران مظلمة ولا يكون لهم أسماء: أرقام فقط! وكذلك فى المستشفيات..

أى إن الشبان - الرجال العيال - الذين لم تسعدهم الحياة العائلية لأنه لا أثر فيها للحرية والحنان يستسلمون إلى جماعات يفقدون فيها حريتهم أيضاً، ويفتقدون فيها الحنان. ويختارون نوعاً من اللجوء العاطفى والاجتماعى - أى إن هذه الجماعات هى «بدل فاقد».. فهم تركوا البيت الدائم واختاروا البيت «المؤقت»، لقد قلبوا الأوضاع. تمردوا. ثاروا. فالبيت الدائم جعلوه مؤقتاً عندما هربوا منه، والبيت المؤقت توهموه دائماً عندما هربوا إليه!

فما هذا الذى حدث؟ أرجو أن تتذكر أننا نتعمق أكثر وأكثر، هذا هو السلوك المعقد لشباب يمارس الحرية الفعلية والحرية المفتعلة.. إن الحرية هى المسافات، فالإنسان الحر يستطيع أن ينطلق فى

طيارة أو سيارة.. أى يمكنه أن يقترب ويبتعد عن الناس يوماً أو شهراً.. إنه حرقى أن يختار المسافة التى بينه وبين الناس.. والذى لا حرية له فالمسافات من حوله قد تحددت. تجمدت بين أربعة جدران وفى سلاسل وفى زمن محدود حديدى. والسجين لا يستطيع أن يخرج من هدومه، ولا أن يمحو الرقم من على قفاه.

والعلاقات الإنسانية: مسافات نفسية واجتماعية: فالمسافة بينى وبينك قصيرة إذا كنا أصدقاء.. بعيدة إذا كنا أعداء. قريبة إذا كنا أزواجاً.. قريبة جداً إذا كنا عشاقاً.

والقرب والقراية والقربى والزمالة والعداوة - كلها تدل على طول وعرض وعمق المسافات التى بيننا. والمسافات واضحة الاتساع بين أبناء العمارة الواحدة والمدينة الواحدة والدولة الواحدة والكوكب الواحد والمجرة الواحدة!

وفى هذه الجماعات تنعدم المسافات، فالكل فى زى واحد.. زى علقى واجتماعى ودينى وسياسى.. ومن مظاهر انعدام المسافات: التعصب الشديد لهذه الجامعة وشكلها وحجمها ونظرياتها فى مواجهة المجتمع والسلطة.

أى الذويان التام للفوارق بين الأعضاء وذلك بالإسراف فى تعاطى المخدرات: المخدرات المادية والمخدرات الفكرية أيضاً.

شئ عجيب حقاً: أن يهرب الأبناء من دكتاتورية الأب والأم ويستسلمون لدكتاتورية أخرى: لرئيس الجماعة أو النبى المزيف.. أو الإله.. نعم لقد ظهر فى قلب أمريكا رجال زعموا أنهم أنبياء. فسار وراءهم الألوف، وزعموا أنهم آلهة فسار وراءهم الملايين.. وواحد من هؤلاء قد استدرج أتباعه إلى الموت الجماعى - فماتوا معاً.. استشهدوا! وفى معركة الحرية، أو سوق الحرية، أو معرض الحرية تحاول

المرأة، وهى حديثة العهد بالحرية، أن تتضامن مع الرجل أو تبالغ فى هذا التضامن وفساتين المرأة هى أوضح أساليبها فى التعبير. فارتدت المرأة ملابس الرجل وقصت شعرها. ثم عادت فثارت احتجاجا على العصمة وأوامر الوالدين ورجال الدين.. ثم كشفت صدرها إعلاناً منها أنها لا تعتز بهذا الصدر الذى يميزها عن الرجل.. وكفراً بأنوثتها وسخطاً على الرجل الذى لا يريد فيها إلا: الأنثى.. إلا جسداً مثيراً..

ثم ظهرت ملكات الإثارة فى حالة غضب.. ودعوة إلى الثورة على الرجل. فصوفيا لورين: بعد أن تقلبت فى كل أدوار الجنس اتجهت إلى دعوة المرأة أن تربي عضلاتها.

وكذلك فعلت أجمل امرأة فى العالم: راكيل ولش.. وبرجيتى باردو طفلة فرنسا التى لا تكبر.

وفى المكتبات والأندية الرياضية ونوادى الفيديو كتب وأفلام عن «المرأة العضلية».. أو «المرأة العضلة» الجين فوندا، الممثلة الأمريكية الشهيرة.

أى إنه ما دامت المرأة أصبحت مثل الرجل فى أشياء كثيرة، فلماذا لا تكون لها عضلات. إنها مسألة تدريب وتربية واستمرار..

فكما أن الإنسان لا يولد رجلاً، وإنما يصير رجلاً ذكراً ورجلاً أنثى.. فكذلك المرأة تصير امرأة رجلاً، وامرأة أنثى.. وامرأة ذات عضلات.. وامرأة إرهابية.

شئ غريب فى قلب وأجسام هذه الجماعات المتطرفة . أى التى تعيش على أطراف المجتمع والدين والسياسة.. والتى تصل فى اعتقادها إلى أقصى طرف اليمين أو اليسار.. أى لا تقف فى الوسط.. هذا الذى يحدث يذكرنا بما كان فى حريم السلطان التركى.. ففى

حريم السلطان كان يوجد رجال، مهمة هؤلاء الرجال هي خدمة حريم السلطان دون أن يمسهن.. ولذلك جعلوهم أغوات - أى خصياناً - فلا هم رجال ولا هم نساء.. ولكن الشيء المؤكد أنه لا ضرر من وجودهم.. فلا عدوان منهم على ممتلكات السلطان.. فلا تحمل واحدة منهن بولد يصبح سلطاناً، ولا يكون أبوه الحقيقي هو السلطان نفسه - فقد كان من عادة السلطان إذ ولدت واحدة من الحريم ولداً ذكرًا جعله ولياً لعهد.. وسلطاناً بعد ذلك!

وفى هذه الجماعات يفقد الأعضاء كل إرادة وكل سلطة.. فقد نزعوا ريشه واستأصلوا أمله فى أن تكون له أية حياة بعيدة عن الجماعة..

ولذلك يصبحون ألعوية فى أيدي زعماء أذكىاء نصابين..

حدث هذا فى أمريكا بعد حرب فيتنام.. وفى بريطانيا بعد العدوان الثلاثى على مصر.. واليابان بعد إلقاء القنابل الذرية عليها وفى ألمانيا بعد زيادة البطالة.. هؤلاء الشبان لم يعودوا أفراداً فى عائلة وإنما هم كتل متراصة متساقطة منهارة دائخة فى هذه الجماعات المتطرفة.. لقد شطبوا أنفسهم من كشف المجتمع الكبير.. سقطوا من الرصيد.. أصبحوا ديوناً معدومة.. مخلفات حرب.. طرح البحر.. تجاوزوا عمرهم الافتراضى مع أنهم فى غاية الشباب والحيوية!

وأخيراً هذه القصة عن الإمبراطور نيرون.. عندما حملت به أمه رأت فى نومها أن الرعد يخرج من فمها والبرق من بطنها.. وذهبت أمه إلى قارئة الكف فقالت لها: ابنك سوف يكون إمبراطوراً وسوف يقتلك أيضاً. قالت الأم: المهم أن يكون إمبراطوراً..

وذهب ابنها الإمبراطور إلى قارئة الكف فقالت له: وأنت حظك من

السماء!

وبعد أن قتل أمه انتحرت فصعدت روحه.
أما العذاب الحقيقي للإمبراطور فهو أنه كان يطلب من أمه أن
تأمره..

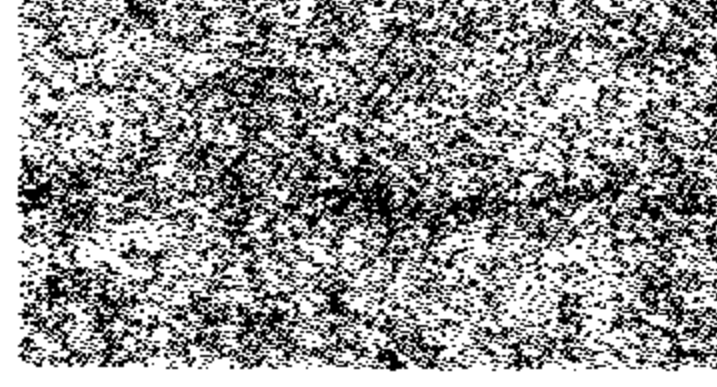
وعذاب الأم أنها كانت تطلب من ابنها أن يأمرها وأن يكون
مجرماً!

فلا هو يريد أن يكبر، ولا هي تريد أن تكبر - الرجل العيل والأم
العيلة والزوجة العيلة..

وقصة أخرى لأم الملك لويس الرابع عشر عندما أحست أمه بأنه
يتحرك في أحشائها أقامت الأفراح والليالي الملاح. وعندما ولد
وزعت النبيذ على الشعب مجاناً من إحدى النافورات.. وعينت له
عشرين خادماً.. وعندما بلغ الرابعة من عمره خلف أباه ملكاً لفرنسا..
فكانت أمه تركع أمامه، وتطلب من كل الناس أن يفعلوا ذلك.. وكانت
تعرض عليه المراسيم الملكية وتضعها وراء ظهرها وتطلب إليه أن
يختار. فالذى يختاره هو النافذ فوراً!

وهي التي قالت له على مسمع من كل رجال الحاشية: شيء واحد
أحسد عليه الفراغة أن الأم كانت تتزوج ابنها؛ لتكون زوجته وأمه
حتى الموت!

ومشكلة هذا العصر أن ملايين النساء مثل أم هذا الملك. وملايين
الرجال مثل السفاح نيرون، اختلطت عند الجميع الحدود التي تفصل
بين الرجل والطفل وبين الزوجة والأم - مما ضاعف تعاسة الجميع
واضطراب هذا الزمان!



السندوتش: مقبرة الحضارة الإنسانية!

من مائة وخمسين عامًا رجع الشيخ رفاعة الطهطاوى من باريس، مبهورًا: بالمطاعم والمقاهى وعربات الرش وملابس النساء وطعم الخوخ.. والحرية.. وكان الشيخ الطهطاوى قد سافر مع أولاد الباشا يعلمهم مكارم الأخلاق ويحميهم من الانحلال والفساد.. ولم يفلح.. وإنما هو الذى تعلم وجاء يعلم مصر والعالم العربى.. واستحق من العلماء عظيم الاحترام، ومن السلطان الجاهل الطرد والنفى.

وكتب الشيخ الطهطاوى مشاهداته فى فرنسا فى كتابه الممتع «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - أو - الديوان النفيس بإيوان باريس».. والكتاب بما فيه من معلومات وانبهار بالعالم الجديد متعة تاريخية مسلية، لولا الكثير من الشعر السخيف والاستطرادات المملة.

ويوم ذهب الشيخ الطهطاوى إلى باريس بلغ عدد المطاعم فى ذلك الوقت ٥٥٤ مطعمًا. وأما المقاهى فهى ضعف هذا العدد. وأول مطعم عرفته باريس أنشئ سنة ١٧٦٤. وكان يبيع الشورية الساخنة فقط..



اقراً ما كتبه الشيخ الطهطاوى عن المطعم (الرسطراطور): وعادة
الفرنساوية: الأكل فى طبق. كالطبق العجمية أو الصينية لا فى أنية
النحاس أبداً. ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة
وسكيناً وملعقة.. والشوكة والملعقة من الفضة. ويرون أن النظافة
أو «الشلينة» ألاّ يمس الإنسان الشئ بيده، وكل إنسان له طبق قدامه،
بل وكل طعام له طبق، وقدام الإنسان قدح، فيصب فيها ما يشربه من
قزازه عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب، فلا يتعدى أحد على
قدح الآخر، فأوانى الشرب دائماً من البللور والزجاج. وعلى السفرة
عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيها ملح والآخر فيه فلفل وفى
الثالث خردل إلى آخره. وبالجمله فأداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً.
وابتداء المائدة عندهم الشورية، واختتامها الحلويات والفواكه.
والغالب فى الشراء عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء. وفى الغالب
خصوصاً لأكابر الناس يشرب من النبيذ قدراً لا يسكر به أبداً، فإن
السكر عندهم من العيوب والرذائل.. ثم إنهم مع شربهم من هذه
الخمور لا يتغزلون بها كثيراً فى أشعارهم.. وليس لها أسماء كثيرة
تدل على الخمر كما عند العرب أصلاً..

ومع كثرة تفننهم فى الأطعمة والفطورات فطعامهم على الإطلاق
عديم اللذة ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ.
ثم اقرأ للشيخ الطهطاوى يبدى دهشته وتعجبه من المقهى: وكان
أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها
عجيبة الشكل والترتيب. والقهوجية: امرأة جالسة على صُفة عظيمة
وقدامها دواة وريش قائمة، وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل

القهوة. وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة: صبيان القهوة. ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمشجرات، من الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش. وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفتورات، فإذا طلب الإنسان شيئاً طلبه الصبيان من السيدة القهوجية وهى تأمر بإحضاره. وتكتبه فى دفاترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبى للطالب الذى يريد الدفع. والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضروا له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه. ففعلنا ذلك كعادتهم. وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر. وبالجمله فهو قدح لا فنجان. وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية. يقصد الصحف. من أجل المطالعة فيها. وحين دخولى هذه القهوة ظننت أنها كبيرة جداً مليئة بالناس. فإذا بدأ جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشياً وقعوداً وقياماً فيظن ان هذه القهوة طريق. وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلا بسبب أنى رأيت عدة صور لنا فى المرأة.

فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج. «فعادة المرأة عندما أن تثنى صورة الإنسان، وعادتها عند الإفرنج، بسبب تعددها على الجدران أن تعدد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان».

ويصف ملابس الفرنسيين فيقول: من العادات العظيمة عند الرجال انتشار لبس القمصان والألبسة والصدريات تحت ملابسهم. فالموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات. وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش. فلذلك لا أثر للعمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر. وملابس النساء ببلاد الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة. خصوصاً إذا تزينت المرأة بأعلى ما عندها. وليس لدى النساء حلى كثيرة: الحلق المذهب

ونوع من الأساور الذهبية يلبسها في أيديهن وخارج الأكمام. وعقد خفيف في أجيادهن. وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدًا. ولبسهن في العادة: الأقمشة الرقيقة من الحرير والشيت أو البفت الخفيف. ومن عاداتهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفًا ويبرز الردف كثيفًا. ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبًا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر، حتى يكون قوامهن دائمًا معتدلًا لا اعوجاج به. ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان ألا يستحسنها منهن: عدم ارتدائهن الشعور كعادة نساء العرب. فإن نساء الفرنسيين يجمعن الشعور في وسط رءوسهن ويضعن فيه دائمًا مشطًا ونحوه. ومن عاداتهن أيام الحر كشف الأشياء الظاهرة من البدن: الرأس إلى ما فوق الثدي حتى يمكن أن يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعهن، ويمكن كشف شيء من الرجلين، بل هن دائمًا لابسات للجرايات الساترة للساقين خصوصًا في الخروج إلى الطرق. وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلًا. ومن المتداول عندهم استعمال الشعور المستعارة لنحو الأقرع وردىء الشعر. بل قد يستعملونها في اللحى والشارب. وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا وكان هذا الملك لا يخلعها إلا عند النوم. ومن الغريب أنها تستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة..

لقد وصف الشيخ الطهطاوى الحياة في باريس من بعيد لبعيد.. شاهدها.. سجلها.. حللها. ولكنه - طبعًا - لم يستطع أن يعيش ولا أن يعايش أحدًا.. داخل المقاهى والمطاعم.. ولكنه لم يعرف أن أسلوبًا جديدًا من الحياة قد دخل المجتمع، وأن المقاهى قد فرضت على الإنسان في العصر الحديث أسلوبًا في الحياة خارج البيت. وأخرجته من جلده ومن دينه أيضًا.

وعلى الرغم من أن أجمل مقاهى الدنيا هى مقاهى باريس، فإن المقهى نفسه اختراع أمريكى، يتفق مع الحياة الأمريكية فى بداية القرن الماضى.. فالمجتمع الأمريكى عظيم الحركة. مندفع إلى الغرب يبحث عن الذهب. ولكنه يزرع الأرض ويبنى، وهو ينقب عن المعادن، وهو يرتفع بالمباني إلى السماء. فهو مجتمع متفجر فى كل الاتجاهات. وقد ظهرت فى سان فرانسيسكو: الكافتيات.. وهى إدماج لكلمتين معًا: الكافيه. البن والتى - أى الشاى، ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا اخترعت ترجمة لهذه الكلمة وأسميتها «القهوشية أو القهوشيا» وقلت: إن هذه الكلمة قد وضعها المجمع اللغوى. وإذا بالمرحوم محمود تيمور يكتب مقالاً طويلاً ينفى عن المجمع هذه التهمة. ثم ترجمت «بيت الشاى» اليابانى بكلمة: مشهى - على وزن مقهى، واستحسن المعجم اللغوى هذه الكلمة. ولم يأخذ بها؛ لأن الكلمات يجب أن تنبع منه وحده!

وظهرت الكافتيات فى أمريكا يقف فيها الناس يشربون ويأكلون ويخطفون السندوتش ثم يتابعون الاندفاع إلى الذهب.. وبسبب نقص الأيدى العاملة كان على الزبون أن يقف فى الطابور وأن يختار لنفسه الطعام الذى يريد.. ثم ظهرت الحاسبات الإلكترونية التى يدفع فيها الزبون ثمن الطعام..

وظهرت محلات الأدوية وفيها إلى جانب الدواء: الأطعمة والمشروبات. فكانت محلات الأدوية والعقاقير نوعاً من السوبر ماركت أيضاً.

وعلى الرغم من أن السندوتش إنجليزى الصنع، فإن أمريكا أصبحت أكبر منتج ومستهلك للسندوتش على شكل لحوم أو فراخ.. أو علب من الورق فيها اللحم والبطاطس.. ثم ظهرت المطاعم الكبرى فى أمريكا وفى أوربا. وتحولت هذه المطاعم إلى نزهة أسبوعية لكل أسرة.

وتطورت هذه المطاعم الشعبية فأصبحت مطاعم فخمة
أرستقراطية صغيرة الغرف. يشعر فيها الزبون أنه وحده بعيداً عن
آذان وعيون الآخرين..

وأدخلت الموسيقى.. ولكن الشعوب اللاتينية وشعوب البحر
الأبيض جمعت في المطعم الواحد بين المقهى والكباريه. ولذلك
ظهرت الموسيقى والرقص والغناء.

ولكن أكثر الدول الأوربية تفصل تماماً بين الأوبرا والمسرح وبين
المطعم. فإذا كان لابد من الطعام الخفيف ففي الاستراحة.. ولكن
الشعوب اللاتينية وأبناء البحر الأبيض يأكلون كثيراً وثقيلاً
ويتفرجون على الرقص والغناء، ولذلك اعتادت الموسيقى أن تكون
عنيفة لإيقاظ الذين أتخمهم الطعام، وأغرقهم الشراب..

وبعد دخول القوات الأمريكية إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية
انتشرت الكافتيات والبارات السريعة والأكل وقوفاً والشرب خطفاً..
وانعدم «الجو» الشخصى والعائلى.. فانفتحت المطاعم على البارات
على المقاهى على الكباريهات واختلط الناس بعضهم ببعض..
وضاعت معالم الخصوصية التى كانت موجودة فى المطاعم الأوربية..
وكان شيئاً غريباً أثناء الاحتلال الألمانى لفرنسا أن يتجه الأدباء
إلى المقاهى، وأن تقوم المقاهى بحمايتهم والتستر عليهم. فقد كانوا
يفكرون ويضعون خططا لمقاومة الاحتلال الألمانى. لذلك تحولت
المقاهى إلى لجان سرية لمحاربة النازية.

وظهرت الحواجز الخشبية والزجاجية. ووراءها جلس الأدباء
والشعراء والفنانون والثوار. وكثيراً ما هاجمها الألمان ليجدوا أناساً
مقاربين ليس معهم ورق ولا كتب ولا قلم.. فقط يتناقشون وهم
يدخنون - لقد استعدوا تماماً لهذا التفتيش المفاجئ!

وإذا كانت الثورة الفرنسية هي التي نشرت المطاعم - وذلك بأن جميع طهاة الملوك والأمراء والنبلاء قد فتحوا لأنفسهم مطاعم ومقاهى، فإن الاحتلال الألماني لفرنسا قد حول المقاهى إلى غرف للعمليات الفكرية والسياسية والعسكرية.

وفى أعمارهم القرن التاسع عشر كان أدباء فرنسا وشعراؤها يقضون فى المقاهى.. فى ركن مع زجاجة نبيذ وكثير من القهوة المرة. وكان الأديب الفرنسى بلزاك يطلب من الجرسون: المزيد من القهوة.. أرجوك..

ويلتفت الجرسون فيجد عشرين كوباً من القهوة قد شربها الأديب ويطلب مثلها مرة أخرى.. وفى يوم شرب مائة كوب..

وفى يوم صرخ الأديب بلزاك قائلاً: أريد طبيباً.. أريده أن يخترع لى طريقة لا أذهب بها لدورة المياه.. وأظل طوال الوقت أشرب وأكتب.. لا بد أن هناك طريقة سوف يعرفونها فى القرن العشرين!

وكان الشاعر الرومانسى يول جيرالدى ينهض مبكراً. ويقف أمام المرأة طويلاً. ثم يحلق لحيته ويسوى شعره، ويتلفت يميناً وشمالاً ثم يقترب منها ويقبل الوجه الجميل الذى يراه ويقول: وداعاً يا أجمل وجه رأيته أمس واليوم وسوف أراه غداً.

وفى قصيدة له يقول: حبيبتي إن كنت تغارين من هذا الذى أرى، لماذا لا تقفين ورائي.. أمامي.. لماذا لا تدخلين فى زجاج المرأة.. إن السعادة الحقيقية ألا تزاحمينى فى مرأتى.. أو فراشى.. أو حياتى.. أن تكونى على شاطئ، وأنا على الشاطئ الآخر.. وأن تكون الذكريات نهراً يتدفق بيننا.. صدقيني.. من أجل هذا وحده. فجع الحب، وفشل الزواج.. كل زواج.. حتى زواجنا..

وقد علق مقهى «دى فلور» هذه القصيدة. ونزع كل المرايا

للزجاجة من الجدران.. ولولا مقاهى الحى اللاتينى فى باريس ما انتظمت الدراسة فى السوربون . عبارة قالها الرئيس ديغول وهو يتحدث عن الرذائل الصغيرة للشباب..

أما الفيلسوف الوجودى سارتر فقد كتب أروع أعماله فى مقهى «دى فلور» كان من عادته أن يصعد الدرج. وأن ينحنى يساراً. وأن يدخل «غرفة الفيلسوف» وفى الغرفة منضدة عليها زجاجة نبىذ. فإليها تنتهى كل الضوضاء.. وهذه الضوضاء تحاول تشتيت عقل الفيلسوف فيبذل جهداً أكبر فى التركيز.. يقول سارتر: فيلسوف عظيم ذلك الذى اخترع المقهى. ففيها كل ضوضاء الناس: أصواتهم وصراخهم.. اختلاط آرائهم.. ودخانهم والرغبة القوية عند الناس فى أن يكونوا معاً.. والرغبة الأقوى فى الانعزال عنهم.. ثم هذه الفواصل إنها من زجاج.. إنها تفصل ولا تفصل..

بالضبط هذا ما يريده الناس.. أن يكونوا معاً، ولكن بشرط ألا يكونوا كذلك..

ويقول سارتر: ومن أين لى بهذا الدفء؟.. من أين لى بهذه الضوضاء؟.. إننى لا أجد شيئاً من ذلك فى البيت.. ثم هذه العلاقات الإنسانية كلها «موقوتة».. نلتقى ونتحدث ونتلامس وننفصل.. أما فى «البيت» فكل العلاقات ارتباطات.. كل الناس مربوطون بخيوط ويعقد.. أو بدلاً من العقد هناك دبابيس.. أو هناك صمغ فالناس ملتصقون.. ملتزجون وهذه بالضبط هى العلاقات التى يجب أن ننفر منها؛ لأنها قيود على الحرية الفردية للإنسان.. فالبيت صورة متطورة من الكهف القديم . أما المقهى فهو صورة للحرية والانطلاق من أى قيد..

ويقول: كل علاقة فى المقهى تنتهى بالبيت.. فاشلة؛ لأن فيها

تفازلات عن حريتي. وكل علاقة تبدأ بالبيت وتنتهى بالمقهى: هى علاقة بلغت كمالها بالانطلاق.. بالانفلات..

يقول سارتر: ومن الطبيعى أن يكون زواد المقاهى من الطلبة.. ورواد المطاعم من الآباء والأزواج.. فالمطعم صورة أجمل - أى إنه البيت وقد تحسنت ألوانه وأضواؤه وأثمانه.. أما المقهى فهو صورة من الرصيف ومن مدرجات الجامعة وملاعب الكرة..

لقد شاهد الشيخ الطهطاوى مقاهى ومطاعم باريس لكنه كان غائبًا عن التعبيرات العميقة التى أصابت المجتمع الأوروبى فى أعقاب الثورة الفرنسية.. والتى زادت بعد الحرب العالمية الثانية فى أوربا وفى أمريكا أيضًا.

وتجربة الأمريكان طويلة مع المطاعم والكافتيريا.. ولكنهم بعد الحرب العالمية الثانية قضوا نهائياً على كل ما يغرى الشباب بأن تكون له أسرة أو يكون له بيت.. فلا أحد عنده وقت لكى يطبخ فالأطعمة جاهزة. ولا أحد عنده وقت لكى يغسل الأطباق، فهى من ورق والسكاكين من بلاستيك.. ولا من الضرورى أن يتزوج لكى يكون له بيت.. ولا من الضرورى للفتاة أن تكون «ست بيت» فالبيت لا يساوى هذا العناء وأن تكون خادمة لأى زوج.. ولا يهمها أن نلقبها بست البيت، وهى فى الواقع ليست إلا خادمة فى البيت..

ولا يهم أيضًا أن يكون عندها أولاد.. فإذا اضطرت إلى ذلك، فالخادمة تتولى أمرهم.. وإذا لم تجد الخادمة تركت طفلها فى أحد الملاجئ.. حتى المرأة الأمريكية عندما أنجبت.. كان ذلك بنصيحة من الأطباء، فلا بد أن تحمل وتلد حتى لا تضطرب غددها الصماء وأعصابها.. فمن أجل صحتها يجب أن تكون أمًا ولكن من أجل

جمالها يجب ألا ترضع طفلها، ومن أجل حريتها يجب ألا تربط نفسها بهذا الطفل..

ولذلك اختارت المرأة الأمريكية والأوربية العلاقات الواسعة، أو القيود الفضفاضة. وبعد حرب فيتنام - أى بعد الهزيمة الأمريكية الأولى فى تاريخها - خاب أمل الشباب فى مستقبل أمريكا ومستقبل الحرية أيضاً. وهربوا إلى الاسطبلات والزرائب.. والخرابات والخيام عند أطراف الغابات ثم إلى الغابات الاستوائية.. لماذا؟ لأن الشباب لا يريدون أن تكون لهم بيوت.. أو ما يشبه البيت.. ولا أن تكون لهم علاقات عائلية..

يظهر فى أمريكا أدب «الشبان الصاخبين» وقد اتخذوا مثلهم الأعلى من سائقى اللوريات.. فأمريكا مجتمع يتحرك على عجلات ففيها ثلاثة ملايين سائق لورى. ولهم أكبر نقابة تديرها عصابات المافيا التى تتحكم فى الحياة الصناعية والاجتماعية الأمريكية. إنهم مجموعة من البلطجية الأقوياء الأذكىاء الأغنياء الذين يستخدمون مئات الأطباء والمحامين والمهندسين والمخترعين وأعضاء الكونجرس الأمريكى، وهم الذين قتلوا كنىدى ووضعوا السم لمارلين مونرو.. وهم الذين قتلوا ألوف الأغنياء فى كل مكان.. إنهم القوة التى تقهر القانون وتفتت العائلة وتدير بيوت الدعارة وكازينوهات القمار وهى التى تطلق بين الحين والحين نبياً جديداً أو إلهاً يسحب وراءه مئات الألوف من الشبان.. وتطلق الشعارات والنظريات التى تسحق المجتمع! فسائق اللورى هو الجندى المجهول المحتقر، ولكنه هو الذى يبنى أمريكا ليلاً ونهاراً..

وهو على سفر دائم، ينام سائقاً، ويصحو فى أقسام البوليس.. ليس له بيت ولا أهل ولا يهمة أن يكون هناك بيت أو تكون هناك أسرة.. إنه

مشارك في مؤامرة غامضة ضد المجتمع الأمريكي.. وضد الشركات التي يعمل فيها.. ويرى أن زعماء هذه النقابة من البلطجية ينتقمون له من الأغنياء والسياسة.. وهو في حالة انتقال مستمر. فليس عنده وقت لكي يفكر.. ولكي يفكر يجب أن يتوقف. ولكنه لا يستطيع. فهو ينام في السيارة أو تحتها، وهو يخطف الأكل والشرب خطفًا، والعمل اليومي قد خطف عمره وسلبه تفكيره وجرده من إرادته.. وهو ينظر إلى المدن في طريقه على أنها مجموعة من الكتل الحجرية تعوق حركته.. ولذلك يهرب منها إلى الطرق الطويلة العريضة بين الولايات.. فاللوري وقيادة اللوري هي الصورة النموذجية للشباب الأمريكي! ولا يزال التقرير الذي كتبه الباحثون الأمريكيان لإصلاح التربية والتعليم في أمريكا والذي عنوانه «أمة في خطر» هو أعظم وثيقة في القرن العشرين لإصلاح الخلل العلمي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي في أمريكا، وفي أية دولة صناعية أخرى.

وقد جاء في هذا التقرير أن «حياة الكافتيريا» قد أفسدت الشبان تمامًا. ففيها يمضون معظم الوقت ويرون أنها نموذج للحياة الإنسانية. يجلسون فيها وينتظرون من يخدمهم. فما الذي يجدونه هناك؟ يجدون مناضد كثيرة متباعدة.. ومجموعات متناثرة من الشبان والشابات.. يأكلون السندوتش! وهذه الصورة هي أخطر ما تواجهه أمريكا كلها. فالكافتيريا ليست هي الصورة النموذجية للحياة الاجتماعية.. وإنما هي استراحة مؤقتة وي بعدها يستأنف الإنسان العمل والمذاكرة ولكن النظر إلى الكافتيريا على أنها الصورة المثالية والصورة الأفضل من قاعات البحث والمعامل هذا هو الخطر الذي هدد أمريكا كلها.. الكافتيريا جعلت اللهو قاعدة، والبحث هو الاستثناء.. فالكافتيريا جعلت الاستراحة كل اليوم، والعمل بعض اليوم..

والسندوتش لا يقل خطورة عن كل ذلك. فالشعب الأمريكي يأكل السندوتش فى جميع الليل والنهار، ويفضله على أى طعام آخر مهما كان مغذياً أو لذيذاً.. وهو يأكل جالساً وواقفاً ونائماً وراكباً.. حتى إذا جلس الشاب إلى مائدة الطعام، ولم يكن على عجل من أى شىء فإنه يصنع من الطعام سندوتشاً - أى يصنع شيئاً من شىء، ثم يأكله وينهض دون أن يلتفت إلى متعة الجلوس إلى المائدة، ودون أن ينظر إلى ترتيب الأطباق والشوك والورود.. والبيت الهادئ الدافئ، ودون أن يعرف أن الصحة هى الهضم الجيد بعد المضغ البطيء.. ودون أن يعرف أن السندوتش الذى يضعه على المائدة إهانة لكل الموجودين معه. فهو يستعجلهم أن ينهضوا.. وهو فى نفس الوقت لا يبالى بهم.

وهناك سندوتش آخر أخطر على الإنسان من سندوتش اللحم والبطاطس إنه «سندوتش المعلومات».. فقد أصبح السندوتش أسلوباً فى الأكل وفى التعليم والتربية أيضاً.. فالشباب يخطف معلوماته من هذا الكتاب ومعلومات أخرى من هذا الكتاب ويترك لعقله أن يلقي كل ذلك فى رغيف هزيل.. ويكون هذا السندوتش التافه هو ما لديه من معلومات. ولذلك كان الشباب الأمريكي جاهلاً.. فليس من عاداته أن يأكل على مهل، أن يقرأ على مهل، ولا من عاداته أن يترك العقل والمعدة تهضم على مهل. ولا هو قبل ذلك يجد لذة فى المضغ أو فى تقليب الصفحات واسترجاع سطورها ثم إعادة النظر إليها.

ومن المؤلف جداً فى أمريكا وأوربا واليابان أن تجد اثنين من الشبان قد ركبا دراجة يأكلان السندوتش وقد وضع كل منهما جهاز تسجيل فى جيبه ليستمع إلى الموسيقى.. أما هذا الذى يطل برأسه من فوق ظهر فتاة فهو ابنهما الصغير..

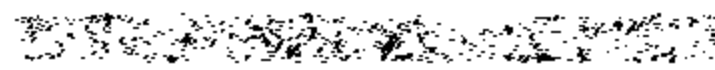
هذا إذن - هو عصر السندوتش - عصر الكافتيريا. عصر اللورى الذى ينطلق على عجلات خارج المدن وعلى هامش القانون.. يقول الشاعر الأمريكى إيلى روزنتال فى قصيدة عنوانها: نحن كما ترانا معًا فى ورقة واحدة منزوعة من الكتاب المقدس وسرقناه من بنك تشيس مانهاتن بعد أن قتلنا إحدى الغانيات وسحبنا جثتها لنضعها فى الجليد أمام كنيسة القلب المقدس أما بعض القصيدة فيقول:

«كما ترانا.. كل يوم.. نتغطى بلحاف واحد، لا ننطق بكلمة. لقد اتفقنا على أن من يتكلم حتى أثناء النوم عليه أن ينام بلا غطاء. وهكذا ترى أننا بلا أطفال.. فقد طبقنا هذا الشرط على أطفالنا.. كانوا يكون فنلقى بهم فى النهر.. وأنا أعطى لزوجتى حبوبًا منومة حتى لا تسمعنى وأنا ألعنها وأتمنى أن أجد واحدة غيرها.. فهى تحبنى أكثر مما يجب.. وأنا أعرف حب المرأة معناه: الزواج.. والزواج معناه القسيس.. والقسيس معناه الكنيسة.. والكنيسة معناها الجنة والنار.. والجنة والنار والموت تجعلنى لا أحقد على الأغنياء والأقوياء.. ومعنى ذلك أن أتركهم يزدادون غنى وقوة.. وأزداد تقلبًا تحت غطاء يزداد انكماشًا يومًا بعد يوم.. إننى أحلم كل ليلة بقدوم الوحش الذى سمعت قصته من أمى.. فهو يجىء فى الليل يلتهم النائمين وحدهم.. ومن أجل ذلك ألف نفسى وألف زوجتى وطفلى فى غطاء واحد.. تعال أيها الوحش.. وابتلع هذا السندوتش المسموم فنموت معًا.. بلا معنى ولا كلمة!».



إذا كنت تحبها حقًا تزوج غيرها!!!

حتى إذا جلست وحدك جاءت إليك أصوات من الشارع. فأنت مع الناس وحتى إذا سددت الباب والشباك فعند أصابعك إذاعات العالم. وإذا أطبقت عينيك تراءت لك ألوف الصور. وإذا سددت أذنيك تخيلت ما لا نهاية له من الأحاديث والحوارات والأغاني وكلمات الحب وصرخات الغضب. فهناك أكثر من واحد دائمًا، مهما كنت وحدك. ومهما حاولت ذلك حتى «رابعة العدوية» عندما اقتحموا خلوتها قالت لهم: أنا وحدي مع الله وحده!



فى الديانة الهندية: أقصى درجات الكمال والسعادة هى أن يصل الإنسان إلى حالة «الرفانا» - أى انعدام الإحساس بكل شىء.. فلا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولا تتخيل.. ولا تشعر بحاجة إلى أحد، ولا نقص فى شىء. ولذلك فهذه حالة اكتفاء الإنسان بنفسه، بل إنه لا يشعر حتى بنفسه. وهؤلاء الهنود الباحثون عن السعادة المطلقة عراة حفاة فى قمم الجبال.

ونحن لا نختار هذه العزلة المطلقة، حيث لا أمل ولا يأس، وإنما نختار خضم الناس والعذاب، والأمل فى أن تجد أناسًا أفضل، وعذابًا أقل.. وإذا هربنا من الناس فإلى الناس، وإذا فزعنا من الحب فإلى الحب أيضًا. والفرق بين الإنسان والحيوان والقديس هو أن الإنسان يحب ويلعن يومًا عرف فيه الحب، ويومًا لم يعرف فيه الحب. ولكن الحيوان لا يحب، والقديس يحارب الحب لنفسه وفى نفسه. بعض القديسين لم ينجحوا - كما سنرى.

قال شوقى:

فاتقوا الله فى قلوب العذارى

فالعذارى قلوبهن هواء

جاذبتنى ثوبى العصى وقالت:

أنتم الناس أيها الشعراء!

وسئل رجل من البادية: من أين؟

فقال: من بلاد إذا أحب فيها الإنسان مات!

وقال شوقي فى مسرحية «مجنون ليلى» يقارن على لسان فتاة
بدوية الحب عند البدويات والحب عند الحاضرات - أى بنات المدن:
ونحن الرياحين ملء الفضاء
وهنّ الرياحين فى الأنية
ويقتلنا العشق والحاضرات
يقمن من العشق فى عافية!

ولو قامت مظاهرة من المحبين والعشاق فى هذه الدنيا، واختار
كل واحد أن يعلن خلاصة تجاربه فى الحياة، ووضع كل واحد لافتة
على جبهته أو على قفاه، أو على صدره، أو على بطنه لكانت مثل هذه
العبارات المتلاطمة عن الحب والحياة والمرأة والصداقة والغيرة
والياس والأمل. ولو قيل للعشاق: هل تعودون إلى البداية مع العذاب،
لاختاروا الذى لعنوه..

يقول أبو نواس:
يقول أناس: لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدرى الهوى كيف
يوصف!

يقول شوقي:
يقول أناس: لو وصفت لنا الهوى
لعل الذى لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

يقول مصطفى صادق الرافعى:
يا من على البعد ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمر
له صباح متى تدركه أخفاكا

الكراهية تعتقل الحياة، والحب يطلقها.. الكراهية تشل الحياة،
والحب يحييها.. الكراهية عمياء والحب أيضاً!

الحب «أكلان» فى القلب لا نستطيع أن «نهرشه»!

«الحب»: أن نتكلم ونتألم ونتعلم. أما الكراهية فهى هناك: أطلقها
وهى تتكلم!

اليأس: نهاية حبك لنفسك. وأنت تبلغ هذه الحالة عندما تدير
ظهرك لكل الناس، ظناً منك أنك قادر وحدك على كل شىء بما فى ذلك
الحب!

الحب والإيمان: أعظم بركانين فى حياة الإنسان.. والذى يصيب
أحدهما يهز الآخر!

انحط مستوى الحب فى العالم: لقد أصبح مثل كرة القدم
والكوتشينة!

من يزرع الذوق يحصد الصداقة.. ومن يزرع الرقة يحصد الحب!
الحب أعظم طاقة فى الدنيا، وأقلها تكلفة!
الحب هو أن تبذل نفسك لتكتشف من تحب!

إننى عاشق بطبعى، ولكنى لم أجد من أحب!
لم يعد فى هذه الدنيا أحد يموت من أجل الحب، ولكن هناك
ملايين يموتون؛ لأنهم لم يجدوا الحب!
ثلاجة يوضع فيها الحب ليموت بهدوء: اللامبالاة!
يقول: لقد تغلبت على الحب ونسيت! فليس حباً ذلك الذى نتغلب
عليه. فالحب غالب دائماً!
قالوا لى: يجب أن تحب من المحيط إلى الخليج. بصراحة لقد
وجدت أننى لست كفاً لذلك!
الحب ينتصر على كل شيء.. إلا الموت والحظ.. إنه فقط يشجعنا
على مواجهة أقصى ما فى حياة الحب!
قال دوق وندسور: عندما أصبحت ملكاً وجدت أنه من الصعب أن
أحمل أعباء الملك وهموم الضمير، دون مساعدة من المرأة التى
أحبها!

الحب بين رجل وامرأة هو نوع من تنظيم النفس!
الغيرة: هى الحب فى ملابس الحرب.
والياس: هو الحب فى ملابس الحداد!
إذا لم تفلح فى أن تجعل امرأة تحبك، انفخ فى غرورها لتزداد حباً
لنفسها، وما فاض عنها سوف يكون من نصيبك!
الحب كالزئبق فى يدك.. إن فتحت له أصابعك استقر فى بطن
كفك، وإن أطبقت عليه كفك هرب من بين أصابعك!
تطاردها تطردك، تطردها تطاردك!
مادمت لا تستطيع أن تخفى عنها شيئاً، فأنت تحبها!
الرجل لا يتهم امرأة بالثرثرة إذا كانت تتحدث عن قوته!

يجب أن تؤكد للمرأة أنه ليس لها نظير في الدنيا، سوف تصدقك،
وبعد ذلك عاملها كأية امرأة!

الجميلة: هي التي أراها.. والجميلة: هي التي ترانى!
إذا كنت على حق فناقشها كرجل وإذا كنت على خطأ فناقشها
كامرأة!

من لا يؤمن بشيء، يحتاج إلى امرأة تؤمن به!
أجمل سنوات المرأة ما بين ٣٥ و ٤٠ إلا أن المرأة لا تبلغ الأربعين
فهي جميلة إلى الأبد!

أن تكونى سعيدة مع رجل يجب أن تفهميه أكثر وتحبيه أقل.. وأن
تكون سعيدًا مع امرأة يجب أن تحبها أكثر وتفهمها أقل.. ولن
تفهمها!

كانت أول قبلة مع أول سيجارة فى يوم واحد. ومن ذلك الحين، لم
أعد أجد وقتًا للتدخين!

المرأة العاقلة تضع بعض السكر فى كل ما تقول للرجل، وبعض
الملح فى كل ما تسمعه منه!

المرأة الفاضلة تلهمك، والذكىة تمتعك، والجميلة تجذبك، والرقيقة
تفوز بك!

كل النساء الجذابات لهن صفة واحدة: وجوه معبرة!
لا يوجد رجل عدو المرأة. فالمرأة هي أعدى أعداء المرأة!
عقل الرجل هو الرجل. جسم المرأة هو المرأة!
رجل فى البيت يساوى عشرة فى النادى!
المرأة ليست لغزًا فى جسمها ونفسها، ولكنه الرجل لم يحاول أن
يعرف!

ما نسميه بالحاسة السادسة عند المرأة ليس إلا «شفافية» الرجل!

النساء مثل الحصون يتم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالحصار
الطويل!

عسل امرأة: سم امرأة أخرى!
لست على يقين من أن هناك امرأة أفضل من رجل ولكن من المؤكد
أنها ليست أسوأ منه!

تحب امرأة أن تكون مثل القصص البوليسية: مثيرة غامضة لها
عقدة.. ولها حل يكتشفه الرجل دون تدخل منها!

أضعف لحظات الرجل عندما تقول له امرأة: كم أنت قوى!
المرأة تتحمل الألم في جسمها وفي نفسها، ولا تقاومه.. ولذلك
فهي أقرب إلى الحياة. والرجل يقاومه. والمقاومة تضعفه، وتجعله
أقرب إلى الموت!

المرأة إذا لم تحب فعندها أخلاق، وإذا أحبت لا تهمها الأخلاق
والرجل إذا أحب فعنده أخلاق، وإذا لم يحب فلا شيء يهمه!
أجمل ما في الرجل القوى: شيء من الأنوثة.. وأجمل ما في المرأة
الجميلة: شيء من الرجولة!

المرأة حيوان مخيف: انظر إليها وهي ترمق فساتين امرأة أخرى..
إنها حيوان شرس لا إنسانية عندها!

خلق الله الرجل ليكون وحيداً، وخلق له المرأة ليزداد وحدة!
الرجل يفضل المرأة التي تضحكه، ويحب المرأة التي تؤلمه،
ويتزوج المرأة التي تنافقه!

إذا عاشت امرأة محبوبة ومكروهة ومحسودة.. فقد كانت حياتها
تساوى كل هذا العناء!

امرأة تعرفها عن طريق امرأة، فأنت لا تعرفها.. امرأة تعرفها عن
طريق رجل فأنت لا تعرفها.

يهمنى الذى «فى» وجهها، أكثر من الذى «على» وجهها!
الشاب: تستطيع المرأة أن تسعده وأن تشقيه.. والرجل: تستطيع أن تسعده ولا تشقيه.. والشيخ: لا تستطيع أن تسعده أو تشقيه!
أخذ الله حمامة ووردة وأفعى وعجنها فى قليل من العسل والشطة والطين فكانت امرأة!
إذا كنت تحبها حقاً، تزوج غيرها!
الحب كالأفلام: لا بد من تحميضها وطبعها فى الظلام!
وراء كل رجل عظيم امرأة تقول: وراء كل عظيم امرأة!
ما أروع الزواج: فأنت تجلس فى بيتك بين أولادك وتتفرج على المسلسلات التى تحبها زوجتك!
المرأة تحب الحساب: فهى تقسم سنّها على اثنين، وتضرب ثمن فساتينها فى ثلاثة!
فى المجتمع: تبدو المرأة من غير زوجها طيبة، ويبدو الرجل من غير زوجته سعيداً!
الأعزب ليست لقميصه زراير.. الزوج لا قميص له!
مشاكل الرجل ثلاثة: المرأة والفلوس والاثنان معاً!
إذا أخطأ رجل قلنا إنه مغفل.. وإذا أخطأت امرأة قلنا إنها مغفلات!
لم أعرف أحداً فى أى عصر، أحب كل امرأة رأها!
الحب هو أن تصيح أنا أنا = نحن!
الحب هو أن تبالغ فى الفوارق بين شخص واحد وكل الناس!
تختلف أساليب المرأة فى مواجهة الرجل، ولكن «الرسم» عليه، هو هو.
الهجوم خير وسيلة للدفاع.. قولى له أنك تحبينه. مفاجأة. ولكن سوف يصدقك!

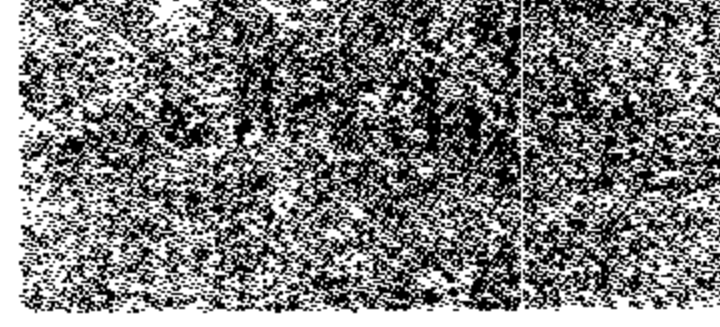
من النادر أن يفسح الرجل الطريق لفتاة تضع منظاراً طبيّاً!
يقول شاعر قديم:

إذا ذكرت، يرتاح قلبي لذكرها
كما انتفض العصور بلله القطر
عجيب لسعى الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا، سكت الدهر!

فما هذا الذي يمسك الناس، ويجعل حياتهم غالية، ويجعلها تهون
عليهم.. ما هذا الذي يجعل امرأة أجمل النساء، وجعل رجلاً سيد
الرجال.. وكلاهما على باب الله: يتسولان الطعام والفراش. ولكن
الحب جعلهما ملوكاً.

أنتم الناس أيها الشعراء كما يقول شوقي. فهم - إذن - هؤلاء
الكائنات الرقيقة المعبرة الحزينة. هم كبار المحبين وعظماء
العشاق.. إنهم لا يملكون المال ولا القوة.. ولكن عندهم في نفوسهم
كنوز الدنيا، وفيهم قوة الجبال والبحار وانفتاح السماء، ووهج
الشمس، وخصوبة الأرض.. ثم إنهم اللحظات الأبدية في تاريخ
الإنسان.

إنهم عاشوا وماتوا: اثنين اثنين.. يواجهان أقسى وأقصى ما في
الدنيا.. قد لا تكون لهما حياة، ولكن كانت لهما الأبدية!



«واسكبي روحك في روحي بكأس الأبدية»

نحن لا نعرف متى بدأت قصة أول حب في التاريخ..
ولكن لا بد أن أحداً قد أحب.. بل إن ألوفاً قد أحبوا وماتوا
من أجل الحب، ولكن لم تصلنا أخبارهم.. أي لم تنقل
لنا كتب التاريخ ماذا جرى.. فالتاريخ لم يسجل حياة
الناس إلا أخيراً.. فقد كان التاريخ مقدساً، يروي
مغامرات الآلهة وأنصاف الآلهة.. ثم يروي قصص
الأنبياء والمرسلين.. ثم يصف الملوك وأبطال المعارك
الحربية.. ولكن أخيراً جداً، مع الفلسفات الشعبية بدأ
يروي كفاح الشعوب من أجل المزيد من الحرية. كما
أننا لا نعرف أول من اخترع النار ولا أول من ابتدع
المصباح.. ولكن لا بد أن أحداً بعد أحد قد وصل إلى
فكرة المصباح الذي يضيء بالدهن وبالزيت ومن
جهود الكثيرين انتقلت إلى المصباح الكهربائي.



والتاريخ يسجل لنا أول قصة كراهية: عندما قتل قابيل أخاه هابيل.. كان حاقذاً عليه. ويقال تنافس الاثنان على حب أخت لهما.. إذن هي قصة كراهية، تخفى وراءها قصة حب.. أو ليست قصة حب ولا كراهية وإنما هو تنازع من أجل البقاء.. من أجل السيطرة على مساحة من الأرض أو مساحة من جسم امرأة أخرى أو من قلبها.. أو هو الجوع كافر بالأخوة ويكل شيء آخر!

وفى الشعر العربى القديم يقال: إن امرأ القيس هو أول الشعراء وهو أول العشاق أيضاً. ويستحيل أن يكون أول شاعر، كما يستحيل أن يكون أول عاشق.. فلا بد أن ألوفاً قبله قد نظموا وغنوا.. وألوفاً غيره أحبوا ونظموا ويكوا.. ولكنه هو الذى وصلت أنباؤه فقط. وكان امرؤ القيس شاعراً ممتازاً وكان عاشقاً أيضاً. وكان وسيماً يطارد النساء من مكان إلى مكان.. فأحب فاطمة وأم الحارث عنيزة.

ولا يمكن أن يكون هو أول من أحب بنت السلطان أو أخته أو حتى زوجته. فالحب لا يعرف الفوارق الطبقيّة أو الاجتماعيّة.. ويقال: إن السلطان قد غضب عليه. وبعث إليه بمن يقدم له ثوباً من الحرير والذهب. وكان مسموماً فلبسه ومات امرؤ القيس.

ويقال: أيضاً إن امرأ القيس عندما علم بأن رجال إحدى القبائل ذهبوا إلى السوق تركوا النساء وراءهم، ظل يترقب ويتريص حتى وجد النساء قد تعرين تماماً عند بئر صغيرة، فأسرع وخطف

ملا بسهن وجلس عليها. وقال لهن: كل واحدة تجيء وتأخذ ثوبها.
وتقدمن جميعاً إلا واحدة!

هذه الواحدة هي التي أحبها.. أحب كبرياءها وعنادها. وهذه
القصة مكررة في كثير من الآداب العالمية، بل إنها موجودة في
أساطير الإغريق وعند الفراعنة وفي قصص بابل وأشور.

ويروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال عن امرئ
القيس: ما معناه إنه قائد الشعراء إلى جهنم!

وبعد هذا الشاعر الجاهلي ظهر شعراء كثيرون وعشاق أكثر.
وتناقل الناس شعرهم وأضافوا إليه.. وتندروا بمغامراتهم واخترعوا
قصصاً من عندهم.

فلا أحد لا يعرف «مجنون ليلى» - أو الشاعر الذي جن في حب ليلى
وهو قيس بن الملوح!

وليس بين مؤرخي الأدب واحد على يقين من وجود هذا المجنون.
لا أحد. وإنما يقولون هناك في الصحراء ألف مجنون.

وكلهم يحبون ألف ليلى.. فقيس هذا لم يكن له وجود. وإنما هو
رمز لأحلام اليقظة عند الشعراء والمحبين. وهو الرجل الخرافي الذي
حملوه غرامياتهم. وأجروا على لسانه قصائدهم.. إنه «جحا»
الرومانسي.. فكما أن جحا قد نسبوا إليه ألوف النكت في كل عصر،
فكذلك مجنون ليلى..

أما بقية العشاق من مثل: كثير وعزة وجميل وبثينة وعروة بن
الورد وليلى وجريز وبثينة وابن المعتز وزرياب وليلى الأخيلية
وعشاقها.. وعشرات غيرهم، وليسوا إلا صورة مكررة من العشق بين
الشعراء والجميلات في زمانهم. وفي كل زمن بعد ذلك وفي كل لغة.
ولو فعل أحد ما فعله المؤرخ الكبير أبو الفرج الأصفهاني في

كتابه الأغاني (٣٠ جزءاً) وسجل لنا ما جرى قبل وبعد القرن الرابع الهجرى، لكن عندنا ألوف الشعراء، وألوف من قصص العشق والغرام. ولكن أبا الفرج قد سجل ما جرى فى القرن الرابع مما جعلنا نتوهم، أنه لم يكن فى ذلك الوقت: إلا الحب والعشق والشعر والغناء. فالدنيا تبدأ بشاعر مجنون: لا بد أن يكون كذلك، وفتاة جميلة من أسرة رفيعة. أى أن مكانتها الاجتماعية هى العقبة الأولى فى وجه الشاعر. الذى ينظم ويتوجع ويحكى.. وتتناقل القبائل شعره وفضيحة هذه الفتاة. ولكن فى زمن كتاب «الأغاني» كان الرجل يدخل البيت، فيجد زوجته قد جلست إلى شاعر. ولم يكن الرجل يغضب لذلك. يكفى أنه شاعر. فهى وهوى.. يحبان الشعر. وهذا الحب الفنى، هو جواز المرور إلى أية امرأة غاب زوجها..

أما قصور الملوك والأمراء وشيوخ القبائل فكانت للغناء والطرب حتى لا يعرف كيف كانت تدار شئون الملك.

وكانت الليالى طويلة، ولكن الطرب والعشق والفن قادر على أن يطويها فى سعادة ونشوة. فلم يكن أحد فى ذلك الوقت يشبع من الفن، شعراً وطرباً وغناء. وكانت المطربات مثل نجوم السينما زينة الليل. وكانت المطربة شاعرة أيضاً تحفظ الشعر وترويه وتغنيه.. ففى الأدب العربى وتاريخ الغناء مثل هذه الأسماء عزة وحبابة وسلامة وعقيلة وخليدة وفرعة وبلبله ولذة العيش وسعدة الزرقاء وسبعة وذات الخال وأستاذ أساتذة الغناء والطرب إبراهيم الموصلى..

ولا بد أن الشعر هو الذى فرض نفسه على المجتمع.. أى أن الشاعر هو سيد البادية. هو يلقي الاحترام العظيم؛ لأنه شاعر، ويجردونه من هذا الاحترام إذا كان عاشقاً؛ لأن معشوقته من قبيلة نبيلة، والقبيلة ترى فى ذلك تعريضاً بها واجترأ عليها، واقتحاماً لحرماتها.. وكان

ذلك يغرى الشعراء أكثر بأن يجعلوا الحب قصة الحياة والموت.
فبطولة العشاق هي البطولة المعروفة فى ذلك الوقت.

وفضائح الشاعر الرقيق عمر ابن أبى ربيعة ومطاردته للنساء فى
أى مكان من بيوتهن، وحول الكعبة الشريفة تملأ الكتب..

وتمضى مئات السنين على الشعر العربى فلا تجد قصة حب
واحدة. هل أجذبت القلوب؟ هل اختفت الجميلات.. فلا أحد يستطيع أن
يحب، ولا واحدة يمكن أن يحبوها؟ لا.. ولكن اختلفت الحياة. فقد
كانت الحياة البدوية مفتوحة. وكان الشعراء هم سادة الناس. ولكن
الحياة بعد ذلك تغيرت. ولم يعد الشاعر هو الوحيد الذى ينشغل به
المجتمع. كما أن وسائل وأشكال اللقاء بين الرجال والنساء قد
تعددت. فلم يعد الشاعر، إن كان، معذباً محصوراً مخنوقاً كما يقول
مجنون ليلى يصف حالته الأليمة:

كأن فؤادى فى مخالب طائر

إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

كأن فجاج الأرض حلقة خاتم

على، فما تزداد طولاً ولا عرضاً!

ولذلك فالحب فى العصر الحديث مختلف تماماً. فبرغم كل هذه
التليفونات والأندية والمواصلات والحفلات والزيارات، فإن الشاعر
يتعذب لأسباب أخرى.. ولكن لم يعد أحد يعيش ويموت من أجل
الحب.. ففى الدنيا مشاكل أخرى أعنف وأقسى، وفى أوروبا عرفوا
شعراء صعاليك.. أى شعراء يتهوسون بالبطولة والتغلب على الأغنياء
والأقوياء ومساعدة المقهورين فى الحب.. وفى أوروبا ظهر شعراء
الحب حتى المرض، والمرض يموت من أجله الناس!

حتى الموت، فهناك شعراء «الطروبادور» الأسبان يتعذبون من

أجل المحبوبة. ولا يريدون منها شيئًا. فقط أن يقال: أحبها فلان
ونظم شعرًا ومات من أجلها، دون أن يرى وجهها إلا مرة واحدة!
وليس الحب هو العشق..

فالعاشق يعرف ألف واحدة..

ولكن المحب يعرف واحدة، وتغنيه عن ألف ألف واحدة..

والعاشق يحب كل النساء. والمحب يرى كل النساء فى واحدة..

فهل مضى زمن الحب؟ وهل لم يبق إلا العاشقون؟

لقد تغيرت الحياة وأشكالها وألوانها ووسائل العيش فيها.
وسيطرت المادة على كل شيء، وكل علاقة، وكل الناس. فأصبح
الحب غريبًا، وليس شيئًا شاذًا أن تسمع فى أحد الأحلام: لا احب ولا
كلام فارغ.. قل ماذا تريد.. أو ماذا تريدون!

حتى الأغنيات الحديثة التى تتحدث عن الحب، اتخذ فيها الحب
شكلًا عنيفًا.. تهديدًا، وعيدًا، إنذارًا.. بل إن المطرب العاشق لا يريد أن
يضيع وقته واقفًا يبكى ويشتكى ولذلك فهو يرقص.. كأنه فاته أن
يقوم بتمرينات الصباح، فراح يؤديها فى الوقت الضائع أمام
الناس.. لقد أصبح الغناء العاطفى مثل الموسيقى المصاحبة
للألعاب الرياضية.. وكأن الحب عيب. والعاطفة نقص.. والغناء
مرض..

- غير أننا فى هذا الزمان أحوج إلى الحب من أى وقت. فالناس
أصبحوا مثل السيارات التى يركبونها ويلعنونها، مثل التليفزيون
الذى ينامون ويأكلون أمامه فى سلبية مطلقة فيفعل بهم ما يشاء..
فنحن الآن نركب آلات وندير آلات. ونقتل بالآلة، ونعيش عليها.. فإذا
رأيت من يركب سيارة أو طائرة من الصعب أن تعرف أيهما يقود،
الآخر.. كلاهما: آلة!

ولكن الحب هو وحده الذى يحرك أعمق وأجمل وأنبل ما فى الإنسان. ففي داخل الإنسان قوى هائلة لا تحركها إلا كلمة السر: الحب..

إن قلب الإنسان مثل الحقائق السمسونية لها أرقام.. هذه الأرقام يعرفها الحب.. فهو يفتحها وهو يغلقها على سرك!
فما هو هذا الحب؟

هناك ألف تعريف لذلك. ولكنه ذلك الشعور العميق الذى يملأ كل حياتك ويشغلك ويجعلك تفضى إذا رأيت «المحبوب» أو فكرت فيه.. إنه ذلك الشعور الذى يوقف عقلك على شخص واحد، ويجمد نظراتك فلا تتجه إلا لواحد، وتضبط أذنك على موجة واحدة.. وهو ذلك الشعور بالاحترام والإعجاب.. وهو ذلك الأمل فى أن يكون لك هذا المحبوب وحدك.. فلا يراه ولا يسمعه ولا يقرب منه أحد سواك.. فإذا فعل أحد، اشتعلت النار فيك.. بلا دخان وبلا حدود.

ثم إن الذين يحبون لا يعرفون كل ذلك. ولا يعنيه. إنهم يحبون وهذا يكفى. إنهم غارقون ولا يطلبون النجاة من الله.. إنهم الذين يجدون الحياة فى الموت فى المحبوب.. إنهم الغرباء فى كل زمان، إنهم السعداء رغم كل شيء.. إنهم الضعاف المتمردون على كل القيود.. إنهم صرخات الغضب فى وجه التطور.. إنهم دموع الحنان فى جحيم العنف.. إنهم آخر الذين يؤمنون بالمعجزة. أى بأن الحب صانع المعجزات. ولأن المعجزات قد اختفت فى زماننا، فلم يعد الحب وحده قادرًا على عودة سلطان المعجزة..

لقد كبرت المعدة، فاحتلت مكان القلب أيضًا..

لقد أصبح القلب يدق فى العقل.. أو أن دقات القلب لم تعد تسمعها الأذن.. أو أنه العقل، كالساعة القيمة يدق.. وكما أن الساعات الكوارتز

لا تدق، فكذلك القلب فى العصر الحديث. ولذلك فالحب القديم، أو هو ابن الزمن القديم.. وإذا كان بيننا محبون، فهم يعيشون فى غير زمانهم.. وهم يبنون كهوفًا بجوار ناطحات السحاب.. وهم يفضلون الزهرة على زجاجة الكولونيا.. وهم يفضلون النظر إلى الثمرة والأوراق والأشجار، ويلمسونها بالأصابع وبالعين وبالخد والشفاه، على زجاجة العصير، وسلطة الفواكه والعلب المحفوظة..

فهل كانت قصة دوق وندسور ومحبيته الأمريكية، والتي من أجلها نزل عن العرش، آخر قصص الحب فى زماننا؟ ليست آخر القصص ولكنها أشهرها. وذلك لأن المحب ملك ولأن التضحية عرش.

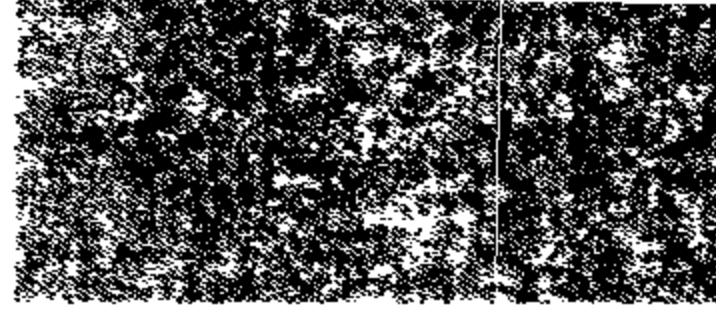
وكما أن فى وجه الإلحاد نلّوح بالإيمان، وفى طوفان الماء، نرفع أغصان الزيتون، فسوف يتمسك الناس بإنسانيتهم، وسوف يقف الناس وراء قلوبهم، يتحدون الموت والجوع والعطش والبرد، يقدسون الأغنية، ويملأون الأرض والسماء بالمحبيات اللاتى لا يمكن إلا حكمة الله: الجمال والصدق!

وسوف يغنى الشعراء ونطرب لما يقولون. وإن لم تكن هناك فائدة مادية، وعائد عملى لما يقولون الفن لا فائدة له.. ولكنهم خالدون بأوهامهم الجميلة، وسماواتهم الخرافية. فما أجمل ما قال شاعرنا الرومانسى المتصوف بعد ذلك: محمود حسن إسماعيل.. ولا يهم أن تصدق كلمة واحدة مما يقول، ولا أن تبحث عن هذه الفتاة التى يتغنى بها. فقد تكون قردًا ولكنه يراها أجمل الجميلات. يقول:

أنا ظمآن فهاتى

خمر عينيك الشهية

انهلينى سحرها السامى
وروى شفتيه
واسكبي روحك فى روحى
بكأس الأبدية
قبل أن تغرب شمسى
بين أطباق المنية
خمرة من هالة النور
بعينيك روية
تمسح الآلام من دنيا
بالامى ثرية
وتنسينى ضنى عمرى
وأيامى الشقية
أنا ظمآن فهاتى
خمر عينيك الشهية
قبل أن تغرب روحى
فى سحابات المنية
فإلى مزيد من الآهات والتأوهات والأغنيات وأشكال وألوان من
العذاب فى الأسبوع القادم.



الحديث الحلو واللحن الشجي

إذا تخيلت رجلاً طويلاً عريضاً عالى الرأس عريض
الجبين شامخ الأنف، قفز من مقعده تاركاً عشرات
الكتب فى الشريعة والفقه والسيرة والفلسفة ومشى
على أطراف أصابعه واتجه إلى المطبخ، واصطدم
بوابور الجاز ثم كتم أنفاسه، وألصق أذنه بالباب.. ولما
لم يجد أحداً، فتح الباب ليترد القطط التى تراحمت
على صندوق الزبالة ثم ضرب الباب بعنف وراح
يتمشى فى البيت الضيق، ثم لَوَّح فى الهواء بيديه
يلعن أحداً أو يعلن ضعفه.. وفجأة يتجه إلى المطبخ
ويفتح الباب وذراعيه فقد جاءت المحبوبة.. إنها فتاة
سمراء واسعة العينين ممتلئة الشفتين.. ويحتضنها هو
لا يتوقف عن السؤال عنها وعن والدها وعن أسرتها..
ولماذا تأخرت هكذا؟ وإنه لم يستطع أن يقرأ ولا أن
يكتب.. ولا حتى استجاب لرنين التليفون.. وهى لا ترد؛
لأنها لا تستطيع أن تجيب عن كل هذه التساؤلات.. هو
يراها ينبوع الشباب.. وهى تراه نصف إله.



وفى اليوم التالى تجىء هذه الفتاة وتصعد السلالم وتلقى بورقة من تحت الباب.. تعتذر عن الدخول.. وبعد ذلك بيوم تعود تدق الباب الأمامى فلا يفتح.. فتنجبه إلى سلم الخدم وتدق باب المطبخ ثم تلقى بورقة من تحت الباب.. وتدق الباب وتبكي. ولكنه قد اعتصم بمكتبه واستند إلى عشرات الكتب واستبد به الغضب وعظم الاحتقار لها ولكل بنات جنسها.. ولنفسه إن كان هكذا يضعف أمام رغبات صبية صغيرة تهبط به من سماء الآلهة، إلى حظيرة الحيوانات الأدمية.

إنه الأستاذ العظيم عباس العقاد، إنه عظيم ولكنه بشر!

ولو رجعنا إلى كل أدباء ومفكرى وشعراء مصر فى هذا القرن فإننا لا نجد واحداً منهم قد اعترف بأنه أحب. أو ذكر اسمها أو هى أشاعت ذلك.. إلا الأستاذ العقاد. فقد تكفل أصدقاؤه وتلاميذه بذلك.. فأنا عندما كتبت «صالون العقاد» لم أشأ أن أتعرض بوضوح لغراميات العقاد. وإنما حاولت أن ألفت وأدور، احتراماً للمفكر الإسلامى العظيم عباس العقاد.. وأنا أعرف أكثر اللاتى اعترضن طريق الأستاذ، أو ترامين عند قدميه.. ولم أشأ أن أذكر بوضوح السيدة مديحة يسرى، ولكنها هى التى أعلنت أخيراً وصراحة أنها المقصودة من شعر العقاد وأنها كانت تتردد عليه وأنه هو الذى علمها كيف تقرأه وطه حسين.. إلى آخر الذى قالتها، ومن الطبيعى أن تضع نفسها فى حياة العقاد بالصورة التى ترضيها وترفع شأنها، وقد بالغت

كثيراً جداً. فالشعر الذى قاله العقاد عنها قليل، والذى قاله فى الهجوم عليها كثير وشنيع جداً..

وكان الأستاذ العقاد عصبى المزاج، يكفى أن أحداً يتخلف عن مواعده، ليثور عليه وكأنه ارتكب أعظم جريمة.. وفى غرفة نوم العقاد كانت لوحة بشعة رسمها الفنان الكبير صلاح طاهر وبها كل مشاعر الأستاذ العقاد للسيدة مديحة يسرى. وهذه قصة أخرى.

ولم يكن ذلك هو «الحب» الذى شغل العقاد وهز أعماقه ولكن كان الحب الذى أثار أعصابه.. والأستاذ العقاد أحب سيدة لبنانية وجعلها بطلته روايته الوحيدة «سارة» وهى ليست رواية بالمعنى التقليدى. أما مادتها فمن الممكن أن تكون رواية لكاتب آخر. فالعقاد أغرقها وأهلكها بالتحليلات النفسية. لكن هذه هى المحاولة الروائية الوحيدة..

ومشكلة العقاد فى الحب هى مشكلة آلهة الإغريق.. فآلهة الإغريق، كانوا يحقدون على البشر. إنهم يحبون ويتعذبون ويستمتعون بالحياة والخوف والأرق. أما الآلهة فهم لا يفعلون فلا يحبون ولا يكرهون ولا يثأرون. ولذلك إذا أرادوا أن يكون لهم ما للبشر، فهم يحولون أنفسهم إلى بشر.. ويحولون أنفسهم إلى حيوانات أيضاً.. ليستمتعوا بعواطف الإنسان وغرائز الحيوان. ومشكلة العقاد أنه لم يشأ أن يكون بشراً عادياً. ولا يحب.. وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجعل المحبوبة نصف إلهة.. لا يستطيع أن يرفعها إلى مستوى رأسه.. فكان ذلك هو عذابه الأكبر.. لا هو قادر على أن ينحنى، ولا هى قادرة على أن ترتفع. ولذلك فلم يصادف العقاد واحدة، ترضيه عقلياً ووجدانياً. ومن هنا كانت نظرتة إلى المرأة.. فهو يراها حيواناً ضيق الأفق أنانياً.. إنها لهذه الصفات هى سبب تعاسة العظماء..

على الرغم من أن الشعراء والأدباء فى زمن العقاد - أى من خمسين

عامًا - كانوا يعرفون ويحبون ويعشقون مالا عدد له من النساء، فإن
أحدًا لم يذكر ذلك صراحة.

بعض الشعراء نظم الكثير في زوجاته، حبهم الأول أو حبهم
الأخير. ولكن كانت لهم نساء أخريات.. فليس مألوفًا في أدبنا
الحديث، ولا في أخلاقياتنا، أن يتحدث أحد عن امرأة يحبها ففي ذلك
عيب عليه، وعار لها.. ولذلك سكت الرجال وسكت النساء أيضًا!

حتى ظهرت في الحياة الأدبية في مصر فتاة جاءت من فلسطين:
أبوها لبناني ماروني وأمها فلسطينية. إنها الآنسة مى زيادة (٥٥ سنة)
هذه الفتاة السمراء الجذابة هي التي أشعلت النار والغبار والدخان في
ليالى القاهرة. أبوها صحفى. وكانت تكتب بتسع لغات. أديبة مفكرة
شاعرة ثائرة معذبة أقصى وأقصى درجات العذاب. فقد كانت إنسانًا
غريبًا في القاهرة في أوائل هذا القرن. لها صالون أدبى. وفي الصالون
يلتقى كل أدباء مصر: العقاد وطه حسين وإسماعيل صبرى وولى الدين
يكن ولطفى السيد ومنصور فهمى وسلامة موسى وخليل مطران
ومصطفى عبدالرازق ومصطفى صادق الرافعى. وهؤلاء الكبار ليس
بينهم حب ولا ود. بل إنهم لا يحبون أن يكونوا معًا في مكان واحد.

ولكن من أجل «مى» التقى كل الأضداد. ولا أعرف كيف كانت هي
تلتقى بكل هؤلاء المفكرين. ولا كيف كانت توزع الاهتمام والاحترام
والمودة بينهم بالعدل. ولا أعرف كيف كانت ترد على رسائلهم التي
تكشف عن غضبهم، لأنها أبدت اهتمامًا بواحد أكثر من الآخر.. وكانت
مى تضحك: إنهم أطفال كبار!

أما رسائل العقاد لها ورسائلها إليه، وعندى الكثير منها، فهي
نوع من «المشى على الحبل».. فالعقاد شديد الاحتراس فيما يكتب.
لأنه يعلم أن رسائله سوف تكون فى أيدي الآخرين. فهي، مثل كل

امرأة أخرى، ولا تحفظ سرًا.. ورسائل مى إلى الأستاذ العقاد فيها تحفظ شديد.. وأحيانًا لا تستطيع أن تضبط عواطفها، وهى تنبئه إلى أنها تود أن تقول أكثر، وأن تكون أقرب.. ولكن.. هو يعرف ما الذى تقصده.. واحتفظ الأستاذ العقاد برسائلها إليه.. ثم أمر بحرقها. إما غضبًا منها، وإما احترامًا لها وكرمانًا لسرها.. وإن كانت بعض هذه الرسائل لا تدل على أنها «أحبت» العقاد.. ولا أن العقاد «أحبها».. وإن كان الأستاذ العقاد قد اعترف بأنه أحبها. ولكن «مى» أصبحت غير قادرة على أن تستجيب لهذا الحب.. فقد كانت تكبر الأستاذ العقاد بثلاث سنوات، فقد ولدت فى مدينة الناصرة سنة ١٨٨٦.

وعندما أعيد قراءة رسائله التى بعث بها إليها أجد أن الأستاذ العقاد تمنى أن يكون بينهما حب.. ولكنه لا يعرف على التحديد من هو الأديب الذى تحبه أكثر، أو من الذى تستريح إليه.. ولكنه يستبعد أن تكون قد أحبت مسيحيًا مثلها، فهى شديدة التدين..

رجل واحد كانت الأنسة مى تضيق به ولا تحب أن تراه ولا أن تسمعه. إنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى. فهو ثقیل السمع، وهو يجىء إليها من طنطا. ثم إنه شاع أنها تحبه، وأنه هو حبها الوحيد.. وكتب كثيرًا جدًا عن هذه العلاقة.. كتب أجمل ما قرأنا فى الأدب العربى الحديث.. كتب الذى أحس به والذى تخيله. ولكن الذى كتبه شىء جميل جدًا: السحاب الأحمر وأوراق الورد.. ورسائل الأحزان.. ونظم شعراً فى حبها.. أو من خيالاته فى عالم الحب. وليس لهذا الحب من واقع إلا فى كتب الفنان مصطفى صادق الرافعى. كانت مى لا تحب هذا التجريح والتعريض بها! إن «مى زيادة» كشفت الحياة الاجتماعية والأدبية فى مصر فقد كانت أشجع بنات جنسها، خطيبة ثائرة من أجل حرية المرأة، الحرية التى لا تجدها هى، وحق المرأة فى تقرير مصيرها، وهو ما لم تستطع

هى أن تفعله.. ومن أجل أن تختار المرأة الرجل الذى يملأ قلبها وعقلها، ولم تستطع هى أن تختار أحداً..

والصالون الأدبى لم يكن معروفاً ولا مألوفاً فى ذلك الوقت. وإنما هى نقلت هذا اللقاء الأسبوعى من أوروبا.. ولم يسجل لنا أحد كيف كان هذا الصالون وماذا يقال فيه.. من يقول.. وكيف هى تعلق على ذلك.. وكيف ينتهى الخلاف بين العقاد وطه حسين أو بين طه حسين ولطفى السيد أو بين منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وسلامة موسى؟ كيف استطاعت «مى» أن تروض هذه الوحوش الأدبية وأن تحتفظ بهذا «السيرك» العقلى عشرين عاماً..

وكأن هؤلاء الأدباء لم يكتفوا بتعذيبها بل تأمروا أيضاً على قتلها فلم يكتب أحد عنها، ولا عن هذه الندوة الأدبية.. فكأن علاقتهم بالأدبية مى زيادة، علاقة مشروطة. إن هى كانت لواحد منهم، كتب عنها، وأقام لها كوفاً فى التاريخ إلى جوار قلعتة الأدبية.. إذن هى «مؤامرة صمت» - لا أحد يكتب عنها - لأنها كانت لكل واحد فيهم. فكان عدم تفضيله لواحد على واحد، إهانة عنيفة لكل أديب ومفكر. فكل منهم يرى أنه الأديب وأنه المفكر. وأنه لا يقبل منافسة أحد. ولأنها لم تحب منهم، وكان معنى ذلك أنها تراهم جميعاً سواء. يستحقون المنافسة. فليست لأحد منهم مزايا تجعله إلهاً، وتجعل الآخرين بشرًا، أو تجعله بشرًا والآخرين كلابًا!

إذن لم يكن مألوفاً فى أدبنا المعاصر أن يتحدث العاشق.. وإن تحدث فدون أن يذكر اسماً ولا رسماً ولا جسمًا.. ولكن أنه أحب..

ولم يعرف أحد إن كان صحيحاً أن الشاعر الغنائى أحمد رامى قد أحب أم كلثوم وأحبته.. ولا إن كان الشاعر كامل الشناوى قد أحب نجاة الصغيرة وحدها.. فقد أحب، أو تخيل، أنه أحب المطربتين فاييزة أحمد ونور الهدى. ولكن كامل الشناوى هو الذى جعلنا لا نصدق

محبًا أو كارهًا. فكل مشاعره يغلفها بالنكت. فهو، كما يشنع بالآخرين، ففي مقدمة الآخرين: كامل الشناوى. فهو أكثر الناس تشنيعًا وتشهيرًا بنفسه. وأكثر شعر الغضب الذى نظمه كامل الشناوى كان عن «نجاة الصغيرة» ولم يكن غضبه عليها، بقدر غضبه على الآخرين حولها، أو بينه وبينها فى الطريق إليها..

والشاعر عبدالرحمن صدقى نظم شعرًا كثيرًا وطويلاً فى زوجته الأولى.. وكان هذا الشعر أقرب إلى هجاء زوجته الثانية الإيطالية، التى لا تقرأ ما كتب ولا يهتمها إن قال شعرًا أو لم يقل.

ولم نعرف إلا أخيرًا جدًا من هو ذلك الرجل الذى كان قريبًا جدًا وبعيدًا جدًا. من ذلك المهاجر المهجور، من ذلك الذى يدور حول الأرض، ويدور حولها.. ومن ذلك الذى إذا رأى الشمس قال: يا مى.. وإذا رأى القمر قال: يا مى.. وإذا مرض أحس أن كل مرض له شفاء إلا حبها..

كان يكبرها بثلاث سنوات، ومات قبلها بعشر سنوات. فقالت مى: عندما مات أبى وأمى فقد مات نصفى، وعندما مات هو انتهيت! إنه المفكر اللبناني جبران خليل جبران.

وفى العام الماضى ظهر كتاب بالإنجليزية عنوانه «الشعلة الزرقاء» الرسالة الغرامية بين جبران خليل ومى زيادة». وفى الكتاب صور لرسائل باللغة العربية.. وصور لكل ورقة يجدها ويكتب عليها خواطره وأشواقه وأحزانه.. ويطلب إلى مى أن تلقى بها فى المدفأة لعلها تضيف نارًا إلى النار، أو لونا فى لوحة الشتاء!

لقد عاشت «مى زيادة» فراشة وحيدة فى بيتها تدور حولها مشاعل الفكر والأدب المصرى تلسعها وتحرقها وتتركها تتعذب.. حتى انهارت ودخلت مستشفى الأمراض العقلية فى بيروت.. وجاء الجنون يحمل عنها كل هذه الأعباء ويوفر عليها قراءة ألوف الرسائل تبكيها وترثيها.. فقد غابت عن العقل، وغاب عنها العقل أيضًا.

وصفت «مى» نفسها فى رسالة إلى صديقة لها فقالت: استحضرى
فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندى كما يقول الشعراء، أو كالمسك
كما يقول مجنون ليلى، وضعى عليه طابعًا سحابيًا من الوجد
والشوق والذهول والجوع الفكرى الذى لا يكتفى والعطش الروحى
الذى لا يرتوى، يرافق أولئك جميعًا استعداد كبير للطرب والسرور،
واستعداد أكبر للشجن والألم، وأطلقى على هذا المجموع اسم «مى»
ترى من يتحدث إليك الآن.

قال العقاد يرثيها:

شيم «غر» رضيات عذاب
وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب
وجمال قدسى لا يعاب
كل هذا فى التراب آه من هذا التراب!

وقال الشاعر شفيق معلوف:

بنت الجبال ربيبة الهرم
هيهات يجهل اسمها حى
لم نلف سحرًا سال من قلم
إلا هتفنا: هذه مى!

وقال خليل مطران:

أقفر البيت أين ناديك يا مى
إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا
فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق فيه البحوث ضرويا
ويدار الحديث فيه شجوننا

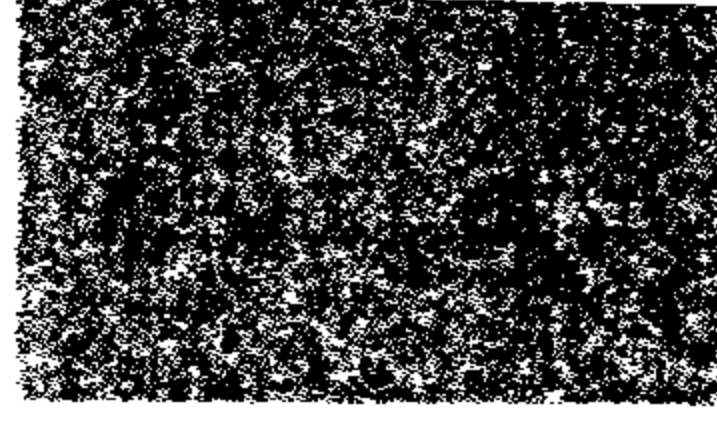
ونعيب القلوب وهى غراث
من ثمار العقول ما يشتهونا

وقال العقاد:

سائلوا النخبة من رهط الندى
أين «مى» هل علمتم أين «مى»؟
الحديث الحلو واللحن الشجى
والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكباه؟ أين غاب؟

وقال إسماعيل صبرى:

روحى على دور بعض الحى حائمة
كظامىء الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء
وفى الآداب العالمية أدبيات عشقن الأدباء والفنانين - ولكن فى
غير عفة.. أى فى غير عذاب.
كانت أديبة فرنسا جورج صاند أحببت وأحبها الشاعر الفرند
بميسيه والموسيقار البولندى شويان.
وكانت «سالومى» - قد أحبها عالم النفس فرويد والفيلسوف
نيتشه والشاعر ريلكه.. فكانوا عشاقا، وكانت عشيقة.
وكثيرات فى كل العصور..
إلا «مى» فكانت لعصر كامل.. ولم تكن لأحد.. ولم يكن لها أحد..
كانوا قريبين جدًا، وكانت بعيدة جدًا..
عاشت فى خيالهم، فلما ماتت كانت وحدها!



ما هذا الطوق في عنق الحمامة؟

مفاجأة القرن العاشر الميلادي أن يؤلف شيخ إمام
فقيه شاعر كتابًا عن « الحب ». وهو الكتاب الوحيد في
التاريخ من تأليف أحد رجال الدين.. وهو الكتاب
الوحيد في كل اللغات في ذلك القرن.. والمؤلف هو ابن
حزم الأندلسي. كتبه وهو في الثلاثين من عمره.
يتحدث فيه عن معنى الحب وأسبابه وأعراضه ورأى
الناس.. وماذا يفعل المحب لكي ينجح وما الذي
يجعله يفشل. ومن هو الهاجر والعادل وما هي الإذاعة
والسفارة والبين والضمنى ثم إن الحب ليس حرامًا ما
دام المحب عفيفًا كتومًا. لاجاء في كتاب ولا سنة أن
الحب خطيئة. ويقول ابن حزم: أريحوا النفس فإنها
تصدأ كما يصدأ الحديد.



أما الكتاب الذى ألفه ابن حزم الأندلسى، الوزير ابن الوزير والذى دخل السجن وخرج ودخله لأسباب سياسية فهو «طوق الحمامة».. ولكن عذاب السجن وهوان السياسة لم يتركاً أثراً على قلمه. فقد رأى أن الحب ضرورة. بل هو حياة. ومهما غضب الناس من الفقيه المؤرخ الشريف النظيف، فإنه حريص على أن يقرأ الناس ما كتب. وما دام قد قال الحق فى الحب والدين والمذاهب الدينية، فلا يهم. وقد أحرق الناس كتبه وخاف منه الحكام. ويقال إنه ألف ٤٠٠ كتاب. ولم يصلنا إلا القليل منها.

ولم يذكر لنا ابن حزم الأندلسى معنى «طوق الحمامة». أى الطوق فى عنق الحمامة.. ولكنه لا بد أنه اختار الحمامة لوداعتها، أو لعله اختار الحمامة ذات الطوق. أو الحمامة المطوقة. ففى الحب يجب أن يختار المحب «سفيرا». أى من ينوب عنه فى إبلاغ فتاته وأخباره إلى المحبوبة فلا يختار شخصاً غيبياً، ولا يختار عجوزاً مخرفة. وكان من عادة المحبين أن يبعثوا بالخياطة والبلاغة والحجامة. أى التى تعطى الحقن. فاختيار السفير مهم فى الحب ففى يديه وخياله وذاكرته وأخلاقه حياة الحب وموته. وكان بعض المحبين يضعون رسائلهم فى أجنحة الحمام الزاجل. ونوح عليه السلام عندما أراد أن يعرف إن كان الطوفان قد انحسر على الأرض فقد أرسل حمامة. يقول ابن حزم:

تخيرها نوح فما خاب ظنه
لديها، وجاء نحوه بالبشائر
سأودعها كتبى، فهاكها

رسائل تهدي في قوادم طائر

ولكن هناك نوعاً من الحمام اسمه «الحمامة المطوقة» ويقال «اليمامة المطوقة» أيضاً.. هذا الطائر ياباني الأصل عثر عليه المكتشفون في جزيرة هوتشو في اليابان في القرن الثامن عشر. وانتشر هذا الطائر بسرعة من اليابان حتى وصل إلى إنجلترا من سبعين عاماً فقط. ووصل إلى المجر سنة ١٩٣٠ وإلى الدانمرك سنة ١٩٤٨. وهو طائر رمادي بني اللون وله جسم رمادي أزرق فاتح.. وريش الجناحين أسود: والذكر ينام على البيض نهاراً والأنثى تنام ليلاً. وقد لاحظ العلماء أن الذكر يغالط الأنثى فينام على البيض ست ساعات فقط!!

وصوت هذا الحمام من ثلاثة مقاطع، أما معنى هذه المقاطع الثلاثة فله تفسير في الأساطير الإغريقية: يقال إن سيدة كانت تعذب خادمة لها فتعطيها ١٨ قرشاً في العام. فراحت الخادمة تبكي وتصلى للآلهة أن ترحمها من هذه السيدة البخيلة. فاستجاب كبير الآلهة زيوس لدعاء هذه الخادمة المسكينة. وقرر أن يفضح العجوز فخلق هذا الطائر وجعل في عنقه لونا أسود كأنه الطوق.

ثم جعل صوته: ديكاً - أوكتو.. وهما كلمتان يونانيتان معناهما: ٨ و ١٠.. فهذه الحمامة تعلن في الدنيا بهذا الشكل الجميل والريش البديع فضيحة الـ ١٨ قرشاً التي تدفعها عجوز بخيلة لفتاة مسكينة! واختار ابن حزم «طوق الحمامة» أي هذه العلامة الزرقاء القائمة في عنقها الرقيق الرمادي البني للدلالة على أنها هذا الرسول أو السفير المخلص ينقل رسائل المحبين في أمان وكرمان.. وهذا الطوق أو هذه العلامة، دليل على ذلك.. وهذه الحمامة تختلف عن كل الطيور، كما يختلف السفير المخلص والرسول الأمين عن كل الذين يفضحون أسرار المحبين..

ولم يكتشف المستشرقون كتاب «طوق الحمامة» إلا في أوائل هذا القرن. وكان مفاجأة أدبية كيف: شيخ فقيه عارف بالله يتحدث عن الحب!

وقد أحب مصطفى صادق الرافعي، وهو المفكر الإسلامي، وأحب الأستاذ العقاد وهو المتفلسف الإسلامي.. وقد اندهش قراء مجلة «الثقافة» عندما كتب الأستاذ أحمد أمين، وهو العالم الإسلامي، أن سيدة كانت تعلمه اللغة الفرنسية فقال لها يوماً: إن عينيك تعجبني! فهاج وماج القراء: كيف أن رجلاً شيخاً عالماً إسلامياً يقول ذلك.. مع أنه لم يزد على الإعجاب بعيني هذه المدرسة الفرنسية! والشاعر القديم يقول مستجيراً بالله وحائراً في حكمته:

خلقت الجمال لنا فتنة

وقلت: يا عبادى اتقون!

وأنت جميل تحب الجمال

فكيف عبادك لا يعشقون؟!

وقد جعل الشيخ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم كتابه المشهور «طوق الحمامة» في الإلفة والآلاف في ثلاثين فصلاً. وقد ألفه وأهداه إلى أحد أصدقائه. وقد استمد كل ما فيه من وقائع وأحداث من حياة الناس حوله. ولم يشأ أن يذكر أسماءهم. لأن أسماء المحبين عورة. وابن حزم قد فتح عينيه على النساء في بيته، هن اللاتي علمنه القراءة والقرآن.. وقد سمع إليهن طويلاً وكثيراً. وتعلم منهن حب الاستطلاع والفضول. ولكنه عاش ومات عفيفاً. ثم رأى ولاحظ وسجل وفكر وحلل. وكان لا بد أن يكتب.. وكتب ناصحاً أميناً «لأنه لا بد أن يحب، ولا بد أن يتعذب» والذي يحب ويعذب يخيل إليه أنه وحده في هذه الدنيا.

وأنه قد وقع فى بئر لا خروج منها.. فكان هذا الكتاب مثل حبل تدلى إلى غريق.

يقول ابن حزم: الحب أوله هزل وآخره جد.
وليس الحب حراماً فقد أحب الخلفاء والأمراء والملوك وشيوخ كثيرون.. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وعلامات الحب: إدمان النظر إلى المحبوب. ومتابعة المحبوب أينما ذهب. فالعين تمشى وراء المحبوب.. كما تقتلون الحرياء بلون الشمس. والذي يحب يتحدث كثيراً عن الحب والمحبوب. ويستريح إلى المكان الذى يجلس فيه. ويجلس بالقرب منه. وينبهر عندما يراه. ويدق قلبه عندما يقترب منه. أو عند سماع صوته. أو سماع اسمه فجأة. والحب يجعل المؤمن يكفر، والكافر يؤمن. والمحـب كما يقول ابن حزم أيضاً يجعلك تشرب ما تبقى من كوب المحبوب. ويجعلك تضحك وتبكي بسرعة ولأتفه الأسباب.. ألسـت مضطرباً؟

ومن الممكن أن تحب أحداً قبل أن تراه. تسمع عنه. وتكون المسافة كبيرة بين الصورة التى رسمتها له، وصورته هو.. فإما أن يكون الواقع صدمة تلقى بك إلى الـوراء، أو صدمة ترمى بك عند قدميه..

وهذا النوع من الحب هو حب ربات القصور - أى الفتيات اللاتى يخرجن ولا يرين أحداً. وإنما يسمعن عن الدنيا . والمرأة تحب على السماع، ويكون حبها أقوى وأعمق، والرجال يكون حبهم على السماع ضعيفاً. فالمرأة مخلصـة لما تسمع، أكثر من إخلاصها لما ترى.

وهناك الحب من أول نظرة: ترى الفتاة الجميلة.. وتكون النظرة الأولى هى الأخيرة. ففى لحظة واحدة تستولى عليك الفتاة الجميلة

وتجردك من سلاحك. إنها «الحرب الخاطفة» - بلغة العصر - التى تستولى فيها على كل قدراتك من الضربة الأولى!

يروى لنا ابن حزم قصة قاض عظيم رأى فتاة فى السوق، فطار عقله ومشى وراءها. وأحست به الفتاة فكان هذا الحوار الرقيق الساخن كأنه فى أحد الأفلام الحديثة..

قالت له: لماذا تمشى ورائى؟

قال: جمالك!

قالت: لا تفضحنى!

قال: بل أنت فضحتنى!

قالت: ماذا تريد؟

قال: أراك!

قالت: هذا مباح!

قال: حرة أو مملوكة؟

قالت: مملوكة!

قال: اسمك؟

قالت: خلوة!

قال: ومن الذى يملكك؟

قالت: السماء أقرب لك!

قال: متى أراك؟

قالت: فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع.

قال: أين؟

قالت: فى نفس المكان!

وظل القاضى يذهب إلى نفس المكان فى نفس الوقت حتى مات ولم يرها! والذى يحب من أول نظرة ليس عنده وقت ولا عنده صبر.

إنه يسلم سلاحه من أول موقعة.. ويريح نفسه من عناء البحث، وعذاب الانتظار!

ولكن هناك حباً آخر: الحب بعد المطاولة. أى الحب من ألف نظرة. ويرى ابن حزم أن هذا الحب يدوم، فالذى يدخل القلب بصعوبة يخرج منه بصعوبة أيضاً. ويقول: وما دخل عسيراً، لا يخرج يسيراً. فلا بد أن يتمكن الحب - أى يكون له مكان ثابت فى أعماق القلب. وهكذا يطول مثل عمر الحياة.

والذى يحب، يحب كل صفات المحبوب. فالذى أحب فتاة قصيرة أو سمراء أو بدينة، فإنه لا يحب إلا هذه الصفة فى كل النساء.. أى أن القلب له حب واحد. فأنت إذا أحببت فتاة لها صفات معينة، وابتعدت عنها لسبب ما، فإنك تبحث عن هذه الصفات فى كل الفتيات. أى أن لديك نسخة واحدة من المحبوبة تريد أن تجد شبيهة لها بين كل الفتيات. وإذا أنت أحببت فإنك تحاول أن تكون على صلة بالمحبوبة.. فتبعث إليها بالرسائل أو الرسل، فإذا بعثت إليها خطاباً - هذا عصر ما قبل التليفون - فليكن من ورق جيد أنيق.. فالعاشق عندما يتسلم الخطاب يضعه على القلب وعلى خده وعلى شفتيه وفى حضنه..

ويسخر ابن حزم من العشاق الذين يكتبون رسائلهم بدمهم.. وقال إنه رأى خطاباً من هذا النوع، فلم يجد فرقاً بين لون الدم ولون الحبر الأحمر. ولكن العبرة بإحساس العشاق والمعشوق بما يكتب وبما يفعل من أجل المحبوب!

ومن صفات المحب: الكتمان. فإن كتمان الحب، مثل أن تطبق يدك على النار. إنها تحرقك. ولكن لا بد أن تدارى حبك عن عيون الناس حماية لك ولمن تحب. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: من أحب فكتم فعفّ مات شهيداً.

وهو يلعن «الإذاعة» - أى نشر أخبار المحبوب.. أى ينشرها المحب أو تنشرها المحبوبة. فإن الإذاعة يكون سببها أن يتباهى الإنسان بأنه يحب، وأنه مغلوب على أمره، وأنه لم يقو على الكتمان. فقد فضحه الحب. كما تفضحه الحمى.

وهناك الذين ينظرون من بعيد: العازل والرقيب والواشى.. وأروع ما فى الحب: الوصل.. أن تجد المحبوب وأن يجداك. وأن تلمسه وأن يلمسك. يقول ابن حزم: «وهو حظ رفيع ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المتجددة والسرور الدائم ورحمة الله عظيمة.. ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا: إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه والفرح الذى لا شائبة له ولا حزن معه وكمال الأمانى ومنتهى الأراجى...».

وهناك: الهجر.. أى أن يهجر المحب حبيبه ومن أسباب الهجر: الملل.. فيضيق المحبوب والمحبوبة.. ويشعر الواحد منهما أنه ليس لديهما ما يقال، ولا عندهما جديد..

وهناك: السلوى.. أى عندما يحاول العاشق أن يتسلى بعيداً عن المحبوب.. وعندما يحاول أن ينسى.. ويحاول أن يستغرقه شىء آخر.. وقد يقتنع العاشق بأى شىء يذكره بالمحبوب.. فيتخيل حواراً بينهما.. ويقبل ورقة بعث بها.. أو منديلاً.. أو خصلة شعر. ويقول: إنه رأى عاشقاً ضربه المحبوب بسكين، فأخذ يقبل مكان الجرح.

يقول ابن حزم إن هذا المحبوب لم يضربه أحد بسكين، وإنما الدم فى عروقه قد أحس بقرب المحبوب فخرج لتحيته. يقول:

يقولون شجك من همت فيه

فقلت لعمرى ما شجنى

ولكن أحس دمي بقربه

فطار إليه ولم ينتن!

أما الفتاة التي أحبها ابن حزم فيصفها هكذا: جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عامًا وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائها عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسيلة الستر، فقيدة الزام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الأعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، وجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها. تزدان في المنع والبخل، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل.. أحببتها حبًا مفرطًا شديدًا، فسعيت عامين أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر، فما وصلت من ذلك إلى شيء..».

ثم يروى كيف يطاردها وهي وراء ستار.. يقترب منها.. لعله يسمعها.. لعله يلمسها.. ولم تشعر الجاريات بكل ذلك.. إلى هذه الدرجة كان حريصًا وكان قادرًا على إخفاء مشاعره.. يقول لها:

منعت جمال وجهك مقلتيًا

ولفظك قد ضننت به عليا

أراك نذرت للرحمن صوما

فلمست تكلمين اليوم حيا

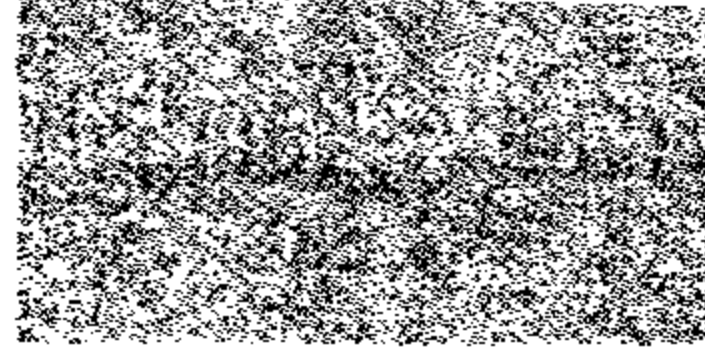
ثم رآها بعد ستة أعوام: «وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة، وغاص ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصده نحوه. فلم يبق إلا البعض

المنبىء عن الكل.. المبنى على الكل.. والنساء رياض متى لم تتعاهد
ذبلت.

ولو حاول أحد أن يحقق كل هذه الصفات فى محبوبة ابن حزم،
لوجد فى ذلك صعوبة.. بل استحالة. وهكذا رآها أول مرة، وآخر مرة..
وهو يجد لها العذر.. فقد كانت تعيش فى بيت الوزير.. ثم مال عليه
الزمن، فباع جواريه.. وتعذبت الجوارى فى كل بيت وكل شارع..
فمسح الزمان جمالهن وشبابهن.. وتعترت هذه الجارية التى جن بها
ابن حزم، من كل جمال ودلال وصارت إلى هذه الهيئة الأليمة، التى
أفزعته عليها..

ولا يعتذر ابن حزم لأحد من الناس أو المؤرخين على هذا الذى
كتبه عن الحب والمحبين والعشق والعشاق. ويرى أنه قال الحق. وهذا
يكفى. وهذه هى أمانة الباحث وهو يطلب إلى الناس ألا يسيئوا الظن
به. فيقولون «لقد خالف طريقته وتجافى عن وجهته» - أى أنه كان
رجل دين، فإذا هو رجل دنيا.. وأنه كان وقورًا، فإذا به رجل هازل..
يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن، فإنه
أكذب الكذب». ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت».

ويرى ابن حزم الذى يؤمن بالله واليوم الآخر، أنه قال خيرًا!



لآخر دمة في عينيه وقطرة من دما

من أشهر الصور الكاريكاتورية في نهاية القرن
الماضي: عربة يجرها ثلاثة من الرجال وعلى العربة
امرأة جميلة تكويهم بالسياط أما الثلاثة فهم:
الفيلسوف نيتشه والعالم النفسى فرويد والشاعر
ريلكه. أما السيدة فهي الأديبة الغازية الغاوية
الطاغية سالومي.

وهي صورة لعجز ثلاثة من العباقرة على أن يفوز
أحد بقلب أو جسد هذه الأديبة المتوسطة القيمة.
البارعة الجمال الخارقة الذكاء. فلم تجد مفراً من أن
تجعل منهم خيولاً أو حميراً يجرون عربتها وتلسعهم
بالكرياج. فلم يفلح أحد أن يفوز بها..



أما نيتشه فيلسوف القوة، فيلسوف الرجل الذى يحتقر المرأة، وفيلسوف الشعب الآرى الذى يحتقر اليهود وكل الساميين - وهى يهودية - فقد طاردها فى أوروبا وطردته..

وعالم النفس فرويد الذى يعرف كل خبايا النفس واليهودى مثلها، فلم يستطع أن يذهب إلى أبعد من أن يعلمها كيف تحلل نفسها وغيرها.. ولما حللته هو صارحته بأنه يريد جسمها، وليس صحيحاً أنه يحبها. فطبقاً لتعاليمه النفسية. وهى ليست فى حاجة إلى جنس فعندها زوجها وآخرون..

أما الشاعر العظيم ريلكه فهو أحسن من يقرأ الشعر ويرويه ويذيب العيون والقلوب عند سماعه. وقد رأت فيه سالومى أحسن رجل تقابله قبل لقاء رجل آخر.. فهو يقوم بدور جهاز التكييف لغرف النوم، يجعلها أدفاً كأنها حضان لذيذ، وبعد ذلك عليه أن يبرح الغرفة لأنها على موعد مع عشيق تحبه..

فكان هؤلاء الثلاثة فاشلين فى الحب. ومن هذا الفشل تولدت أروع صرخاتهم فى الفلسفة وعلم النفس والشعر. فالتاريخ لا يذكر لهم إلا هذه الفضيحة. وأعظم العشاق هم الذين أحبوا وطردوا من فردوس السعادة. والحب الخالد هو الحب الفاشل. أما الذين أحبوا ونجحوا، فنحن لا نعرف عنهم شيئاً. فمن ينابيع الحرمان يولد الفن. والتمن: هو حياة الفنان وسعادته. والفنان مستعد أن يدفع ما هو أكثر من ذلك، إذا كان يساعده على أن يكون جميل العبارة، حلو الأداء، وأن يموت بعد ذلك غريقاً فى دموعه، حريقاً فى زفرائه.. فليس أقسى من الفشل فى الحب، إلا النسيان.. أى إلا أن ينساه الناس ويموت، دون أن يدري به أحد!

ولن تجد فى التاريخ نساء كثيرات تعذبُن مثلما تعذبت «مى زيادة» التى أحبها الجميع، ولم تحب أحداً.. فالتفوا حولها حبلاً ذهبياً وشنقوها.. وعلقوها فى السماء..

فالمرأة العاشقة أو المعشوقة فى الآداب الغربية أحسن حالاً؛ لأنها أكثر حرية، وأقدر على أن تقول: نعم. وتقول: لا.. أو تقول: نعم. ولا فى وقت واحد..

فمثل سالومى كثيرات..

ربما كانت أول وآخر امرأة عرفناها فى مصر هى كليوباترا (٦٩ - ٣٠ ق. م) ملكة مصر. كان لابد أن تتزوج رجلاً لتكون ملكة على مصر. فتزوجت أخاها بطليموس الثالث عشر. ولما مات تزوجت أخاها بطليموس الرابع عشر. وكان فى الثانية عشرة من عمره.. وعرفت عدداً كبيراً من قادة الحرب. وتزوجت يوليوس قيصر وأنجبت منه ولداً. وانتقلت إلى الحياة معه فى روما. ولم يكن لها وريث إلا ابنها المصرى. ووضع لها يوليوس قيصر تمثالاً فى معبد فينوس. وثار الشعب الرومانى على الملكة الأجنبية التى أنجبت وريثاً أجنبياً، والتى فرض عليهم أن يعبدوها، فقتلوه. وهربت إلى مصر. وقبل أن تصل إلى مياه الإسكندرية قررت أن تغزو قلب القائد الرومانى أنطونيوس.. فصبغت بالألوان الذهبية والفضية سفينتها.. وارتدت ملابسها العارية وتمايلت الأمواج مع الطبول والدفوف والبخور.. ودون مقاومة استسلم القائد الرومانى عشيقاً لملكة مصر. وأنجبت منه توأمين. وعاد أنطونيوس إلى روما وطلق زوجته ثم ارتد إلى كليوباترا. وأمام قائد آخر هربت كليوباترا وانتحر أنطونيوس بسيفه، وانتحرت كليوباترا بثعبانها فى كامل أناقتها وفتنتها.. كأنما أرادت بعد أن تموت أن تغزو الموت أيضاً!

ولم يعرف تاريخ مصر غير كليوباترا عاشقة للسلطة والشباب وعاشقة للأدباء والشعراء أيضاً. وكانت لها عبارة مشهورة تقول: كما أنه من الضروري أن يكون في غرفة نومك ورد وزهور، لتلقى بها في اليوم التالي في الزبالة، فذلك لا بد من الشعراء والموسيقيين.. أما الأبطال فهم أطول عمراً!

وعرفت فيينا، عاصمة الموسيقى والأدب والفن في القرن الماضي سيدة اسمها «ألما» شندلر.. كانت زوجة للموسيقار مالر.. ثم أحببت الرسام كوكشكا.. وعاشت معه ثم قابلت على رصيف محطة فيينا المهندس الكبير جروبيوس.. فخطفها وتزوجها بعيداً.. وكانت لهما ابنة، فلما بلغت الثامنة عشرة ماتت بشلل الأطفال فتبارى الرسّامون والموسيقيون في تخليدها.. ثم أحببت الأديب فرانس فرفل الذي سجل مأساة ابنتها في رواية «أغنية برنات» الذي ظهر على الشاشة وفاز بخمس جوائز أوسكار..

وعرفت «ألما» أكثر الأدباء والشعراء في عصرها.. وفي آخر أيامها جلست تكتب مذكراتها. وعلى الرغم من أنها صاحبة أسلوب جميل، فإن أحداً لم يقبل على قراءتها. فقد رأوا فيها «غانية» رخيصة.. عذبت عدداً من العباقرة لا لشيء: إلا لأنها دموية المزاج، وإلا لأنهم أرق حساً وأصدق تعبيراً عن مشاعرهم النبيلة.. فكانوا فراشات دارت وداخت حول نار محرقة!

فكان انصراف الناس عن مذكراتها عقاباً لها، وإن كان متأخراً! الحب والعفاريث - يتكلم عنها الناس ولكن أحداً لم يرها. هذه العبارة تصدق على عدد كبير جداً من الأدباء والشعراء والموسيقيين وعلماء النفس. أي أكثر الناس كلاماً عن الحب، وإثارة للحب. ولكن ليس معقولاً أن أحداً منهم لم يعرف الحب. من المؤكد أنه

عرفه. ولكن كان هو يعانيه قليلاً.. أى إنه لم ينجح فى الحب، وإنما كان عظيم الفشل، عميق الحرمان.. فلم يعرف إلا الجنس ومزیداً من الجنس.. مثلاً: الأديب الدانمركى هانس اندرسن (١٨٠٥ - ١٨٧٥) صاحب قصص الأطفال الجميلة المسئلة عن إمتاع وتربية مئات الملايين من الأطفال فى العالم. لم يعرف الجنس ولا الحب فى حياته. فهو يرى نفسه نصف مريض: لأن لديه رغبة، ولكن هذه الرغبة لم تحقق حتى الموت..

وقد ظن الناس أنه عندما يختفى يوم الأحد من كل أسبوع، أنه يذهب لموعد غرامى. ولم نعرف إلا بعد موته أنه كان على موعد مع كتابة خطاب غرامى لفتاة. هذه الفتاة وعدت نفسها وتوعدت هذا الأديب، بأن رسائله إذا بلغت الألف فسوف تلقى بها فى الزبالة. لماذا؟ تقول: إنه لم يذهب إلى ما بعد الخطابات بخطوة واحدة. هو عنده وقت للكتابة، ولا وقت ولا قدرة عنده على الحب. ولا قدرة لى على الصبر.. وعلى أن أعيش وأموت على الورق!

فتزوجت ساعى البريد!

أما ذلك العبقرى الحيوان الفرنسى بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) فهو أبو الرواية الفرنسية، فهو إنسان فى غاية الشراهة، فنفسه مفتوحة على كل طعام من كل لون: أشقر أبيض أسمر.. قصير طويل.. فقير غنى.. فالمرأة عنده: مائدة فخمة، شكلها يختلف بعد الأكل!

وكان يكره الفتيات الصغيرات. يفضل الناضجات.

وبدأت علاقاته بالنساء مع سيدة أكبر منه بعشرين عاماً، هى التى فتحت له الباب على دنيا الجنس، وليس الحب. وعندما تقدم لإحدى جميلات باريس رفضته. فقد نظرت إلى شعره المنكوش وكركشه المنفوخ وقالت: لا..

وكانت مثل صفقة على قفاه وعلى وجهه وعلى أدبه وشهرته..
وغرق في الديون، فراح يبحث عن المطلقات والأرامل الغنيات. وعرف
إيفلينا ووعده بالزواج منها بعد وفاة زوجها. وكانت تصفه بقوله:
إنه العسل والنار..

وسددت له ديونه. فأحب غيرها فتاة في الرابعة والعشرين من
عمرها. وأنجبت له طفلاً.

ولما مات زوج إيفلينا رفضت الزواج منه!.

ولما مات انهار بين ذراعي إيفلينا. وخرج من الحياة بهذه
الحكمة: من السهل أن تكون عاشقاً، من الصعب أن تكون زوجاً، لأنه
من الصعب أن تروى النكت وتكون ضاحكاً مضحكاً ٢٤ ساعة من
كل يوم!.

ولم يعرف التاريخ رجلاً تحدث بهذه الكثرة والعمق والجلال عن
الجنس والحب مثل المستشرق الإنجليزي ريتشارد برتون (١٨٢١ -
١٨٩٠)، الذي ترجم «ألف ليلة وليلة». ولم يكن رجلاً سوياً، ولا محباً
ولا عاشقاً، وإن كان محبوباً من كثيرات ومرفوضاً منهن بسرعة..
وقد عاش برتون في الشرق الأوسط وفي الشرق الأقصى وتعلم
عدداً كبيراً من اللغات من بينها العربية.. يقال عشرون لغة. وعرف
ورأى وعاش النساء من كل لون وكل سن.. وكان يهرب من مجالس
النساء إلى مجالس الرجال.. وكان حلو الحديث، كثير النكت
والقصص الجنسية العارية.. ولا يطربه إلا الكلام الذي يصدم
الأذواق الرقيقة. أحب فتاة هندية أحببت رجلاً آخر ثم تزوج. وتقول
زوجته إنه لم يكن لها يوماً واحداً. ولم تجده وحده أبداً.. فهناك أكثر
من واحد ومن واحدة في حياة «كاهن» الغرام والحب. ولكنه لم يذق
طعم الحب!.

أبو الرواية الإنجليزية تشارلز دكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) ونحن لم نعرف أن هذا الأديب الجاد والمصلح الاجتماعي العظيم كان عاشقاً إلا من الخطابات التي تركها وراءه. وأهم سيدة في حياته هي أخت زوجته. ويحكى لنا كيف أنه عاد في إحدى الليالي لسمع صرخات تمزق ظلام وسكون الليل. وأسرع إلى حيث غرفة «مارى» أخت زوجته. لقد أصابتها نوبة قلبية لتموت بين ذراعيه.. فينتقل خاتمها بين أصبعها إلى أصبعه، حتى الموت ولم ينس هذه الفتاة.. ثم أحب ممثلة في سن ابنته..

وقال إنه أحب الملكة فكتوريا.. فلما تزوجت قرر الانتحار. ولم يصدق أحد. ولكن كان يؤكد هذا الحب، حتى اتهمه الناس بالجنون.. أما حكمة حياته فهي: عن طريق الزواج سوف تعرف معنى المجتمع، ولكن ليس من أجل هذه المعلومات القليلة التافهة تعاني كل هذا العذاب!

وعبقري الرواية الروسي دستوفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١) كان يحب من المرأة قدميها.. وهو دائم النظر في قدمي المرأة. وكثيراً ما جاء في رواياته مثل هذه العبارة: وركع عند قدميها، وراح يقبلها ويضع أصابعها واحدة واحدة بين شفتيه.. وسعيد بذلك.. ويقول أيضاً: سامحيني.. أعطني قدمك الفاتنة أسكب عليها دموعي وأغسلها بعيني.. وأرتوى من أصابعك البللورية.. صدقيني، إن لم تكن هذه سعادتك، فهي أقصى درجات سعادتي.. لا تطردين من جنتك فالجنة تحت قدميك.. بل الجنة قدماك!

وحين بلغ الأربعين من عمره لم تكن له أية تجربة جنسية ولا حتى عرف الحب! وسبب ذلك كما يقول: انعدام الفرصة والثقة بالنفس..

ثم تزوج الكاتبة على الآلة وكان يكبرها بخمسة وعشرين عامًا،
وذلك بعد أن ماتت زوجته.

ولذلك لم يكن ألكسندر ديماس سوى «قوة جنسية»، وطاقة
شهوانية.. وليس إلا حيواناً أديباً.. ولكنه حيوان قبل أن يكون أديباً.
أما أمير الشعراء الألمان ونبي الرومانسية جيته (١٧٤٩ - ١٨٣٢)
فهو يرى أن الأدب يولد من التوتر.. يولد من الاحتكاك المستمر بين
عجلات السيارة وفراملها.. هذه السخونة.. هذه الشرارة هي التي
يتفجر منها الشعر. ولذلك يجب أن يكون الفنان في هذه الحالة
الساخنة، وإلا تجمد ومات.

أحب ابنة صاحب فندق. وكان يقول: أتمنى أن أشرب السم من
يدها!

وقال: نحن الذين نطرد أنفسنا من جنتنا. هي جنتي وأنا لا ألقى
بنفسي خارج أبواب بيتها الساحر!

ثم أحب سيدة متزوجة وأماً لثمانية أطفال ويعث لها بعشرين ألف
خطاب! ثم أحب عاملة في أحد المصانع وعاشت معه وكانت تحب
الموسيقى والرقص والشعر.

ثم تزوج فتاة أنقذته من الموت أثناء الحملة الفرنسية على
ألمانيا. وفتح الزواج شهيته على نساء أخريات.. ويقال إنه أحب
زوجة ابنه.

وعندما بلغ الرابعة والسبعين من عمره تقدم لسيدة تصغره
بعشرين عامًا، فرفضته. وقال ضاحكاً حزيناً صريحاً: معك حق. لقد
نسيت أن أنظر إلى وجهي في المرآة!

وهيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) أمير النثر والشعر في فرنسا فقد كان
شهوانياً، لا مثيل له، بعد أن تزوج وبعد ثمانى سنوات قررت زوجته

أن تستريح من هذه العلاقة بعد أن أجهضت عشرين مرة، وأحببت الزوجة الناقد العظيم سانت بيف. وانتهى هذا الزواج بهرب الزوجة.. فأحب إحدى الممثلات وكانت عشيقة لأكثر الممثلين والنقاد والمتفرجين أيضًا. ولكنها هي التي علّمته معنى أن يكون عاشقًا، وألا يكون محبًا وهي تقول: إن المرأة لا تستحق أن يحبها الرجل.. ولا الرجل يستحق أن تموت من أجله امرأة..

وظلت هذه الشراة الجنسية حتى موته فى سن الثالثة والثمانين. ويقال إن أحد أحفاده قد زاره وهو على فراش الموت. فلما دخل عليه الغرفة وجده يعانق خادمة أصغر منه بستين عامًا، فالتفت إليه هيجو قائلاً: هذا يا ولدى ما يسمونه بالعقرية!.

أما تولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠) أديب روسيا العظيم فقد جلس يبكى على الأرض أمام سرير أول غانية عرفها. ولم ينس ذلك اليوم طوال حياته.

يقول تولستوى: يجب أن تكون على مقربة من النساء ترى وتسمع وتفكر وتتعلّم، ولكن ابعد عنهن. ابعد عن هذا الشر قدر استطاعتك. خذها منى نصيحة مخلصه!

أحب خادمة.. وخادمة.. وثالثة ورابعة أنجب منها ولداً. وكان يقول أسعد الناس: رجل لا يحب الجنس وامرأة عفيفة لا تحب الجنس أيضًا.

وكان طاغية فى أسرته مع زوجته وأولاده. قالت زوجته إنها لم تعرف معه نعمة الحب أو لذة الجنس.. فهو فلاح غليظ جاف جلف - وإن كان رسول الحب بين الناس والسلام العالمى!

ولم يعرف الأدب الأوروبى الحديث شاعراً فى مثل رقة «ريلكه»

ذلك الألماني الذي ولد في تشيكوسلوفاكيا (١٨٧٥ - ١٩٢٦) وأنا قد عايشته دواوينه وقصصه ذات الفصل الواحد، إنه مزيج من الصوفية والعشق.. وكنت أستمع إلى شعره من أستاذين: عبد الرحمن بدوي وعبد الهادي أبوريدة يوم كنت طالباً. ولم أكن قادراً على قراءة شعره والاستمتاع به فلغته الألمانية صعبة. وصوره رمزية.. وتهاويمه الذهبية غامضة.. ولكن له موسيقى، وليس من الضروري أن تفهم الموسيقى ولا اللوحات.. أنت تستسلم لها فقط. وتستريح، دون أن تعرف ما هذا الذي أراحك.. لأنك لا تعرف كيف تصف طعم التفاح ولا طعم الطماطم.. ولا تعرف معنى رائحة الورد ولا خريف الماء ولا لون السماء عند الغروب والشروق. إنها جمال.. وهذا يكفي..

وعندما سافرت إلى سويسرا أقمت في فندق صغير في لوزان. وقد أقام الشاعر ريلكه في هذا الفندق في سنواته الأخيرة، ومات بالقرب منه. إنها صدفة. وصدفة أخرى هي التي عثرت بها على كتاب فوق سور الأزيكية عن «غراميات ريلكه» ووجدت في الكتاب صورة لفتاة مصرية جميلة جداً اسمها «نعمات علوى» أو نعمت علوى. وكتبت عن هذا الاكتشاف في مجلة «آخر ساعة» وتلقيت خطابات شتائم ومكالمات تليفونية تلعنني - لا بد أنهم أقارب هذه الجميلة المصرية التي كانت آخر حب للشاعر العظيم.

وصدفة أخرى أن يكون موت الشاعر بنفس الطريقة التي توفي بها الأديب «صلاح زهنى»، وكان صلاح زهنى صديقاً عزيزاً رقيقاً، وكان سكرتيراً لدار الأوبرا ومحرراً بآخر ساعة. وتشاء الصدفة أن يتقرر سفر صلاح زهنى إلى لندن مع صدور المقال. فطلبت تأجيله إلى ما بعد سفره. فقد دخلت شوكة وردة في إصبع الشاعر ريلكه، ليكتشف الأطباء أنه مصاب بالسرطان. شيء من ذلك اكتشفه الأطباء

عند صلاح ذهني. وفي الليل وفي كازينو الجلاء - الذي أقيم مكانه
فندق شيراتون القاهرة - قابلت صلاح ذهني، ليبدى إعجابه بالمقال
الذي تأجل!!!

وليقول لي ما أوجعني؛ تصور أنني سوف أموت تمامًا كما مات
الشاعر الألماني ولنفس السبب!.

يقول ريلكه: لا أجد لذة في الجنس وهي لا تجد لذة في الحب.. فأنا
تعيس إذا حاولت أحب، وهي تعيسة إذا حاولت أن تعشق!
وقد أعجب بمدرسة تكبره بثلاثة عشر عامًا، وهربا معًا.

وعرف الفاتنة الفاتكة سالومي، وكانت متزوجة، وأنجبت له ولدًا..
أما حكمة حياته فهي: لا بد أن تحب وأن تكون عاشقًا، ومن
الصعب أن تكون عاشقًا وأن تكون محبًا أيضًا. أما حياتي فهي
المستحيل الآخر. فهو ألا أحب واحدة وألا أعشقها.

شيء عجيب حقًا: إن دعاة الحب، لا يحبون.. الحب.. فإذا أحبوا
فشلوا، وإذا فشلوا كتبوا. وإذا كتبوا أبدعوا.

إن للموسيقين العباقرة قصة أخرى، إن لم تكن مطابقة تمامًا،
فهي مماثلة إلى آخر دمة في عيني العاشق، وآخر قطرة من دم
المحوبة!.



زينب والاحتقار العظيم !!

فى أحد شوارع باريس وعند منتصف الليل، والهواء بارد والرياح تكنس الناس وتلقى بهم فيتساندون على الجدران، شاهد المارة رجلاً يترنح يميناً وشمالاً.. ويرفع يديه ويتحدث إلى السماء، ثم يضع يده فى جيبه فلا يجد ورقة ويبحث عن قلم فلا يعثر عليه.. فيقف عند أحد الأبواب ويكتب بإصبعه.. ثم يعود إلى الشارع.. ويلتقى بإحدى البغايا فتقول له:

- تعال نقضى ليلة جميلة.

- لا أريد.

- ألسـت وحدك.. تعال.

- وحدى.. لكن لا أريد..

- إذن ما الذى ستعمله فى هذا الليل وفى هذه

الوحدة الشنيعة.

- إننى لست فى وحدة.. إننى أعمل.. إننى لا أسمع.

ولم يكن ذلك إلا الموسيقىـار الفرنسى بـيزيه.. وكان

من عادته أن يخرج فى الليل يفكر.. فلم يكن يهبط

عليه وحى النغم.. إلا وهو يمشى فى الشوارع.. وكانت

الفتاة التى يحبها تقول عنه: ذلك المجنون الرائع!



وكان الموسيقىار الروسى برودين يضيق بالهدوء والصمت.. ويكره صوت الريح، ويفزع من الجليد.. وكان لا يؤلف موسيقاه إلا فى محطات السكك الحديدية.. وكانت مواعيده الغرامية فى القطارات.. وكانت نشوته عظيمة عندما يسمع القطار ينفخ وينفث ويهدر ويزمجر ثم ينطلق بعيداً.. وكان يحفظ جداول القطارات.. ويقول: لقد تأخر القطار دقيقة عن مواعده.

وكان يسعده أن يأتى بالفتاة التى يحبها ويطلب إليها أن تقف فى دخان القطار، ثم يراها بعد أن غطى الهباب وجهها! ولم نعرف فى تاريخ الموسيقى حباً كبيراً وإنما عشرات من قصص الحب للموسيقار الواحد.. كأنه من الصعب أن يجمع الموسيقىار بين الحب والموسيقى. فإما متعة الحب، وإما روعة الموسيقى.. فكأنه مكتوب على جبين كل موسيقار عظيم أن يكون معذباً.. وأن يتعذب هو، وأن تتعذب كل من تعرفه. فليس بين كبار الموسيقىين واحد لا تقع فى غرامه عشرات الفتيات.. أو يقع هو فى غرام مئات الفتيات. ولكن العبقرية الموسيقية تطرد الفتيات.. وتقصف عمر الحب.

وكل قصص كبار الموسيقىين هى كوارث عاطفية. وأكثر العظماء تعاسة هو عبقرى الموسيقى بيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧). فهذا العظيم عرف عشرات الفتيات والسيدات، العاملات والنبيلات. ولكنه لم يحب واحدة. فهو يمشى وراء الفتيات الجميلات. والفتيات ينظرن إلى رأسه وشعره المهيّب ثم لا يذهبن إلى أبعد من ذلك.. ففى عينيه الحادقتين شىء يخيف.

أحب الياشورة (١٢ سنة) وكانت تقرأ له شعراً وتغنيه أيضاً. وكان فى الرابعة عشرة من عمره. وكتب فى مذكراته: لو انتظرتنى مائة عام فسوف أتزوجها!

وتقدم لفتاة اسمها ماجدوليننا وتوسل إليها أن تتزوجه فرفضته قائلة: ذلك القبيح المجنون! مستحيل.

وجوليتيا التى أهداها عمله الجميل «سوناتا ضوء القمر»، ولكنها وصفته بقولها: ليس قبل أن يستحم ألف مرة أستطيع أن أقبله!!

وأحب سيدة اسمها مدام بيجوت. وكانت جميلة فاتنة. فبعث إلى زوجها يقول: لو قبلتها فى اليوم الواحد ألف مرة وعانقتها ألف ألف، فلا لوم عليك.. فمثل هذا الجمال خلقه الله لتموت فيه ومن أجله!

وفى سنة ١٨٠٥ توقف الموسيقار العظيم عند قرية فى ضواحي فيينا. وفى هذه القرية وجد ليزا.. كان يرى فيها جمال الكون كله.. فى عينيها فى شفيتها فى نهديها.. فإذا رآها ظل واقفاً جامداً ينظر إليها ساعة.. وساعتين.. أما ليزا فتقول: جاء مجنون فيينا!

وقد حاول أصدقاؤه أن يفتحوا عينيها ليرى ليزا أوضح. ولكنهم لم يستطيعوا فهى فلاحه تقف على كوم الزبالة وتسويه مرة بالفأس ومرة بالمقشة.. ولكنه لم يكن يرى ذلك. وفى يوم علم أن أباه كان مخموراً فحطم الأنية فى أحد الكباريهات. فأدخلوه السجن، فارتدى أحسن ملابس وذهب إلى المحكمة وطلب من القاضى أن يفرج عن هذا الرجل المسكين. فما كان من القاضى إلا أن طرده؛ لأن فى هذا الطلب اعتداء على القانون.

وخرج بيتهوفن غاضباً، ولم يعد يرى ليزا تلك التى وصفها بقوله: «ذات البهاء والفتنة الخالدة وهى تمشى فوق سقف الدنيا!» وكان ذلك رأيه حتى مات.

أما الموسيقار هكتور برليوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩) فقد أحب فتاة اسمها أستيل (١٩ عامًا) وكانت تكبره بست سنوات.. وظلت أستيل هذه حبه الوحيد.. وكان يضايق النساء بأن يطلق على كل واحدة اسم أستيل الأولى والثانية والعاشرة.. وتزوجت أستيل واختفت. وظل الموسيقار يبحث عنها طوال حياته وكتب برليوز في مذكراته: عيناها الواسعتان الساحرتان.. شعرها الذهبي تساقط من خيوط الشمس.. شفتاها ترتويان من النبيذ والسعادة الأبدية.. قدمها الصغيرتان في حذاءها الأحمر الوردى.. وحياتي تراب مبعثر أمامها في انتظار دائم لعودتها ويقائنها إلى الأبد هناك بعيدًا أراها.. وأملًا عيني من جمالها وأدخرها في خيالي وفي أحلامي.

وعرف أنها في إحدى المدن الفرنسية، ذهب إليها، كانت في السبعين من عمرها. زوجة سعيدة وأم لأربعة من الأولاد وعشرة من الأحفاد. صارحها الموسيقار بحبه القديم لها. أدهشها ذلك. فلم تكن تعرف أنه قد أحبها.. واعترفت له أنها لم تلبس في حياتها حذاء أحمر! وانحنى الموسيقار أمامها واستأذنها في أن يقبل يديها وخرج ووقف أمام الباب يبكي!

أما الموسيقار يوهانس برامز (١٨٣٣ - ١٨٩٥) فقد كان موهبة فريدة في العزف على البيانو.. رآه وسمعه الموسيقار روبرت شومان (١٨١٠ - ١٨٥٦) فيصفق له واقفًا، وطلب إلى زوجته كلارا أن ترى العجب. وقال: هكذا يكون العزف السماوى على البيانو.. انظري وانتظري هذا الشاب!

وعاش برامز في بيت الموسيقار شومان واحدًا من هذه الأسرة الفنية. ودخل شومان مستشفى الأمراض العقلية. وظل برامز إلى جوار زوجة الموسيقار.. وكانت تعطف عليه وتشجعه فأحبها وراح

يتابعها فى كل مكان. ولم يقترب منها. احتراماً للموسيقار شومان.. وبعد وفاته لم يفكر فى الزواج منها. واستغرق هذا الحب النبيل الشريف الأليم أربعين عاماً، وكان ذلك هو حبه الوحيد.

وفى أحد الأيام قال للسيدة كلارا شومان: الآن يجب أن ننفصل.. لك طريق ولى طريق.. وسوف أعود إلى الشارع الذى جئت منه وإلى الغانيات.. فمع الغانيات وجدت حريتي وراحتي.. ومعهن لا يوجد شيء اسمه العيب أو الحرام.. أو الخوف.. سوف أعود إلى الفن الذى حرمت منه، وسوف تكون ذكراك هى النور الوحيد وسط هذا الظلام.. اعذريني لا أستطيع أن أكون معجباً بزواجك المريض، وخائناً فى نفس الوقت!

وفى ليلة من ليالى الربيع، والزهور فى كل شجرة، فى كل طريق فى كل نافذة، جمع الموسيقار باقة كبيرة ودق أحد الأبواب وخرجت إحدى البغايا. ولم تكد تراه حتى قالت: أنت؟ تعال.. ادخل.. أيها المفلس المجنون!

ولم نعرف فى تاريخ الموسيقى فنناً عظيماً كره المرأة واحتقرها واحتقر نفسه فى أحضانها مثل الموسيقار شوبان (١٨١٠ - ١٨٤٩). كان يرى كل امرأة كأنها أمه أو أخته.. ولذلك فالاقتراب منها حرام.. ولأنه حرام فهو لا يشعر بأية رغبة. ولا يقرب المرأة إلا مكرهاً مرغماً. وقد أضاف الخوف من المرأة إلى كراهيتها واحتقارها، عندما أصيب بالزهري.

ولكن الأدبية الفرنسية جورج صاند قد طاردته وقطعت عليه الطرق وعلمته الأفيون.. وكان يندهش كيف أن هذه امرأة. يقول: أشك فى أنها امرأة.. بل هى أكثر رجولة منى!

وقد دامت العلاقة بينهما تسع سنوات هى تطارده وهو يزداد احتقاراً لها ولكل بنات جنسها..

وكانت ابنة جورج صائد تصفه بقولها: شويان الذى لا جنس له ولا جنس معه! وكان وسيم الوجه، شاحباً رقيقاً، وكانت النساء يعشقنه لهذه الرقة والنعومة.

ولعظمته الموسيقية.. ولكن عندما أصيب بالسل وراح ينزف دماً، ابتعدت عنه النساء تماماً. يقول فى مذكراته: أنا ابتعدت عن المرأة، وأنا فى كامل قوتى ولكن كان لابد أن أصاب بالسل، لتهرب المرأة منى.. فأنا الآن فى وحدة تامة.. وهذا هو الوضع المثالى لكل فنان يريد أن يبدع! وليس صحيحاً أن المرأة هى مصدر الوحي، وإنما احتقارها هو مصدر الإلهام.. فاحتقرها تعش عظيمًا!

وبعد وفاته اكتشفوا أنه يحتفظ بين أوراقه بحذاء صغير.. إنه حذاء أول فتاة أحبها، وكانت فى الثانية عشرة. وقد تركت له هذا الحذاء واختفت مع رجل آخر.. وكان يخرج الحذاء من أوراقه ويصب فيه الشمبانيا ويشرب ويرفعه إلى أعلى من رأسه قائلاً: فى صحتك يا أجمل الناس وأكثرهن كذباً وخداعاً.. أنتن جميعاً كذلك!

أما عبقرى العباقرة موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١) وأعظم مؤلفى الموسيقى وأرقهم وأكثرهم «حرفنة»، فقد وجد نفسه محاطاً بالنساء منذ طفولته، وكلهن يداعبنه ويقبلنه ويعانقنه.. وكان موتسارت يحب ذلك. وكل فتاة قابلها وعدها بالزواج عندما يكبر.. لقد وعد مائة فتاة.

أول فتاة كان اسمها ألويسا وكان فى العشرين من عمره، اتفق معها على الزواج وكانت أمها هى التى استدرجته إلى هذه النهاية. ولما علم أبوه، استدعاه فوراً. وأمره بالإقلاع عن هذا العبث. فالزواج للإنسان العادى، أما العباقرة فهم مثل آلهة الإغريق لا يتزوجون! وأحب أختها كونستانسة عندما قررت ألويسا أن تتزوج مدرساً

مغموراً.. وحاصرته أمها مرة أخرى.. تقول الأم: الناس يتهامون.
فأنت تدخل وتخرج، وتجيء فى ساعات متأخرة.

لا بد من الزواج!

وتزوجها.. هو فى السادسة والعشرين وهى فى التاسعة عشرة.
وأنجبت له ستة أولاد، عاش اثنان.

وكانت حياتهما سعيدة.

وكان الذى يعذبها ليلاً ونهاراً، أنه يطلب إليها أن تجلس إلى
جواره وتقول أى شىء.. أية قصة.. وهو غارق فى التأليف، وكانت
تروى القصة الواحدة عشر مرات. فإذا غيرت فيها، ينبهها إلى ذلك..
وكان عليها أن تقول وتقول مهما كانت متعبة.

وفى يوم زارهما أحد ناشرى الموسيقى فوجدهما يرقصان بعد
منتصف الليل. وأدهشه ذلك. ولكن عندما عرف السبب زادت دهشته.
فقد كانا يرقصان طلباً للدفع فلم يكن لدى الموسيقار مال يشتري
به خشباً يضعه فى المدفأة!

وكان هذا الموسيقار العظيم يستخدم الألفاظ النابية جداً فى
رسائله لأصدقائه ولزوجته أيضاً. وكان له مزاج شاذ فى وصف ما
يفعله بالضبط وبالتفصيل فى دورة المياه، كيف يجلس وماذا
يحدث.. ويصف الأصوات التى تخرج منه.. ثم يقارن بين ما حدث فى
دورة المياه فى الأيام الماضية.. وأحياناً فى الشهور والسنوات
السابقة.. وكيف أنه يتمنى أن يفعل ذلك على وجه النبلاء والأمراء..
ويصف ذلك بالتفصيل ثم يضحك للصورة التى يتخيلها!.

أما الموسيقار فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) فقد أحب المرأة وهو لا
يزال طفلاً، وكان يتظاهر بالنوم لكى تحمله الخادمة إلى فراشه
وينتهز الفرصة ليلمسها.

وقد امتلأت حياته بالنساء. ولكن رجلاً واحداً أحبه ووقع مغرمًا به: إنه الإمبراطور لودفيك الثانى ملك بافاريا!

ولكن رجال الحاشية والأسرة المالكة أبعدوا هذا العبقرى الشاذ عن الملك بعد أن استولى على كل قرار يتخذه.

وفى الخمسين من عمره تزوج كوزيما ابنة الموسيقار فرانتس ليست، وكانت قبل ذلك زوجة لأحد أصدقائه.

يقول فاجنر: إن المرأة وحدها أقدر على فهم الرجل، وأكثر رعاية لموهبته الفنية وأكثر احتمالاً لشطحاته. وهى بذلك تتسم بالصبر الضرورى للإبداع الفنى.

وقد عاش الموسيقار فاجنر ينادى بضرورة أن يكون الفنان فى حالة حب دائم وإخلاص ملتهب - هو يخلص لها وهى تخلص أيضاً. وبغير هذه العاطفة الملتهبة فإن الموهبة الفنية تموت.

يقول فى مذكراته: إن الحب الهادئ، يجعل منك زوجاً، ولكنه لا يساعدك على أن تكون عبقرياً مجنوناً.. وكل امرأة تحاول أن تحطم أظافر وأنياب الفنان هى تريده أن يكون مخالفاً لطبيعته الوحشية.. فإذا كان الفنان مجنوناً، فيجب أن تكون محبوبته كذلك.. وهذا سر عذاب كل الفنانين: لأن كل امرأة تصادفهم تحاول أن تجعل منهم أناساً عاديين.. وهذا هو طغيان المرأة التافهة، ولذلك كان فرار الفنان أمراً محتوماً.

ويقول: يخطئ من يظن أن الفنان فوضوى. إنه يخضع لقواعد العبقرية وهى صارمة دقيقة عنيفة. ولكنه البركان الذى تخرج منه السيول الملتهبة.. فهو يغلى ويتفجر فى أعماقه. ونحن لا نلوم البراكين لأنها لا تهدأ، ولا نعيب الرياح لأنها لا تسكن، ولا نحتقر المطر لأنه هابط دائماً، ولا نصفق للبخار لأنه صاعد دائماً.. فهذه طبيعة الأشياء، وأمامها يجب أن ننحنى فى احترام عظيم!!

«آه يا زينب!».

جاءت هذه العبارة فى خطاب بعث به الموسيقار الإيطالى فردى (١٨١٣ - ١٩٠١). أما زينب هذه فقد رآها الموسيقار فى إحدى الحفلات التى أقامها الخديو إسماعيل. ويقال إنها ابنة أحد الباشوات. ويقال زوجته. ويقال عشيقة تركية تتكلم الإيطالية والألمانية والفرنسية والقليل من اللغة العربية.

استمع الموسيقار فردى إلى صوتها وهى تغنى أحد ألحانه. ثم اقترحت عليه تعديلاً فى الأداء. ورأى أن هذا التعديل أجمل، وظل الموسيقار يرجوها أن تغنى وأن تعيد وتزيد، ولما أحسّت زينب هذه أن الموسيقار مفتون بها جعلت تغنى ألحاناً أوبرالية لغيره من كبار المؤلفين، وقد ضايقه ذلك. فأصرت. وأسرف فردى فى الشراب وتوسل إليها أن ترافقه إلى بيته.. ولكنها رفضت. وطلبت أن يشهر إسلامه. فقال لها ولكنى لا أريد أن أتزوجك.

فقالت: وإنما أردت أن أرفضك بعد أن تسلم أيضاً.

قال: لا أفهم.

قالت: إننى أرفضك بكل دين!

قال: لماذا؟

قالت: إذا كنت موسيقاراً عظيماً، فلست محبباً عظيماً، فالذى تريده منى فى استطاعتك أن تجده على الرصيف. ولكن الذى أريده من أى رجل هو شيء نادر، إن الله قد عذبنا بالرجال..

- ولكنه عذبك وحدك.. فأنت لا تريدين رجلاً أنت تريدين نصف إله.

- الرجل الذى أحبه سوف أجعل منه نصف إله، ليجعل منى إلهة

كاملة!

- إنك تذكريننى بفتاة كنت أعرفها فى شبابى..

- إننى لا أشعر باحترام للرجل الذى يرانى ولا يرانى.. يرانى
فيتذكر امرأة أخرى.. إننى أحب الرجل الذى يرى كل النساء فى امرأة
واحدة هى أنا.. أحترم الرجل الذى يرانى نهاية كل شىء.. ولست أنت
ذلك الرجل!

- هل تعلمين أنك لست جميلة؟

- هل تعلم أنك لست ذكيًا؟

- أعلم.

- وأنا أعلم أننى جميلة.

- هل تعلم أننى صبورة.

- لا أعرف.

- يجب أن تعرف أن المرأة التى تحتل حوارًا سخيًا كهذا، لابد أن

يكون نصف فضائلها: الصبر على المكاره!

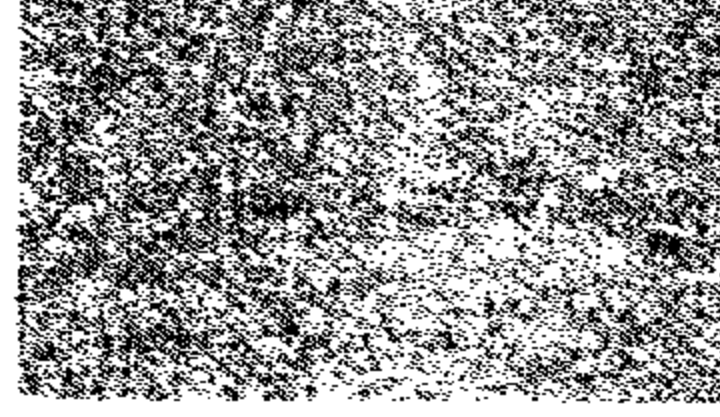
وحتى موت الموسيقار الإيطالى جيسى فردى، لم ينس «زينب»

هذه.. لم ينس المرأة التى رفضته وهو فى قمة العظمة.. ولم ينس

اللحظة التى أوشك أن يعترف لها بالحب.. لولا أن هذا الحب جاء فى

زفة من الإهانات الأليمة.. أما عباقرة الرسم والنحت، فلهم مزاج من

نوع آخر!



آه.. لو كانت تحتقره قليلاً !!

بعد أن عقد زواجه عليها قال لها: هذه حكمة
حياتي كلها: لا تجعليني أتذكر لحظة واحدة أننا
متزوجان!

ولم تفهم العروس الصغيرة ما الذي كان يقصده
الفنان العظيم بيكاسو. وكل ما تعرفه هو أنها جميلة
جداً وأنه يحبها. وأنه فضّلها على ألف فتاة في باريس
وأنها سوف تكون ملهمته وأنها سوف تكون خالدة في
لوحاته ويفرشاته.

ولكنها لم تبق طويلاً في بيته. فقد طلقها ليتزوج
غيرها. وفي أذني غيرها قال نفس هذه العبارة
المشهورة!



وليس بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣) وحده الذى يحب المرأة العاشقة، لا المرأة الزوجة وإنما كل الفنانين.. فحماس الفنان للمرأة هو حماس لاكتشاف معنى جديد، أو بشكل جديد. لا أكثر ولا أقل. فهم جميعاً مثل الفنان القديم بجماليون.. وجماليون هو ذلك الفنان الإغريقى الذى صنع تمثالاً لامرأة جميلة من الرخام الأبيض الجميل.. وأحبه وجعله ينام إلى جواره فى فراشه تحت غطاء واحد.. وراح يبكى يطلب من الآلهة أن تهب الحياة لهذا التمثال الجميل. وكان الآلهة يمرّون بالفنان ويرثون لحاله. فإذا وجدوه عارياً غطوه بريش الطيور، وإذا وجدوه جائعاً وضعوا الطعام فى فمه. وإذا وجدوه عطشان صبوا رحيق السحر بين شفتيه.. وأخيراً عطفت عليه آلهة الإغريق فجعلوا التمثال كائناً حياً.. فعندما قبّله بجماليون، قبّله التمثال أيضاً.. وطلب من الآلهة أن يساعده على الزواج من هذا المخلوق.. المخلوق الذى صنعه هو.. وفى زفة سماوية تزوج الفنان هذه العروس الجميلة. ولكن التمثال أو المرأة التمثال لا تعرف إلا القبلات وإلا الحب.. ولكنها لا تعرف كيف تتكلم.. وراح يعلمها الكلام.. ولا تعرف كيف تعبر فعلمها أن تعبر.. ولا تعرف كيف تلد وتربى الأطفال ولا تعرف كيف تطهو..

فلما عرفت كل ذلك أحس الفنان أنها مثل أمه وأخته، فهرب منها! وليس بين الفنانين جميعاً رجل أحب كثيراً وأبدع كثيراً مثل عبقرى القرن العشرين بابلو بيكاسو الذى ولد فى ملقة بإسبانيا سنة ١٨٨١. وهو يشبه أمه: قصير القامة عريض الكتفين له عينان سوداوان لامعتان. فى غاية القوة والحيوية.. أو هو الشهية المفتوحة على كل جميل، بغير حدود. عندما سافر إلى باريس سنة ١٩٠٠

ضاع.. تاه.. داخ.. ولكنه وجد نفسه تمامًا. فهذا هو المكان المناسب لروحه المتشردة!

والتقى بأول فتاة فى حياته. الفتاة اسمها فرناند. قابلها فى البيت الصغير الذى يسكنه. طويلة أنيقة رشيقة. أما هو فكان يرتدى بنطلونًا واسعًا وقميصًا أصفر وأحمر وأخضر.. ويلف حول عنقه منديلًا أزرق. وكان يباهى بأن هذه الألوان من تصميمه هو.. وحول خصره يلف حزامًا عريضًا، كأنه نجار أو سمكرى..

وكانت فرناند «موديلًا» لكثير من الفنانين.. أى تجلس عارية أو نصف عارية لكى يرسموها ولذلك ظهرت فى لوحات كثيرة قبل أن تظهر فى لوحات وحياء بيكاسو. وبيكاسو رجل شرقى جدًا، فلما توثقت علاقته بها، طلب إليها ألا تكون موديلًا لغيره.. وألا تبرح الغرفة أيضًا. فهى «حريم» لهذا «السلطان».

وفى يوم ضبطها تنظف الغرفة التى ينام فيها فصرخ مستنكرًا. أما الغرفة ففيها بقايا كل شىء من الطعام والشراب والألوان والملابس والأدوات الخشبية والمعدنية.. وكانت متعة بيكاسو أن يكوم كل هذه المخلفات بقدميه ويقف يتأمل هذا الخليط الهائل من الألوان والروائح.. ويقول: آه لو أعرف كيف أرسم الروائح..

آه لو أعرف كيف أرسم الأصوات؟!

وكثيرًا ما رسم لوحات للزهور بدون لون أبيض، فلم يكن قادرًا على شرائه! وكان هو الذى يصمم ملابس فرناند، ويسوى شعرها.. ثم يوقع بإمضائه على طرف الفستان..

وبدأ أول تجاربه فى الرسم التكميبي عندما رسم لوحة على ظهر فرناند! وظهرت فتاة أخرى اسمها مارسيل، هى صديقة فرناند وانتقمت فرناند منه فهرت مع رسام آخر. وكانت فرصة لتصبح مارسيل هى

العشيقة المفضلة. واتفقا على الحياة معًا. وعاشا معًا. وعادت فرناند، وكانت عودتها متأخرة جدًا.. وظلت تحبه إلى أن مات سنة ١٩٦٦. ولما ماتت وجدوا في ملابسها مرآة على شكل قلب كان هدية من بيكاسو.

ومارسيل هذه هي أول امرأة أحبها، وأطلق عليها اسم «حواء» وهي صاحبة كل اللوحات التي جعل أسماءها: إلى حواء.. وداعًا حواء.. سلامة حواء.. لعنة حواء..

وماتت سنة ١٩١٦ ومات أبوه أيضًا. وأصدقائه تطوعوا في الحرب العالمية الأولى. وظل قابعًا في غرفته، يحب ويرسم ويلعن الحرب. وانتقل إلى إبداع لوحات على مسارح الباليه. وعرف الراقصة الروسية أولجا.. وأخذها إلى والدته في إسبانيا.. وتزوجها هناك. وصارحتها الأم: أنت جميلة يا ابنتي.. ولكن ابني فوضوي.. لا أضمن لك السعادة معه. حاولي أن تهربي.. فهو فنان مجنون لو استطاع أن يملأ فرشاته من دمك لفعل.. فاللوحة عنده أهم منك.. وأهم من كل الناس! وتفجرت الألوان من أصابعه، وامتلات اللوحات بصور الباليه وموسيقى الباليه.. وملأت «أولجا» دنياه كلها..

وكان يطلب إليها ألا ترتدي ملابسها إذا نامت إلى جواره صيفًا وشتاء.. لماذا؟ كان يقول لها: أريد أن أرسمك في أية لحظة من الليل والنهار.. ولذلك يجب أن تكوني جاهزة! وأنجبت له أول أولاده باولو سنة ١٩٢١..

وفي سنة ١٩٢٢ طفت على فرشاته الأشكال السريالية فبدأ يرسم الأجسام المشوهة، والإنسان له رأسان، وله سيقان مكسورة والعين الواحدة والأذن الواحدة والأنفان والثلاثة.

وبدأ الخلاف شديدًا بينهما، هي تحب الحياة الأرستقراطية.. فقد

ملئت الرقص، والحركة العنيفة على المسرح، وضافت بالتنقل من مكان إلى مكان، وأرادت الاستقرار التام، وهو يضيق بالاستقرار وبالاستقرارية، ويكره بأن يشعر لحظة بأنه زوج وأنه أب..

وفى سنة ١٩٣١ صادف فتاة فى السابعة عشرة طويلة شقراء سويسرية اسمها مارى تريز رياضية. هى الكمال فى الخطوط والألوان والصحة والعافية. هى تمثال لا يهم أن يتكلم ولا أن يتألم. مرحلة تافهة على استعداد لأن تكون أمًا ألف مرة.. أحبها.. عاشت وظهر المرح فى حياته ولوحاته. لم يشأ أن يقدمها لأصدقائه. فكانت كنزها الدفين.

وطلق أولجا فى سنة ١٩٣٥ بعد أن عاشت معه ١٧ عامًا، وليس أسهل من قطع العلاقة بعد الزواج الطويل. فيكون الخلاف قد تأكد. والاحتمال قد ضعف. والحياة هانت. ويكون الفنان الذى تقدمت به السن أقل استعدادًا للتضحية بأى شىء وبأية لحظة، لأن الوقت الباقى له فى الحياة قليل، وهو لا يريد أن يفسده أويضحى به، مهما كانت الأسباب. ولا شىء يجعل امرأة تهرب، إلا امرأة أخرى أصغر منها وأجمل.

والذى لم يكن يجده فى السويسرية وجده فى امرأة صحفية اسمها دورا.. جاءت لتكتب مقالاً عنه وتخرج وفى يدها بعض لوحاته. فدخلت ولم تخرج. فقد أبقاها الفنان واستولت عليه تمامًا.. فعندها قصص وحكايات كأنها شهرزاد وهو شهریار يسمع وينام ويرسم.. فهى على عكس العشيقة السويسرية التى لا تتكلم، وإنما تجلس جميلة وتنتظر. ولكن دورا هذه قد هزت حياته، وأشعلت الغليان فى ألوانه ومعانيه..

وفى ذلك الوقت وقع حادثان هامان جدًا. الحادث الأول: الحرب الأهلية فى إسبانيا سنة ١٩٣٦ والحادث الثانى: نجاح الفاشية

والنازية وطغيان الفرد الذى أدى إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية.. ثم وقوف هتلر وموسوليني إلى جوار فرانكو فى إسبانيا. وفى ذلك الوقت هاجمت قوات فرانكو مدينة «جورنيكا» الصغيرة.. فما كان من بيكاسو إلا أن سجل الأحداث فى لوحة أطلق عليها اسم «جورنيكا» - هى أكبر لوحة رسمها فنان فى التاريخ. هذه اللوحة انتقلت من أوروبا إلى أمريكا ومن أمريكا عادت إلى أوروبا إلى إسبانيا لتستقر فى أعظم متاحفها، كأعظم عمل فاز به فنان أحب السلام واستنكر الحرب. فالفنان حيوان سياسى أيضاً، له أعداء يجب أن يحاربهم بالفرشاة والإزميل حتى الموت!

وفى سنة ١٩٤٣ التقى بالرسامة فرانسواز جيلو وكانت فى العشرين من عمرها. جميلة طائشة وعاشت معه. وطلب بيكاسو من عشيقته الصحفية أن تعلن لعشيقته الجديدة أن العلاقة بينهما قد انتهت. وأنجبت له فرانسواز ابنه كلود سنة ١٩٤٧ وابنته بالوما سنة ١٩٤٩. وكان فى ذلك الوقت يرسم مائة لوحة فى اليوم. وأصبح بيكاسو مليونيراً.

وفجأة ظهرت زوجته أولجا الروسية وراحت تطارده فى كل مكان.. فى الحفلات العامة وعلى الشواطئ.. وتنتهز كل مناسبة لتخلع ملابسها.. وتكشف للناس عن لوحات رسمها على ظهرها وعلى ساقها، ولم تشأ هى أن تمسح هذه اللوحات وتقول: إن لوحاته الأعمق كانت فى قلبها وفى ذكرياتها!

وكانت تقول: إنك ما تزال زوجى أمام القانون الإشباني! وفى سنة ١٩٥٣ هربت منه فرانسواز لتكون لها حياة خاصة مع ابنها وابنتها..

وظهر بيكاسو فى ميادين مصارعة الثيران مع فتاة سمراء اللون هى جاكين.. سيدة مطلقة ولها ابنة عمرها ست سنوات.

وكانت جاكلين هذه هي التي تدير بيته وعلاقته المالية وتنظم له الحفلات والمعارض والمقابلات وترد على خطاباتته وفي عيد ميلاده الحفلات والمعارض والمقابلات وترد على خطاباتته وفي عيد ميلاده الرابع والسبعين وقف على إحدى المناضد وراح يراقص جاكلين وأعلن زواجه منها.. وكانت هي آخر علاقاته العاطفية!

يقول بيكاسو: كان صراعى كله من أجل ألا يموت الفن!
يقول: الفن ليس هو الحقيقة. الفن هو الكذب الذي يجعلنا نفهم الحقيقة!

ويقول: الفن الجيد مثل الطعام الجيد، تتذوقه ولا تستطيع أن تشرحه!

ثم يقول: عندما لا تجد نفسك قادرًا على الرسم، ارسم أيضًا!
أما الرسام الفرنسي جوجان فهو يقول: الفن هو المرأة العارية.
أما المرأة التي ترتدى ملابسها فهي لوحة أخرى من صنع الترتيبي وليس لديها إحساس بالجمال!

ولذلك هرب جوجان (١٨٤٥ - ١٩٠٣) إلى جزر تهايتي في المحيط الهادي حيث الفتيات «في لون الحمم البركانية، وحيث الدماء تغلي بالجنس، وحيث المرأة ترضى من الرجل بأن يلمس شعرها ويعترف بأبوتته لأولادها». هكذا يقول جوجان.

ولذلك فالفنان الحقيقي هو العاشق فقط.
فالفنان يعشق ولكنه لا يتزوج. والمرأة في جزر تهايتي تعشق فقط.

وفي أوربا يجيء الحب قبل الجنس، وفي آسيا يجيء الحب بعد الجنس!

وكان جوجان قد أحب مدرسة تركية وأنجب منها خمسة من الأولاد.

ولم يفلح فى إقناعها بأن تهرب معه من أوربا إلى آسيا. وكانت عندها حجة مقنعة: إننى مثل أوربا التى تريد أن تهرب منها.. ولذلك فأنا أفضل أن أكون أمًا لأولادك على أن أكون أمًا لأولاد عشيقاتك!

وفى الجزيرة أحب فتاة عمرها ستة عشر عامًا. وعاشت معه. ولكنها هربت مع رجل آخر. وتزوجته وظهرت عليه أعراض مرض الزهري. وامتلاً جسمه بالبثور. وهربت الفتيات منه. وأنجب ولدًا حاول أن يكون رسامًا، ولم يفلح حتى مات سنة ١٩٨٠. ولم تظهر عبقرية جوجان إلا قبيل وفاته عندما ترك فى الجزيرة مئات اللوحات فى كل مكان.. وقد نقشت لوحاته على الشجر، وعلى الأكواخ.. وعلى سفوح الجبال.. ثم أقام معرضًا فنيًا هو الأول من نوعه فى التاريخ. فقد أتى بعشرين فتاة ورسم لوحاته على ظهورهن ويطونهن.. وجعل الفتيات يتقلبن يمينًا وشمالاً أمام الضيوف. ولكن هذا المعرض الحى قد ذاب فى المحيط عندما شعرت الفتيات بأن الألوان تلسعنهن وتجعلن يهرشن.. فخافت الفتيات أن تكون هذه هى أعراض المرض الذى يشكو منه جوجان!

يقول جوجان: إذا كان الحب لعنة تصيب القلب، فإن الفن لعنة تصيب القلب والعقل معًا.

ويقول أيضًا: العاشق فنان ملعون. والفنان عاشق مجنون.

وإنها اللعنة والحب والجنون!

وإذا كان الفنان يحب التغيير، تغيير المناظر والألوان والأضواء والأشخاص، فإن فنانًا واحدًا تمنى من الله صديقة واحدة.. زوجة واحدة. واحدة وبعدها يموت. فقد تعب من الدوران فى الشوارع والدق على الأبواب، والأبواب التى تصده إذا عرفته إحدى الفتيات البغايا.. ذلك الفنان هو الهولندى فان جوخ (١٨٥٣ - ١٨٩٠). لم يعرف إلا

بنات الليل. ولم يجلس إلا على الأرصفة ولم يذق طعم الحلال.. وتنقل بين البلاد وبين المهن وبين القلوب والعقول. وحرار قلبه وخارت قواه. ولم يصدق المرأة، ولم تصدقه المرأة. ولكنه لم يكذب قط. وفي إحدى المرات قطع أذنه وبعث بها إلى إحدى الفتيات، ليؤكد لها صدق مشاعره. وألقت المرأة بأذنه للقطة. وطارد القطة.

وأصيب بنوبات جنونية ودخل مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق على نفسه الرصاص. ولم يعرف أحد عبقرية فان جوخ إلا بعد وفاته.. تقول إحدى بنات الليل في مذكراتها: هذا الفنان المجنون كان يضحكني كثيرًا. فهو يجيء في الليل يدق الباب وأكون مشغولة. فأطل إليه من النافذة وأطلب إليه أن ينتظرني بعض الوقت. وأكون مرهقة جدًا. فأطلب إليه أن ينتظرني حتى أصحو من النوم. وأصحو من النوم فأجده قد صنع لي القهوة وغسل ملابسي وكنس الأرض وأطعم الكلب والقطة وأشتري زهورًا من السوق. ويفتح الباب للزبون الجديد. وأطلب إليه أن ينتظرني حتى يخرج الزبون وينتظر وأنساه. وفي يوم من الأيام وجدته ميتًا.. يحلم بامرأة واحدة مخلصه تكون زوجة لرجل مخلص!

كان شعار الرسام الهولندي رمبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩): أنت لا تعرف الحرية إلا إذا دخلت السجن.. لا تعرف الصحة إلا وأنت على فراش المرض.. لا تعرف الحب إلا إذا تزوجت. ولذلك تزوج أولاً. وماتت زوجته وهي في الثلاثين وتركت مالا كثيرا. واشترطت أن يكون هذا المال له، إلا إذا تزوج. ولم يتزوج. وإنما أحب ممرضة. ومن بعدها خادمته.. ومن بعدها زوجة لأحد الأغنياء. ثم تزوج وكان لابد أن يبيع النصب الرخامي على قبر زوجته الأولى لكي ينفق على زوجته الثانية.

يقول: أكره فى الدنيا شيئين: رائحة المستشفيات وعطور المرأة..
وأحب فى الدنيا شيئين: الطين فى الحقول والعرق..
وقد صدمت الناس لوحاته العارية.. فقد كان الرجل هادئاً وقوراً..
وكان حزيناً. وكان الناس يسخرون منه قائلين: إن هذه اللوحات
رسمها بأنفه!

يقصدون أنه يحب رائحة الزيت ورائحة العرق.. وأن الملابس
تخفى عنه كل ذلك.. ولهذا فهو ينزع الملابس ويجعل أنفه أقرب إلى
اللوحة.

وآخر كلمات رمبرانت: تمنيت أن أعرف طعم الحرية. رأيتها
لمستها ولكنى لم أنقها.. ولن يتسع عمرى لذلك!
ولم يتسع عمره. فقد مات قبل أن يكمل عبارة أخرى تقول: لو نمت
الليل عشرين ساعة وصحوت فسوف...

«لا أعتقد أننى إنسان محترم. ولو كنت محترماً لقلت لهذه السيدة:
أنت أيضاً لا تستحقين الاحترام، فأنت كاذبة، وأنت تجدين متعة فى
عذاب الآخرين، وتجدين متعة أكبر فى احتقارك لى. ثم إننى فعلاً
أستحق هذا الاحتقار لأننى رضيت به. بل إننى سجلته على اللوحات.
ورضيت أن أجلس أمامك ساعات لكى أعتقل بفرشاتي ابتسامة لك
فيها الكثير من التعالى والنفاق.. أنت مجرمة يا سيدتى وأنا ضحيتك
الذليلة.. اخلعى حذاءك واضربينى به ألف مرة على أنفى.. أرجوك...»
ذلك هو الفنان الإسباني جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) وهو يمثل طرازاً
من الفنانين يجدون اللذة فى العذاب، والاحترام فى احتقار المرأة
لهم، والكرامة فى الهوان، والمكان الطبيعى لرءوسهم هو تحت أحذية
المرأة الأرستقراطية التى تطلب إليه أن يكون خادمها عبداً ذليلاً
لأهوائها ونزواتها..

وقد أحبته دوقة ألبا.. ولم تصارحه بذلك.. وطلبت إليه أن يرسمها.. وجهها.. ثم عنقها.. ثم نصفها.. ثم طلبت إليه أن يرسمها عارية.. وهى التى كشفت له عن جسمها قطعة قطعة فإذا عرت قطعة غطت بقية الجسم.. فلم ير جسمها كاملاً مرة واحدة!

ولما أكمل رسمها طردته من حياتها، وهربت!

فتقدمت له إحدى خادمت الدوقة تقول له إنها رأتَهُ وهو يرسم سيدتها. وهى تعرف بالضبط ما الذى يعجبه فيها وتؤكد له أن جسمها أجمل، وقلبها أصدق، وحيالها أوسع.. وأنها أذكى من سيدتها، فقد كانت هى التى تدبر شئونها وتدبر حياتها كلها..

ثم خلعت ملابسها، ودارت حول نفسها وحوله. ورأى فى عينيها إعجاباً شديداً. وهز الفنان رأسه قائلاً: أروع وأجمل وأكثر شباباً.. ولكنك - مع الأسف - تحترميننى أيتها الخادمة! أه لو كنت تحتقريننى قليلاً؟!

يقول بيكاسو بالنيابة عن كل الفنانين: ليس صحيحاً أن الفن منطق.. إنه جنون الفرشاة والألوان.. ليس صحيحاً أن الفن صحة.. إنه مرض يصيب العبقرية.. ليس صحيحاً أن الحب أبدى.. إنه متجدد.. أو من الواجب أن يكون كذلك.. وإلا كان الفنان زبلاً فى شوارع الجمال، حانوتياً فى جنة الله، متسولاً أمام كنوز الحقيقة.. لو عشت ألف سنة لأحببت ألف امرأة ورسمت ألف ألف لوحة «وضاق وقتى لكى أوقع عليها بإمضائى!».



علماء النفس ليست لهم نفس

أعرف طاهيًا مصريًا، هو أشهر وأبرع الطهاة في العالم العربي. وأحب أن أتفرج عليه وهو يحول الدقيق واللحم إلى عشرين صنفًا. يعمل وحده. كأن له ألف عين وألف ألف أصبع. ثم إنه لا يضع في فمه لقمة واحدة. وإنما يفضل الخبز الجاف والجبن القديم على كل ما صنعت يداه.. ويترك المطبخ وكأنه في حالة إغماء، فيخرج من جيبه زجاجة نشادر ثم يتمشى على النيل وفي يده ساندوتش فول - إنه عالم وليس فنانًا. إنه يعرف كل مكونات الأطعمة الفاخرة والمعقدة ولكنه لا يتذوقها ولا يشتهيها!

إنه مثل «النحل الشغال» يمتص رحيق الزهور ويفرز العسل ولا يتذوقه. وهذا النحل لا شيء يشغله عن صناعة هذا السحر.. لا حب ولا كره.. فالنحل الشغال لا جنس له - لا هو ذكر ولا هو أنثى!

أعرف تاجرًا مشهورًا في طنطا صناعته حلاوة المولد.. أقسم لي بالله العظيم ثلاثًا - وأنا أصدقه - أنه لم يذق هذه الحلاوة منذ أربعين عامًا. ولا يستطيع، ولو فعل لمات. لأنه مصاب بالسكر!

فعلماء الحلوى لا يتذوقونها، ولا يحبونها!



ثم هذه القصص الغريبة العجيبة لعلماء الجنس والحب والكراهية والزواج والطلاق وكل العقد والمخاوف.

أعظم علماء النفس جميعًا هو هافيلوك أليس (١٨٥٩ - ١٩٣٩). وهو صاحب الثورة الحقيقية في الدراسات الجنسية. وكتابه الشهير «دراسة في سيكولوجية الجنس» في سبعة مجلدات ألفها في ثلاثين عامًا، هو أوفى موسوعة جنسية كتبها أحد من الناس.

وقد ولد هذا العالم الإنجليزي عليلًا. منطويًا. وليس عجيبًا أن يطول جلوسه وساعات قراءاته وأن يكون مفكرًا متأملًا. وكان خجولًا أيضًا. وكان خجله يغري الفتيات بأن يتجهمن عليه بالأسئلة، عندما كان مدرسًا في أستراليا.

أول كتاب له كان موضوعه «الانحراف الجنسي». وقد حرّمته الرقابة في بريطانيا. ورغم انتشار هذا الكتاب بعد ذلك، وكتب أخرى، فإن هذا العالم الجليل بقي منعزلًا جالسًا وراء الأبواب يتأمل الناس دون أن يقترب منهم.

ومن رأى هذا العالم الكبير أن الطبيب النفسى يجب أن يساعد المرضى مجانًا، وقد استنكر أن يتقاضى علماء آخرون أجرًا عن هذه المساعدة الإنسانية. فليس صحيحًا أن المريض هو الذى كسب الشفاء، ولكن العالم قد كسب الفهم أيضًا. فلماذا يكون المريض مدينًا، ولا يكون الطبيب؟!

وكان زاهدًا في الحياة، يكفيهِ من هذه الدنيا أن يقرأ وأن يناقش لعله يفهم، ثم يعبر. وما عدا ذلك من لذات الدنيا، فلا أهمية له.

لم يعرف امرأة حتى الخامسة والعشرين من عمره. والتي عرفها كان بالصدفة. فقد قرأ قصة لأديبة.. فبعث إليها خطاباً يبدى إعجابه بها، وبعثت له المؤلفة بخطاب، ثم التقيا وكانت المؤلفة جميلة مثيرة وأحاطته المؤلفة بالرسائل والمقابلات واستدرجته إلى بيتها. وأعجبت به إحدى تلميذاته. وطلبت أن تتزوجه. وهذا هو الحوار بينهما:

الطالبة: أحبك يا أستاذ.

الأستاذ: عقلى يصدق ذلك.

- أنا أعرف ما أقول.

- وأنا أعرف ذلك. ولكنك لا تعرفين ما الذى يمنعنى من زواجك.

- انشغالك. أنا أعرف أن هذا أهم وأعظم من أنايتى.

- ليس هذا..

- أعرف.. إن رأيك فى المرأة سيئ جداً. ولكن سوف تجدنى مختلفة

عن كل النساء. فأنا تلميذتك. أحبك. وأحترمك. وأعلم قداسة المهمة

العلمية التى تقوم بها من أجل الإنسانية. فسوف أكون تلميذتك

وعشيقتك وزوجتك وخادمة ومادة علمية لك..

- ولكن ليست عندى أية قدرة. مطلقاً. لم أشعر بشيء. ولن أفعل

شيئاً مستقبلاً. صدقينى!

- شرف عظيم أن أتزوجك.

وتزوجا لمدة ٢٥ عاماً. وكانت حياة زوجية فاشلة عاصفة.

وحاولت الزوجة الانتحار ثلاث مرات. وحاولت أن تشغل نفسها

بالعمل. وبتأليف شركة سينمائية. وأنتجت أفلاماً. ثم أصابها

الجنون عندما علمت أن زوجها قد تعلق بفتاة عمرها ٢٤ عاماً.

وفى سنة ١٩١٦ ماتت الزوجة عندما أصابها إغماء شديد . فقد أصيبت بمرض السكر!

أما الزوجة الجديدة، فقد كانت تدرى عيوبه. وحاولت أن تشجعه وأن تخفف عنه. وأن تهون عليه.. وحدثت المعجزة. فلأول مرة وفى الستين من عمره، يجد نفسه رجلاً!

ولكن هذه السعادة كانت قصيرة جداً. فقد عرف هافيلوك أليس، أن زوجته على علاقة بأحد أصدقائه . هو الذى قدمه إليها قائلاً: عندما أكون مشغولاً حاولى أن تتسلى بالحديث إليه..

ونذهبت الزوجة إلى أبعد من التسلية، وظلت كذلك ٢٢ عاماً. وقد توفيت الزوجة سنة ١٩٧٤.

أما أبو التحليل النفسى: فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) فله مأساة أخرى. وفرويد هو الذى فسّر لنا الأمراض العقلية ودرس كل العقد النفسية واختار عقدة أوديب وعقدة الكترا وإرادة الموت.

إنه واحد من ثمانية أولاد. كان هو أحبهم إلى والديه. كان تلميذاً مجتهداً. ولم يكن متديناً، رغم أنه حريص على أن يكون عضواً بارزاً فى جمعيات صهيونية، وقد درس الجهاز العصبى والأمراض وأثرها فى الأعصاب وتعمّق فى التنويم المغناطيسى واستخدم الكوكايين كمادة علاجية..

وتزوج فى الثلاثين من عمره.. وعاش بعد ذلك أربعين عاماً حياة هادئة عائلية، محيطاً نفسه بعدد كبير من تلامذته النابهين.

وأحرق هتلر كتبه لأنه رأى فى هذه الكتب نوعاً من «الفجور اليهودى». وهاجر فرويد إلى لندن سنة ١٩٣٨. وذلك بعد أن دفعت

الأميرة اليونانية ماري بونابرت مبلغ ثلاثين ألف جنيه لألمانيا:
ثمناً لحرية فرويد وسفره هو وأسرتة إلى إنجلترا..

ولكن فرويد أخفى عن الناس حياته الجنسية وعلاقاته
المتنوعة. وفي المتحف البريطاني خطابات العاطفية والجنسية،
ولن يكشف عنها الستار إلا في سنة ٢٠٠٠ - بناء على وصيته. وإن
كان قد كتب لزوجته في سنوات الخطوبة مئات الصفحات الملتهبة.
مثلاً يقول لها: عندما نلتقى سوف تعرفين أننا أقوى: الفتاة
الضعيفة التي لا تأكل، أو ذلك الوحش الآدمي الذي امتلأ دمه
بالكوكايين!

هذه الزوجة قد تفرغت له تماماً. تعد له الطعام وتنظف الحذاء،
وتضع المعجون على الفرشاة. وأنجبت له ستة من الأولاد والبنات.
وكان يصر على تقبيلها رغم أن عشرين عملية جراحية قد أجريت له
في شفتيه بسبب الإصابة بمرض السرطان!
ولم تكن الزوجة سعيدة..

ولم ينس فرويد أنه أحب فتاة عمرها ١٦ سنة. وتقدم لها.
فرفضته. فاتجه فرويد إلى أمها، فطرده. فاتجه إلى أختها،
فضربته.

أما الحب الحقيقي عند فرويد فهو لأخت زوجته، كانت أجمل.
وأقدر على فهمه. وكانت تعمل سكرتيرة له. وتتنقل معه في أوروبا
وفي أمريكا، واعترف لتلامذته بذلك.

وعندما سافر فرويد إلى أمريكا سقط في غرام المومسات. ورأى
في ذلك النوع من النساء الخلاص الحقيقي لكل قيود الأسرة والدين
والشرف!

وهذا العالم العظيم الذى جعل الجنس أساسًا لكل تصرف إنسانى وكل سلوك وكل فكرة وكل قرار وكل هروب من قرار وكل مرض، هو نفسه لا يجد لذة فى الجنس العادى ولا الجنس الشاذ.. ومع ذلك كان يرغب زوجته على أن تقبله وأن تجد لذة فى ذلك.. أى لذة فى انعدام اللذة، أو فى عذابه وتعذيبه!

وقد أدمن فرويد: الكوكايين.. وكان يرى أن الإدمان - إدمان أى شىء - نوع من تحقيق اللذة ذاتيًا - أى دون أن يحتاج الإنسان إلى الآخرين. فذلك الخمر والتدخين!

وكارل يونج (١٨٧٥ - ١٩٦١) عبقرى «علم النفس التحليلى» سويسرى ألمانى. جاف غليظ ضخم. طويل عريض. له حاجبان منكوشان دائمًا. إذا تحدث إليك فأنت لا تعرف إن كان يريد أن يطلق عليك الرصاص أو يكتفى بإلقاءك من النافذة، مع أنه لا سبب هناك. ولكنه كان خشن العبارة. تزوج مبكرًا.

وقضى معظم الوقت فى الغابات يقطع الأخشاب، ويشعل الفرن، ويطهو. ويجد متعة كبرى فى أن يدخل المطبخ ويرتب الأطباق ويضع الطعام للأسرة. وعندما ضبط زوجته تقرأ أحد كتب الطهى، خطف منها الكتاب وألقاه فى النار بهدوء.

وكان من المعجبين بهتلر والنازية. ويرى أن اليهود يستحقون كل هذه الكراهية. فاليهود شعب مجنون. وجنونهم هو: العظمة.. فهم شعب مطرود مكروه من كل الدنيا، ويرون أن الناس يكرهونهم حقًا عليهم، لأنهم أغنى الناس وأعظم الناس. ولذلك فهتلر يقوم بتأديبهم نيابة عن البشرية؟!!

وعندما كان طفلاً اعتدى عليه رجل. ولم ينس هذه الحادثة حتى موته..

كثيراً ما تشاجر مع فرويد. وفي إحدى المرات أغمى على فرويد.
وحمله كارل يونج إلى سرير مجاور. وكتب كارل يونج فى مذكراته:
إن فرويد عنده شذوذ جنسى، لأن الإغماء فى حضور رجل هو
استسلام له..

وأحب كارل يونج فتاة ريفية، ثم أحب طالبة أيام الدراسة وكاد
يتزوجها، لولا أنه لاحظ أنها تحدثه كثيراً عن الحب والجنس..
وأحبته طالبة أخرى ويعثت لزميلاتها بهذا الخطاب: قررت أن
أتزوج هذا الرجل، وسوف أتزوجه. أعطونى مهلة شهراً واحداً!
وبعد شهر واحد كانت زوجته..

وقد بدأ الخلاف بين العروسين على الفلوس. فمن رأيه أنه يجب ألا
يخلط بين فلوسها وفلوسه.. واختلفا. وجاء محاسب قانونى فى شهر
العسل يفصل بينهما. واستمر هذا الزواج خمسين عاماً! وأنجبت له
خمسة أولاد.

وطوال هذا الزواج حاولت فتاة إنجليزية صغيرة أن تقنعه بطلاق
زوجته ولم تفلح، ولكن بقيت صديقة للعالم الكبير. وبعد وفاة
الزوجة، جاءت وأقامت فى بيته مديرة لحياته، وكان فى الثمانين.
وقال لها: لى شرط واحد.

قالت: اشترط يا أيها السيد!

- ألا تزعجيني وألا تجعليني أرى وجهك أو أسمع صوتك لأى سبب!
ووافقت.

وفى آخر أيام كارل يونج كتب هذه النصيحة لواحد من تلاميذه:
لكى ينجح زواجك، لا تكن مخلصاً!

ولكن بعد وفاة هذا العالم الكبير، بدأنا نعرف كيف كانت حياته

الزوجية، والعاطفية والجنسية. تقول زوجته: كأننى أعيش مع إنسان آلى.. فالقبلات والأحضان مثل «طابور الصباح» فى أية ثكنة عسكرية.. يقف كارل.. ويضع يديه إلى جواره. ويتقدم ناحيتى بخطوة منظمة ولا يرفع عينيه عن شفتى.. فأفهم أنه يريد قبلة.. ثم ينقل عينيه من شفتى إلى ذراعى. فأفهم أنه يريدنى أن أحتضنه فإذا جلس بعد ذلك على أحد المقاعد أمام السرير.. فالمعنى واضح.. وكأنه يستمع إلى صفارة حكم فى مباراة.. واحد.. اثنين إلخ.. إن لم تكن هذه هى جهنم، فكيف تكون؟!

أما مديرة البيت الإنجليزية فكانت تنظر إليه من ثقب الباب، فتجده جالساً معظم الوقت.. ثم يضع إصبعه فى فمه، ويظل يمص إصبعه طوال الوقت.. وبعد ذلك يميل على كتفه العارية يقبلها.. وأحياناً يضع أحمر الشفاه على كتفيه!

وتقول مديرة البيت وهى لا تفهم شيئاً: «طبعاً.. عبقرى!» حاول أن تفهم حياة هذه العالمة الجليلة من هذه العبارات التى جاءت فى كتب لها:

أنت لا تعرف معنى الزواج إلا بعد الطلاق!
كثيرون لم يتوقعوا لزواجنا أن ينجح، ولكنى أحتفل الآن بمرور شهرين على هذا الرباط!
المرأة ليست أعدى أعداء الرجل، ولكن من الممكن أن تكون وبسرعة ولأسباب تافهة!

الجنس مثل الفلوس: سخيّف جداً أن تتحدث عنه كثيراً!
الخلافاً بيننا عنيفة. لأننا نريد شيئين مختلفين: الرجل يريد المرأة، والمرأة تريد الرجل!

شرف المرأة مثل البصلة: طبقة فوق طبقة فوق طبقة!
المثل الأعلى للأبوة: أن تكون طفلاً مع طفلك!
ما تقوله الأم لطفلها في المهد، سوف يبقى معه إلى اللحد!
هناك أمهات لا تكف عن القبلات، وأمهات لا تكف عن الصفعات،
وأكثر الأمهات يفعلن الاثنين معاً!
لو كان من طبيعة الأب أن يعتنى بأطفاله، ما صدرت كل هذه
القوانين تفرض عليه ذلك!
من يداعب خد طفل، يداعب قلب أم!
ما دام في الدنيا أطفال يتعذبون، فليس في الدنيا حب!
الأم المثالية هي التي لم تلد ولكنها تبنت ثلاثة من الأطفال!
عندما تربي رجلاً فأنت تربي شخصاً واحداً، ولكن عندما تربي
امراً، فأنت تربي أسرة!
يجب أن تتناول بالتحليل هذه الرغبة الجنونية في زيادة النسل!
الرجل هو وسيلة المرأة للحصول على طفل!
من الصعب على أية أم أن تحب أطفالها ٢٤ ساعة من أى يوم!
كل إنسان هو شخص ممل جداً لإنسان آخر - تزوج وأنت تعرف!
الاحتفاظ بالجسم والروح معاً، ليس صعباً.. الصعب جداً أن تباعد
بينهما!
المرأة تتزوج لأنها لا تريد أن تعمل!
هذه السيدة البريطانية ماري أستوبس (١٨٨٠ - ١٩٥٨). ولدت
هي وأخواتها من زواج بلا جنس وبلا حب. فقد ولدتها أمها وهي في
الأربعين من عمرها. وهي أيضاً تزوجت وبقيت خمس سنوات عذراء.
وأعلنت في المحكمة عندما طلبت الطلاق: إنه الزوج!

وهزَّ الزوج رأسه بأن هذا صحيح ويؤسفه ذلك!
ومارى أستويس تخصصت فى النبات والحفريات النباتية
ودراسة المناجم. ولكن بسبب الفشل المتراكم فى حياة أمها وحياتها
وبعض صديقاتها اتجهت إلى دراسة الأسرة والزواج والحب والجنس.
وكان كتابها الأول «الزواج عن حب» وكتابها الثانى «الأبوة
العاقلة».

ثم اتجهت إلى تحديد النسل. وكانت أول من نادى بذلك. فأغضبت
الكنيسة. وكل الهيئات النسائية. ولكنها أصرت على أن أسباب
التعاسة العائلية هى أن أحدًا لا يعرف كيف يحدد النسل.
وأن كثرة الأطفال مع نقص المال، محطم للأسرة.. كما أن كثرة
الحمل والولادة مرهق لصحة الأم. وأقامت أول عيادة لتحديد
النسل. وأصدرت كتابها الكبير: «منع الحمل: نظرية وتاريخ
وممارسة».

كان زوجها الثانى أيضًا عاجزًا.
وتقول مارى أستويس: إن أول قبلة فى حياتها عندما كانت فى
الرابعة والعشرين. أما الذى قبلها فهو طالب يابانى يكره التقبيل!
وفى حياتها الزوجية ظهر شاب ترجم أعمال تولستوى إلى اللغة
الإنجليزية. وكان زوجها صاحب مصنع الطائرات يعطف عليه.
وأفسح له مكانًا فى البيت.. وأسعده أن زوجته سعيدة مع الشاب..
وفوجئ الزوج بأن العلاقة بين زوجته وهذا الشاب قد تطورت كثيرًا.
فكان الحب الذى لم تعرفه من قبل. وكان كل الذى حرمته وهى شابة
وهى زوجة.. فطرده من البيت!

تقول مارى أستويس فى مذكراتها أيضًا: كأنه القدر أراد أن

يدفعنى إلى أن أعرف مصدرًا آخر لتعاسة الأسرة.. أن يكون أحدهما عاجزًا، وأن يكون كاذبًا أيضًا، لماذا لا يتصارحان قبل وقوع الكارثة النفسية والعائلية؟!

تقول أيضًا: لم أفهم بالضبط ما الذى يقصده زوجى فى أول لقاء لنا قبل الزواج: يجب أن ننام فى سريرين منفصلين لأننى أتنفس بصوت مرتفع.. وأنت رقيقة وسوف لا تذوقين طعم النوم.

ثم قال: إننى أؤمن بأن الأمراض كلها تنتقل بالقبلات.. ولذلك عاشت القبائل البدائية فى صحة جيدة لأنهم لا يعرفون القبلات.. وإنما يتقاربون وتتلامس أنوفهم فقط.. لم أفهم.. ولا فهمت أيضًا عندما قال لى فى خطاب كنت أنتظره طويلًا: لو عرفت المرأة كم يكون شكلها بشعًا عندما تكون حاملاً، ما تزوجت امرأة قط.. إننا نحن الرجال أسعد حظًا!

والفلاسفة ليسوا أحسن حالاً، وإن كانوا يتظاهرون بغير ذلك.. فلقد انشغلوا بحل مشاكل الدنيا، ونسوا أن لهم مشكلة تستحق الحل.. وسوف نرى..



لست فيلسوفاً طوال الوقت!

حتى لو كنت ملكاً، فأنت لست ملكاً طوال الوقت..
وأنت تأكل وأنت تشرب وأنت تبكي وأنت تعاني من
الإمساك والإسهال.. وعندما يطلب إليك طفلك أن يركب
ظهرك أو تدخل معه تحت السرير تبحث عن كرة..
وشكسبير هو الذي قال: لا يكون الملك ملكاً أمام
خادمه.. لأن الخادم رآه عارياً ورآه حافياً ومنكوشاً..
ولكن فقط عندما يضع التاج ويجلس على العرش..
وهو لا يفعل ذلك إلا مرة كل عام!
وكذلك الفيلسوف ليس فيلسوفاً في كل تصرفاته..
فهو أحياناً حكيم، وأحياناً عبيط.. وأحياناً يحسبها
بالمليم، وأحياناً لا يعرف ما هو المليم.. وأحياناً يضع
السماء والأرض والكائنات في معادلة واحدة، وأحياناً
لا يعرف جدول الضرب.. وهو مع المرأة حيوان، وملاك..
ثم إنها لا تراه فيلسوفاً بل تراه مجنوناً!



لا أحد يعرف لماذا تزوج سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) زوجته، ولماذا هي تزوجته.. فهو أعظم الفلاسفة، وهي امرأة عادية أو دون ذلك.. فهي لم تكن تدري تمامًا من هذا الرجل الذي تلقى عليه خارج البيت، مع أنه لم يكن مخمورًا.. فقط ليس عنده فلوس.. ولا من هذا العبقري الذي تلقى عليه بماء الغسيل، فيضحك..

هل كان سقراط سعيدًا بذلك؟ يقال إنه كان كذلك، فقد كان مصابًا بالشذوذ الجنسي. هل كان تلامذته في مئات السنين سعداء؟ كانوا في غاية التعاسة إذ كيف يلقي أستاذ أساتذتهم هذا الهوان.. ولكن سقراط كان يضرب المثل الأعلى في الصبر والتسامح وكيف يمكن أن يكون الفيلسوف مضطهدًا من الجهلاء والضعفاء أيضًا؟

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) عاجزًا جنسيًا عندما لم يتزوج، وعندما لم يجد صديقة واحدة، ولكنه كان مشغولًا ببناء الكون.. فهو يضم مفردات الكون بعضها إلى بعض، ليجعل منها بناءً هندسيًا شامخًا. وقد استطاع. ولم يستطع أي شيء آخر. وكانت حياته منظمة بالدقيقة والثانية.. وكما كان يزن كل كلمة يقولها، كان يزن كل طعامه وشرابه وملابسه.. وفكر في الزواج مرة ثم نسي ما الذي يمكن أن يفعله.. وعاد إلى التفكير مرة أخرى.. وقرر أن يتزوج وعندما تلفت حوله لم يجد واحدة تناسبه.. ثم فكر مرة ثالثة وقرر واختار واحدة.. وفوجئ بأن هذه الواحدة قد ماتت قبل ذلك بعشرين عامًا.. وعدل نهائيًا عن الفكرة والقرار والبحث عن واحدة بعد ذلك!

أما آخر الفلاسفة العظام في العصر الحديث فهو كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) فهو سلالة عدد من الحاخامات. ولكن والده أصر أن

يجعله مسيحيًا، تفاديًا لمشكلة أن يكون الإنسان يهوديًا فى ذلك الوقت. ولم يكن ماركس متدينًا فى أى وقت. فمن رأيه: أن الدين أفيون الشعوب، وكان يكره الديانة اليهودية.

وفى السادسة من عمره أحب فتاة من النبلاء. وبعد ثمانى سنوات تزوجها - أهله غاضبون من ذلك، وأهلها أشد غضبًا لزواجها من مليونير عقليًا و«مديونير» ماديًا!

وقد أدت المقالات الثورية التى ينشرها فى الصحف إلى طرده من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. فأتجه إلى النشاط السرى فى الحركة الاشتراكية العالمية.

وفى باريس التقى بصديق العمر رفيق الطريق زميل الكفاح: فريدريش إنجلز: وهما معًا قد كتبوا «البيان الشيوعى» الشهير.. وفى سنة ١٨٤٨ التقى ماركس وإنجلز فى لندن. واستعدا معًا للرقصة الثانية - أى للثورة الثانية. ولكن خاب أملهما، فالشعب الإنجليزى ليس من السهل إثارته أو قلبه على نظام الحكم فى بلاده. وعاش ماركس على مقالاته القليلة. فقد كانت الفلوس هى مشكلة المشاكل فى حياته حتى موته، وبعد موته كان صديقه إنجلز ينفق على ما تبقى من أولاده، فقد كان له سبعة أولاد، عاش منهم ثلاث بنات، انتحرت منهما اثنتان. وقد علم ماركس أولاده أن يقفوا على الباب ليقولوا لكل دائن: مستر ماركس ليس هنا.. تعال غداً! وأقام ماركس فى المتحف البريطانى يجمع المادة العلمية لكتابه الضخم «رأس المال».

ولم يكن ماركس فى صحة جيدة قط.. فهو مرهق دائماً، وعنده متاعب فى الكبد وضعف فى عينيه. ولكنه لم يتوقف لا عن القراءة ولا عن الكتابة.. وتمضى السنون لا يستحم، ولذلك تغطى جسمه

بالدمامل. وكان عصبياً من السهل إثارتة لأي سبب تافه. وكان ينطق
بمثل هذه العبارات احتجاجاً على أى شىء: سوف أحطمه.. سوف
أمشى بحذائي على رقبتة.. سوف أضيفه إلى أكوام زباله التاريخ!
ثم أطلق ماركس لحيته ليكون شبيهاً بزيوس كبير آلهة الإغريق
الذى يحتفظ بتمثاله فى بيته.. وهو معجب به لأنه كبير الآلهة، ولأنه
لا يتعامل بالفلوس. لا يطلبها من أحد، ولا يطالبه بها أحد!
وتزوج الفتاة الوحيدة التى أحبها، وسافرا إلى سويسرا لقضاء
شهر العسل على نفقة أمها.. وفى الفندق تركا الفلوس على إحدى
المناضد، ليأخذ منها أى أحد إذا أراد!
ولما أنجبت له طفله الأول هربت به إلى ألمانيا وبعثت ب خطاب
تقول فيه: لن أعود إليك فلا أريد مزيداً من الأطفال!
وكان ماركس يقول فى خطاب لأحد أصدقائه: أنت لا تعرف مدى
العذاب الذى أشعر به وأنا أرى أطفالى التعساء، ودموع زوجتى التى
لا تنتهى.. إننى مستعد أن أقتلع أنياب الشيطان بحثاً عن الرغيف!
ثم أحب خادمتة. كانت فلاحه جميلة هدية من حماته.. وكانت
تدير البيت وتمسك الحساب بيد من حديد. وكانت تلاعبه الشطرنج
وتتفوق عليه. وفى سنة ١٨٥١ أنجبت منه طفلاً وتركته عند سيدة
أخرى. ولم يعترف به ماركس. وقد قابل هذا الابن مرة واحدة عندما
بلغ الثلاثين. وبقيت هذه الخادمة فى البيت إلى ما بعد وفاة زوجته.
وبعد وفاته هو ذهبت لتعمل فى بيت صديقه إنجلز.
ثم أحب سيدة إيطالية غنية.. وأحب إحدى قريباته التى تصغره
بـعشرين عاماً، والتى كانت إلى جواره عندما مات.. وكانت آخر
كلماته: عيناها خضراوان خطيرتان..
وكان ماركس جافاً غليظاً خشناً.. وكان يحب استخدام الألفاظ

النابية والنكت القبيحة ورغم كل ذلك كتب لزوجته يقول لها: صورتك أمامي. أقبلك من رأسك إلى قدميك. وأقول لك: أحبك.. إن في الدنيا نساء جميلات، ولكن أين هن من جمالك. كل شيء في وجهك كل تجاعيد وجهك تعود بي إلى أجمل الذكريات معك».

أما فيلسوف الكلمة القوية والعبارة الجميلة والعنف نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فقد ولد في أسرة محافظة. مات أبوه وهو في الرابعة من عمره فتركه لبيت كل من فيه نساء: أمه وخالته وأخته. وظهرت مواهبه الأدبية والفكرية مبكراً. وكان عليلاً، وكان معذباً بأوجاعه المختلفة مدى الحياة: الصداق النصفى وضعف النظر.

وقد عُيِّنَ مدرساً في الجامعة، ولكنه لم يستطع أن يقوم بهذه المهمة بسبب الصداق فاتفقت معه الجامعة على أن يمدّها بالأبحاث، وأن يتقاضى مكافأة سنوية على ذلك..

وكان على خلاف دائم مع أمه وأخته..

ومن أروع أعماله الفلسفية كتابه: هكذا قال زرادشت.. وفي هذا الكتاب أودع فلسفته كلها عن الإنسان والسوبر إنسان - أي الإنسان الأعلى: القوى النبيل المؤمن المتشدد.

وفي سنة ١٨٨٩ عندما كان يمشى في شوارع روما رأى رجلاً يضرب حصاناً بالكرياج ضرباً مبرحاً، فأغمر عليه..

ثم عاش مجنوناً بعد ذلك، حتى الموت!

وأكثر قصص الحب والغرام التي عرفناها عنه هي التي جاءت في كتاب له كتبه وهو في مستشفى الأمراض العقلية عندما تدفقت عبقريته بلا حدود. هذا الكتاب عنوانه «أختي وأنا» وقد احتفظ به أحد المرضى ولم ينشر إلا بعد وفاة نيتشه بخمسين عاماً.

وقد أحب زوجة الموسيقار فاجنر..

وأحب فتاة هولندية قابلها فى سويسرا، وعندما تقدم للزواج منها رفضته..

وقدم له الفيلسوف بول رى فتاة روسية اسمها سالومى أحبها آخرون غيره: العالم فرويد والشاعر ريلكه وهى فتاة ذكية. وحاول نيتشه أن يجعلها صديقة لأخته.. ولكن أخته غارت منها.. وأفسدت ما بينهما. وأخته هى التى أشاعت أن أخاها يكره اليهود، وكانت سالومى يهودية..

وفى الكتاب الذى ألفه فى مستشفى الأمراض العقلية روى أنه كان يحب أخته.. وأن هذه العلاقة قديمة.

ولكن الموسيقار فاجنر فسر اضطرابات هذا الفيلسوف بأنها بسبب الحرمان الجنسى والخجل الشديد.

يقول نيتشه: عرفت السعادة مع امرأتين: غانيتين.. وعرفت التعاسة مع امرأتين إحداهما جميلة جدًا ولكنها أختى، والثانية ذكية جدًا رفضت الزواج منى: سالومى..

أما أول علاقة جنسية فكانت مع سيدة عمرها ثلاثون عامًا وكان هو فى الخامسة عشرة. طلبت إليه أن يضربها بالكرباج أولاً.. وأفزعه ذلك! أما أبو الثورة الفرنسية وأحد أنبيائها روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) فليس صحيحًا أنه عاجز جنسيًا أو عاجز عن الحب عندما قال: أرسلت أولادى إلى بيوت اللقطاء.

والحقيقة أنه أنجب عددًا من الأولاد من زواج شرعى، ولكنه أرغم زوجته على أن توزعهم على بيوت اللقطاء. وفعلت. ولم نقرأ أو نسمع عنهم بعد ذلك!

وهو فيلسوف الإنسانية. فالإنسان طيب بفطرته. ولكن المدنية أفسدته. والإنسان البدائى هو الإنسان النبيل. والناس ولدوا أحرارًا،

وبعد ذلك تفننوا فى صناعة السلاسل والقيود.. والإنسان لكى يضمن سلامه وأمانه، لابد أن يتعاقد مع غيره من الناس على ذلك. فالتعاقد الاجتماعى، أو التعاقد الاجتماعى، شرط للسلام والسلامة.. ومع ذلك فقد كان قادرًا على أن يخسر كل يوم صديقًا. لأنه كان عنيفًا وكان عصبياً. وكان متقلبًا.

لم ينس حتى الموت أن أحد المدرسين قد ضربه على مؤخرته. كتب يقول: لم أكن أتصور أن هذا النوع من الضرب سوف يغير مسار حياتى: فلم أعد أجد لذة إلا فى هذا النوع من العقاب.. يقول فى اعترافاته: يجب أن أعرف واحدة، أحبها، وأركع عند قدميها. وتضربنى على مؤخرتى، وأن أطلب إليها الصفح، فلا تصفح، ولا تكف عن ضربى!

أحب إحدى الفتيات وكتب لها يقول: أحبك ولن أتزوجك. تزوجى أنت وسأبقى على حبى لك.. ثم تزوجها بعد ٢٣ عامًا!

وكانت جميلة بلهاء لا تعرف الحساب ولا أيام الأسبوع ولا مبادئ هجاء الكلمات. وأنجب منها خمسة أولاد.

وأحب واحدة متزوجة ولها عشيق.. ومنها أصيب بالزهرى الذى لازمه حتى موته. وكان يقبل «الأشياء» التى تملكها المحبوبة: مقعدها وملابسها وحذاءها ويحتفظ بين ملابسها الداخلية بملابسها.. واعترف بشذوذه الجنسى، فقد يجد المتعة الكبرى فى أن يقف فى مكان مظلم من الشارع، حتى إذا رأى عددًا من المارة نزع بنطلونه واستدار للناس.. وإذا صرخوا، كانت هذه هى المتعة الكبرى!

وبعد وفاته عرف الأطباء بعض مشاكله: فقد كان يعانى انسدادًا فى الحالب والتهابًا فى المسالك البولية مما جعل علاقاته الجنسية أليمة جدًا!

أما فيلسوف التشاؤم فى العصر الحديث فهو شوبنهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠)، وهو المسئول وحده عن المرارة والظلام فى حياة كثيرين من الأدباء والشعراء فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فهو قصير القامة دقيق الملامح كبير الرأس نافذ العينين. وهو دميم، عصبى، متقلب المزاج. إنه يجلس على نار تكويه ولا تشويه. ولذلك فكللماته لها لسع النار ووخز الإبر ومذاق السم، وكذلك أبوه الذى انتحر. وأما أمه فقد كانت تغار من شهرته، وكانت لها اجتهادات أدبية، ولكنها لم تكن لامعة. كان لها صالون أدبى، يضم كل أدباء عصرها، إلا ابنها. وقد التقت به فى إحدى المرات على السلم. دار الحوار بينهما عنيفاً، انتهى بأن ركلت ابنها بالشلوت فقال عبارته المشهورة: سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا بأنك أُمى! وهذا ما حدث.

وفى يوم عاد إلى البيت ليجد شاباً يقيم مع والدته. وضايقه ذلك. وقال لها: أرجو أن تختارى بين أنايتك السافلة، وبين احترام ابنك لك! فاختارت العشيق. وترك الفيلسوف البيت، ولم يرها بعد ذلك. أحب إحدى الجميلات. ولكنها لم تكن قادرة على حب رجل يحتقر المرأة، ويحتقرها بصفة خاصة. سافر إلى إيطاليا ولما سئل عنها قال: الخطيئة فى هذه البلاد ألا تكون لك خطيئة!

يقول: الجنس قوة قاهرة تتسلط على كل شىء وتقهره..

ويقول: المرأة هى أداة الطبيعة لاستمرار الحياة..

ويقول: المرأة ذلك الحيوان القمىء ضيق الكتفين، عريض الردفين، طويل الشعر واللسان، قصير النظر، بليد الحس.. ذلك الإنسان المشوه! ويقول: كلما ازددت معرفة بالرجال كرهتهم، كلما عرفت النساء ازددت احتقاراً لهن.. كلما أحسست أنه لا بد من الزواج، تمسكت بكبريائى!

وفيلسوف الوجودية سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) فى حياته حب واحد استمر خمسين عامًا. فقد أحب زميلته فى الجامعة الأدبية سيمون دى بوفوار. واتفقا على أن يكون بينهما حب، لا زواج، وبعد ذلك أيضًا على أن يكون بينهما حب وأن تمتلئ حياته بالأخريات، وحياتها بالآخرين. وتبقى الصداقة قوية كما هى. وأن يواجه كل منهما الملل والقرف، وأن يتخفف منه على النحو الذى يراه. ويبقى الحب كما هو.. وفى أول الأمر لم يستطيعا أن يتمسكا بهذه القاعدة. فعندما عرفت سيمون دى بوفوار أن فتاة روسية تعيش معه فى برلين، سافرت وسألت الفتاة الروسية عن طبيعة هذه العلاقة. فأجابتها: بأنها مؤقتة! هنا استراحت سيمون دى بوفوار وعادت إلى باريس، دون أن يعرف هو أنها قد سافرت من باريس إلى برلين، ولم يناقشها فى هذه الحادثة. ولكنها أيضًا عرفت رجالاً آخرين، ولم يعلق على ذلك..

وسارتر ابن ضابط بحرى. مات أبوه بعد ولادته بسنة واحدة.. وهو قصير القامة خجول دميم الشكل. ورغم سيطرة الأم عليه، فقد كانت له شخصية مستقلة قوية.

وفى الحرب العالمية الثانية كان يعمل فى إدارة الأرصاد الجوية. واعتقله الألمان. وسجنوه. وخرج من السجن يقاوم الاحتلال الألمانى. وفى سنة ١٩٦٤ حصل على جائزة نوبل فى الأدب. ورفضها قائلاً: إن هذه الجائزة إهانة له. فقد منحها له القوى الرجعية فى العالم. ومعنى ذلك أنه هو أيضًا رجعى. ولذلك رفضها، دفعًا لهذه التهمة عن فلسفته وعن شخصه..

وأول لقاء له بصديقة العمر سيمون دى بوفوار كان سنة ١٩٢٩، وكانت مبهورة بعقليته الفذة. واتفقا على الحب بلا زواج. واتفقا على إنعاش هذه العلاقة بصداقات أخرى كثيرة.

وأحبت سيمون دي بوفوار كاتباً يهودياً فرنسياً. ولما جاء سارتر وسيمون إلى مصر، كان معها عشيقها لانسمان رئيس تحرير مجلة «العصور الحديثة»..

وتبنى سارتر فتاة يهودية جزائرية اسمها أرليت لاقيم، وترك لها كل مؤلفاته. وكان في نيته أن يتزوجها حتى لا تتعب في جمع ثروته. ولكنه وجد في هذا الزواج إهانة لسيمون دي بوفوار بعد أن تركت عشيقها. ومنذ سنة ١٩٥٨ تفرغت تماماً لسارتر. وبقيت كذلك حتى موته.. وبعد وفاة سارتر ظهرت له ألوف الخطابات، جمعت في كتب ضخمة.

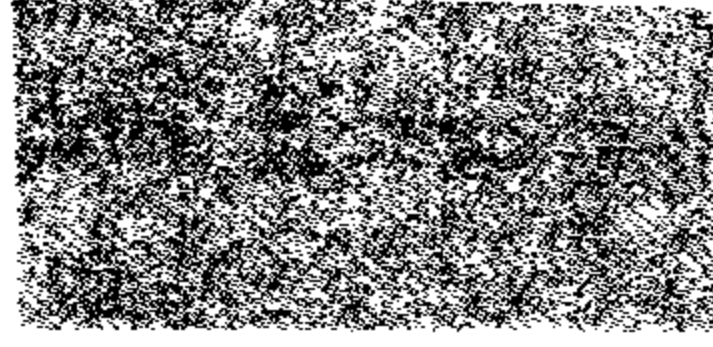
وفي أحد هذه الخطابات كتب لأديبة ناشئة يقول: أه.. لو تقدمت ثلاثين عاماً لوضعتك إلى جوار سيمون.. ورحت أقارن بينكما: أيكما أقدر على فهمي.. أيكما أقدر على احتمالي.. أيكما أخف وزناً على أعصابي.. أيكما أقل معارضة لسخافاتي.. أيكما ترعاني بشفتيها، دون أن تضايقني بذراعيها.. أيكما تقرر في اللحظة الأولى عند رؤيتي: لو كان زوجي لطلقته.. ولو طلقته فلن أقوى على الابتعاد عنه.. أيكما يربطني بخيط من الحرير طوله ألف كيلو متر.. ثم لا يجعلني أشعر بذلك.. لا بالرياط ولا بالحرير؟!

وفي رسالة أخرى يقول: نحن الفلاسفة متقلبون. فنحن نزهد ما في أيدينا، ونحطم رءوسنا بحثاً عن الذي ليس في أيدينا.. في يدي أن أحبك. وأن أشجعك على أن تحبيني.. والذي ليس في يدي هو أن أتخيل نوعاً من العدل الكاذب بعد وفاتي.. حين يقول الناس: كان فيلسوفاً.. كان عظيماً.. ولكننا لم ندرك ذلك.. ولو أدركنا لوضعناه فوق رءوسنا، وأرحناه.. وجعلنا طعم الحياة على لسانه أجمل وأمتع.. ومسحنا الضباب من طريقه، وأزلنا النساء من فراشه إلا

التي يختارها.. هذا هو العدل الكاذب الذي أتخيله، مع أنه لم يحدث لأي فيلسوف من قبل، ولن يحدث.. ولكن هذا هو مرض الفلاسفة الذين يتوهمون أن لهم عمراً بعد أعمارهم.. ويتوهمون لو كانت لهم زوجة عاشقة، لفعلت ذلك نيابة عنهم.. ولكن بالله لماذا لا تقتنع الزوجات بالعدل إلا بعد موته.. لماذا لا يتحقق ذلك وهو على قيد الحياة.. إنها هي الأخرى مخدوعة مرتين.. مخدوعة عندما تزوجت فيلسوفاً ومخدوعة عندما تخيلت أنها قادرة على تحقيق العدل.. إن المرأة لا تكره العدل، إلا إذا كان في صالحها.. والعدل الذي تراه هو أن يكون زوجها ظالماً!

تقول سيمون دي بوفوار: كنا نتشاجر كأننا زوجان، وكنا نتصالح كأننا عشيقان. مرة واحدة اختلفت معه وقررت أن أترك له البيت فوراً.. ولكن سارتر أخجلنى قائلاً: ولكننا في بيتك!

وفي فيلم تلفزيوني ظهرت السيدة سيمون دي بوفوار والدموع في عينيها تقول: كان زواجنا أكبر من الحب، وكان حبنا أكبر من الزواج. كان سارتر فيلسوفاً خمسة أيام في الأسبوع، وكان شاباً مشاكساً يوماً من كل أسبوع، وكان طفلاً في اليوم السابع، ولكنه كان دائماً الحب الأول والأخير في حياتي!



أبطال الحرب.. أسرى الحرب

اثنان فى دنيا الحرب والحب ليس لهما نظير: بشر
ابن عوانة العبدى أحد شعراء الجاهلية.. ورومل: ثعلب
الصحراء.

فكان بشر العبدى يركب حصانه ويشهر سيفه
وفجأة يظهر له من بين الصخور أسد.. ويتهجم على
الأسد ويضربه ويقتله ويتمنى لو كانت «فاطمة»
هناك لترى شجاعة ويسالة وتضحية «بشر» من أجل
نظرة من عيني المحبوبة..

ويقول بشر العبدى:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت
وقد لاقى الهزير أخاك
إلخ..



وبعض أبطال الحرب، صرعى الغرام.. فأبطال الحرب ليسوا دائماً أبطال الحب.. إن القائد العسكرى ليخوض فى الجثث والدماء، وينفض عن أذنيه صراخ الجنود وزئير الأسود، وصهيل الخيول، وزمجرة المدافع ثم ينام نومًا عميقًا.. ولكن عندما تموء هرة المحبوبة، فإنه لا ينام، يتقلب على بساط من الشوك.. أليست قطعة ضعيفة لامست يدي المحبوبة وتمرّغت فى أحضانها.. فهى - إذن - أروع مخلوقات الله - هذه العبارات منسوبة للإسكندر الأكبر..

وبعض أبطال الحرب عندهم براعة فى تكتيك الغرام، ولكنهم ضحايا الاستراتيجية.. أى قادرون على الحب السريع، فاشلون فى الزواج الطويل..

مثلاً لورد نلسون (١٧٥٨ - ١٨٠٥) بطل الحرب ومعبود الجنود والجماهير. قطعت ذراعه اليمنى فى معركة جزر الكنارى، وأصاب الفرنسيون رأسه فى معركة أبى قير، ثم قتلوه فى معركة الطرف الأغر.

وقد وصفه معاصروه: بأنه كومة من العظم فى بدلة عسكرية! تزوج أرملة إنجليزية كانت تعيش فى أندونيسيا. ثم أرسل إلى نابلى بإيطاليا ليجمع قوات ضد الفرنسيين. وفى نابلى التقى بالليدى هاملتون (٣٣ سنة) زوجة السفير البريطانى. دخلت أعماقه من أول لحظة.. «جميلة ذكية»، العينان رماديتان والشعر كستنائى.. وكانت أجمل نساء زمانها.

وعندما كانت فى السابعة عشرة من عمرها، طلبت من أحد الضباط أن يطلق سراح جندى قريب لها. وفعل. وقدمت نفسها ثمناً

لذلك. وعرفت كم يساوى جمالها. وعرضت نفسها «موديلا» لعدد كبير من رسامى ذلك العصر.. ثم تسلت إلى فراش لورد هاملتون وتزوَّجته.

وانشغل هوراشيو نلسون بهذه السيدة الجميلة، رغم أنه كان غارقاً فى الخمر والنساء. وبعد خمس سنوات عاد إلى نابلى وكان قد أصبح أسطورة أوربا كلها. أكثر نحافة. أعرج. وقد تحطمت أسنانه ثم هو يسعل كثيراً. ولم تكذ تراه «إيما» هاملتون حتى صرخت: لا أصدق.. دعنى أصدق ذلك!

وألقت بنفسها عليه..

وكانت إذا انفردت به قدمت له الخمر يشربها من كفيها.. ثم ترقص له على نار هادئة.. وحملت منه وأنجبت فتاة أطلقت عليها اسم «هوراشيا» تيمناً باسمه.. ولم تعد سراً هذه العلاقة. حتى أن الملك جورج الثالث عندما قابله راح يهمز ويلمز. ولكن نلسون كان أكبر من كل ذلك. فهذه حياته. وهو حر.

وعندما مرض اللورد هاملتون جلس نلسون وعشيقتة إلى جواره حتى مات سنة ١٨٠٣.

وقبل استدعائه لمعركة الطرف الأغر جنوبى إسبانيا، كان نلسون يشعر أن هذه آخر معاركه. وأنه لن يعود. وفى المعركة ظهر على سطح السفينة بكل نياشينه العسكرية، وحاول مساعدوه أن يمنعوه. ولكنه رفض. والفرنسيون الذين أطلقوا عليه النار سدوها إلى النياشين.

ثم كرمه الشعب الإنجليزى وكرم زوجته أيضاً. أما عشيقته فقد استبعدوها تماماً. وكان عليها أن تواجه الدنيا وحدها.. عاشت للخمر، ودخلت السجن وفاء لديونها.. وماتت نصف مجنونة سنة ١٨١٥ عن ٥٤ عاماً!

أما عبقرى الحروب الحديثة نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) وأول أباطرة فرنسا، ومؤسس الدولة الفرنسية الحديثة وراعى إصلاحها القانونى والاقتصادى والإدارى، فله عشرات القصص.. بعضها يرويها على سبيل الفخر والقرف.. وبقية القصص ترويها الفتيات والسيدات.. وآخر غراميات نابليون كانت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها، ابنة حارس جزيرة «سانت هيلانة» التى نفى إليها ومات بها..

وفى الثلاثين من عمره كان نابليون سيد فرنسا. وأقام حكومة عسكرية مطلقة، يحميها الدستور.. وهزمه الروس فى معركة ليبسيج سنة ١٨١٣، واستسلم.. ثم هرب من جزيرة ألبا، ليحكم فرنسا مائة يوم، حاول أن يسترد عرشه وشعبه، ولكنه فشل.

وكانت آخر معاركه هى معركة ووترلو سنة ١٨١٥، عندما هزمه ولنجتون القائد الإنجليزى. وقد تزوج نابليون مرتين. وكان هذا البطل العظيم خجولاً. وأول غرامياته كانت مع سيدات يكبرنه فى السن. حاول أن يتزوج منهن، فرفضن.. فقد وجدنه صغيراً جداً!

وفى سنة ١٧٩٦ تزوج عشيقة أحد أصدقائه: غنية وقادرة على حمايته اجتماعياً. وأحبها. وفوجئ نابليون وهو إلى جوارها فى شهر العسل أن هاجمه كلبها وعقره فى عنقه. وغضب نابليون. فلم يكن يعرف أن له شريكاً من الكلاب! وعرف بعد ذلك أن الكلب ليس إلا واحداً من عشاق كثيرين!

ورافقته إلى مصر عشيقة تنكرت فى ملابس الضباط وكانوا يسمونها «الجنرالة» أو «سيدة الشرق».. وكانت تسكن فى بيت مجاور لمقر القيادة العسكرية بالقاهرة.. اسمها بولين مورنس (٢٠ سنة).. وكانت ترتدى قبعة من الريش الذهبى وينطلونات

سوداء محزنة جداً.. وكانت إذا غضبت منه ارتدت فستاناً. وإذا رضيت عنه ارتدت زياً عسكرياً فى الفراش.. وقد أسر الإنجليز سفينة كانت هذه الجنرالة على ظهرها. فأعادوها إلى مصر - إمعاناً فى السخرية من نابليون!

ثم التقى بفتاة بولندية اسمها ماريافالفسكا - قدمها البولنديون للقائد البطل، كما كان المصريون القدماء يلقون بعروس إلى النيل، طمعاً فى أن يفيض بالماء والخيرات. وقد بهره جمالها وزكاؤها وإخلاصها له. وكتب لها، وكتبت خطابات من نار، فى منفاه.

وطلق نابليون زوجته الأولى، فهى لم تنجب له أحداً. واختار زوجة نمساوية بعد أن تأكد أنها من أسرة أنجبت الكثير من الأولاد، فكان مثل أى فلاح يريد أن يشتري بقرة أو جاموسة.. وكان يتولى بنفسه البحث عن شجرة العائلة وعرف عدد البنين والبنات فى الخمسين عاماً الماضية.. وأنجبت له ولداً سنة ١٨١٠. وكان نابليون العظيم يميل إلى الشباب الوسيم.. يداعب شعورهم وأذانهم وأفواههم.. ويدخل يده فى صدورهم.. ولذلك كان كل مساعديه من أجمل رجال الجيش الفرنسى.

وفى المكتبة الأهلية بباريس خطابات غرامية بعث بها نابليون إلى جنوده وضباطه.

يقول نابليون: تمنيت أن أشق الشعراء جميعاً فهم يتكلمون كثيراً عن الحب. وهذا ترف لا يقدر عليه جندى مثلى. لولا أننى أحترم الفن وعبقريه الإنسان.

ويقول: فى الحرب أعرف بالضبط ما الذى سوف أعمله.. فى الحب لا أعرف شيئاً!

ويقول: لو تفرّغت للحب كما تفرّغت للحرب ما أبقيت امرأة فى
حضن زوجها!

ثم يقول: الحرب.. البحر.. الحب.. وأقرب الأصدقاء: لا أمان لهم!
دوق ولنجتون (١٧٦٩ - ١٨٥٢) ولد فى نفس السنة التى ولد بها
نابليون الذى انتصر عليه فى معركة ووترلو.
وهو أيرلندى الأصل. وشخصيته غير جذابة. جاف خشن. قرر أن
يكون جنديًا. وهو إذا تكلم فكأنه مدفع رشاش: كلماته تخرج بسرعة
وعباراته ناقصة..

تزوج الفتاة التى رفضته. فقد كان ضابطًا صغيرًا عندما تقدم لها
وكانت هى من أسرة نبيلة. قالت له الأسرة: ولكنك لا تستطيع أن تفتح
بيتًا. مرتبك لا يكفى لشراء خشب للموقد. وكان رده: سوف تتغير
الظروف، ولكن سيظل قلبى عاشقًا لها.

وعندما تدرج فى العسكرية وأصبح لامعًا، بعثت إليه الأسرة تقول:
الآن يمكنك أن تتزوج ابنتنا! وتزوجها.. وأنجب ولدين.

وأبعدته الحروب عنها. حتى جاءت معركة ووترلو. وانتصر على
نابليون. وأحب ممثلة فرنسية. وكانت هذه الحسناء الصغيرة تقول:
لقد كنت عشيقة نابليون ولنجتون.. ثم تهزكتفها قائلة: وكان
ولنجتون أفضل!

وفجأة ظهرت مذكرات امرأة لعوب اسمها هارييت تروى
غرامياتها مع المشاهير وتهدد عشرات آخرين بأنهم إن لم يدفعوا
مائة جنيه، فسوف تفضحهم.. كثيرون بادروا ودفعوا.. إلا ولنجتون
قائلًا: كثيرات سوف يفعلن ذلك.. تشرفًا بهذه العلاقة أو ادعاء لها!
وكان يعيب على زوجته أنها اكتفت به.. فهى لا تبذل مجهودًا فى
حمايته من الأخريات.

وكان يقول: إنها تحتاج إلى جهد مضاعف. ولكن قدرها أن تتزوج رجلاً مشهوراً تدور الكواكب من حوله ليلاً ونهاراً. ثم إنه بشر. ويعيب على زوجته أنها إذا ركبت عربة إلى جواره راحت تقرأ فى الكتب متجاهلة الجماهير على الجانبين!

ولكن عرفنا فيما بعد أن زوجته لم تكن تفعل ذلك تعالياً، وإنما لأنها مصابة بقصر النظر.. فقد كانت لا تقوى على تمييز وجوه الناس. وكانت تخشى أن تصادف أحداً تعرفه، ثم لا تحييه فيغضب!

وهذا الضعف فى النظر هو الذى يجعل كثيراً من الناس يلجأون إلى حيلة معروفة: فهم دائمو الابتسام.. ويكون ابتسامهم نوعاً من الترحيب العام لمن يعرفون ولمن لا يعرفون، لمن يكرهون ولمن يحبون!

وفى يوم تلقى ولنجتون نسخة من الكتاب المقدس من إحدى الراهبات. ذهب إليها يشكرها، جميلة. مثيرة. حاول معها. فاشتربت أن يطلق زوجته. فرفض.. وظلت على هذا الحب ١٧ عاماً حتى مات.

وحاولت كثيرات بعد وفاة زوجته.

وقد اعترف ولنجتون فى آخر أيامه: ولا امرأة واحدة قد أحببتنى.. ولا واحدة. لقد قلن كثيراً جداً. ولكنى لم أصدق شيئاً من كل ذلك! أما لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) أول رئيس لروسيا السوفياتية وأبو ثورتها ودولتها الحديثة وأقوى شخصية سياسية فى القرن العشرين، فلم يكن بهذه القوة دائماً - مع المرأة.

فهو من أصل ألمانى يهودى. له خمسة من الإخوة. هو ثالثهم. وفى سنة ١٨٨٧ شنقوا أخاه، فقد تآمر على اغتيال القيصر إسكندر

الثالث. وبعد ذلك بشهور اعتُقل لينين لاشتراكه فى مظاهرات الطلبة.

وفى سنة ١٩٠١ اختار لنفسه اسم «لينين».. وهو رجل قصير ممتلئ الجسم.. أصلع.. له عينان مغوليتان.

وقاد الثورة السوفياتية ٢٢ عامًا فى منفاه بسيبيريا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وبولندا.. ولما قامت الثورة ضد آل رومانوف سنة ١٩١٧ أيقن لينين أن هذه فرصته. وأن القدر قد ناداه لإنقاذ الشعب الروسى. وحاول كثيرون أن يسرقوا منه السلطة. ولكنه استطاع أن ينفرد بها وكان جريئًا عنيفًا دمويًا. ومات مسمومًا.

أحب ثلاث نساء كنَّ مثله غارقات فى الثورة. والرابعة ضايقها هذا الاندماج والاستغراق فى السياسة فهجرته وهربت منه.

أول حب له كان من أبولوناريا.. يهودية كانت تكتب له المنشورات وتوزعها وتنظم كل اللقاءات السرية. وتقدم لها سنة ١٨٩٥ فرفضته؛ لأنها لم تستطع أن تحبه!

وأحبته ناديزاده.. وحكم عليه بالنفى، وعليها بالسجن. فطلبت أن تلحق به.. ووافقت السلطات بشرط أن يتزوجا. وتزوجا. وكانت تعشق زوجها الذى هو الثورة. وكانت هى زوجته وعشيقة وسكرتيرته وطاهيته وعضوًا فى الحزب.. وظلت كذلك حتى موتها..

ثم كان على علاقة بواحدة مطلقة غنية وكان يعقد الاجتماعات السرية فى بيتها فى ليننجراد.

وظلت هذه العلاقة تسع سنوات. وكانا مختلفين تمامًا: هى أرسقراطية رفيعة فنانة، وهو فوضوى عنيف خشن دموى.

وقابل فى باريس زوجة اسمها أنيسة.. دعتة أن يعيش معها ومع زوجها.. ورافقته فى كل مكان يذهب إليه.. ولما ماتت سنة ١٩٢٠

سار فى جنازتها. ولم يستطع أحد أن يتحدث إليه فى أى شىء. ولما لاحظ الرفاق أن هذا العملاق الجبار يبكى أدهشهم ذلك؛ لأنه كتلة من الحديد والجليد.. ويقال إن صحته ساءت بعد وفاتها حتى مات.

ولسبب غير معروف كان موسولينى (١٨٨٣ - ١٩٤٥) لا يستحم إلا نادرًا. وكان يكره المرأة التى تستحم كثيرًا، ولا يطيق المرأة التى تضع عطرًا. ولذلك كان يفضل الفلاحات والخادومات.

وموسولينى هو زعيم إيطاليا عشرين عامًا. أبوه حداد وأمه مدرسة. طُرد كثيرًا من المدارس لأنه كان يستخدم السكين فى المناقشة مع زملائه. وكان طالبًا ذكيًا. وقد اشتغل بالتدريس فى سن صغيرة. وفُصل من المدرسة بسبب هذا الأسلوب العنيف فى التفاهم، أو فى عدم القدرة على ذلك.

ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره، كان قد سجن ست مرات بسبب إثارة الشغب ضد الحكومة. وأصبح شهيرًا؛ لأنه خطيب جماهيرى؛ ولأنه ثورى عنيف.

واشترك فى الحرب العالمية الأولى، وعندما عاد مشيًا على قدميه إلى روما، تعلم فى الطريق مشية الأوزة - التى نقلها هتلر بعد ذلك.

ونجح فى تنظيم الحزب الفاشى لمحاربة الشيوعية والاشتراكية، وكان أتباعه نصف مليون.. وفى سنة ١٩٢٢ نجح فى أن يفرض على الملك إيمانويل أن يجعله رئيسًا للوزراء - وهو فى التاسعة والثلاثين.. أما هدفه فهو أن تتوسع إيطاليا لتشمل البحر الأبيض المتوسط. وكان يقول: إن البحر الأبيض بحيرة إيطالية..

وكان يقول أيضًا متلاعبًا باللغة الإيطالية: إن البحر ليس هدفًا، وإنما هو طريق إلى هدف أبعد من ذلك!

ولكن ساء حظه عندما ارتبط بالنازية وهتلر حتى أقيل من كل

مناصبه سنة ١٩٤٣.. وبعد سنتين لم يجد أحداً من الألمان يحميه،
فأعدموه رمياً بالرصاص!

وكان موسوليني يؤمن بالحظ ويتشاءم بسرعة. فكان يكره أن يرى أحداً أعرج. أو يرى مظلة مفتوحة ويضع فى جيبه تمثالاً للقديس أنطونيو. وكان يغمى عليه إذا شم رائحة الأثير.. أو رأى جثة!
وكان يحب الأفلام الهزلية، ويقضى الليالى يتفرج عليها. وليس مهماً أن يتابع أحداثها ويرى فى ذلك نوعاً من الراحة والاستجمام والعلاج.

وقد عرف مجموعة كثيرة من النساء يلتقى بهن بسرعة فى أى مكان عام أو خاص. ولا يطيق أن تنام امرأة إلى جواره. حتى زوجته! ولما تقدم لخطبة فتاة اسمها «راكيلا» رفضته.. وهدد أمها أن يقتلها بالرصاص، وأن يقتل نفسه فى سريرها. فوافقت على زواجه من ابنتها. وكان عنيفاً فى معاملة زوجته التى أنجبت له كل أولاده. وفى أحد الأيام عاد مخموراً وحطّم كل ما فى البيت.. فأمسكت الزوجة سكيناً تقول: إذا عدت مخموراً مرة أخرى، فسوف أقطع رقبتك!

وكان على يقين من أنها تعنى ما تقول. ولم يذق الخمر بعد ذلك! ولكن حبه الطويل كان لفتاة أخرى أصبحت شهيرة هى: كلارا بتاتشى. ولم يخف هذا الحب عن أحد.. حتى عن زوجته.
وفى يوم زارتها زوجته ورأت الأبهة التى تعيش فيها وقارنت بين حالها وحال العشيقة. وعندما ودّعتها قالت لها: إن زوجى لا يستخدم الماء. والصابون.. وكنت أظنه الوحيد فى العالم، حتى وجدتك أنت أيضاً. فأى نوع من الخنازير أنتما!

ثم كانت هذه النبوءة: أرجو أن أراك فى ميدان الدعارة!

وعندما أُعدم موسوليني كان في هذا الميدان، وعلّقوه من ساقيه.. وكانت معه عشيقته كلارا ورفضوا أن يقتلوهما. ولكنها توسلت لهم وهي راكعة عند قدميه أن يقتلوهما معه. وأعدموها. وعلقوها من ساقيهما.. ولما انقلب فستانها على رأسها، تقدمت بعض السيدات يغطيها!

أما التفسير الطبى لعقلية موسوليني فهو أن قراراته عنيفة متضاربة. وخطبه غير متماسكة.. وسبب ذلك أنه أصيب بالزهرى فى سن مبكرة. ولم يشأ أن يعالج نفسه، رغم إلحاح مساعديه وعشّاقه.. فانتقل الزهرى إلى المخ!

أما أقوى زعيم فى القرن العشرين هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) فهو رجل صحيح من الناحية الجنسية. وليس كما أشيع عنه وذلك بشهادة أعدائه وأصدقائه.

وهو مؤسس الحزب «النازى» أى حزب العمل الوطنى الألمانى الاشتراكى، حكم ألمانيا ١٣ عامًا، وأزهق أرواح ثلاثين مليون نسمة.. من بينها ملايين من اليهود والفجر وخصومه السياسيين - وضعهم جميعًا فى أفران الغاز!

كان هتلر يحلم بأن يكون رسّامًا.. تقدم لأكاديمية الفنون فى فيينا سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ بلوحتين. رُفِضت اللوحتان.. فقرر هتلر أن يجعل من أوروبا وآسيا وإفريقيا لوحات من الدم والحديد والنار والدموع.

اشترك فى الحرب العالمية الأولى، وكان جنديًا شجاعًا. حصل على نياشين عسكرية. أصابته الغازات السامة فى حلقه. ولذلك كان صوته الساحر أجشّ غليظًا رنانًا، استولى على ملايين الألمان. فدفعهم إلى الإيمان به والسير وراءه فوق جثث الملايين فى أوروبا وروسيا.

ودخل السجن. وفي السجن ألف إنجيل النازية، قصة حياته بعنوان «كفاحي» وفي سنة ١٩٣٣ أصبح مستشاراً لألمانيا.. وكانت له قدرة فريدة على تنويم الجماهير.. واستطاع أن يقضى على خصومه السياسيين مستعيناً بقوته الخاصة من أصحاب القمصان البنية.

أما فلسفته فتقوم على إيمانه المطلق بسيادة الجنس الآرى وتفوقه على الأجناس الأخرى وهذا الإيمان هو الذى جعله يفتك باليهود.. ثم استولى على منطقة الراين التى كان يحتلها الحلفاء واسترد النمسا ومنطقة السوديت فى تشيكوسلوفاكيا. . وبعدها غزا أوربا تمهيداً لفرض سطوته على العالم - لمدة ألف عام!!

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ زحفت مدرعاته على بولندا، وبدأت الحرب العالمية الثانية، التى كان يديرها بنفسه، متجاهلاً نصائح خبراء الحرب الألمان.

تأمر عليه قواده سنة ١٩٤٤. وفشلت المؤامرة. واعتقلهم وعذبهم تعذيباً بطيئاً بالأسلاك الكهربائية والنار والغاز.

وفى سنة ١٩٤٥ انتحر هتلر فى مخبأ تحت قصر المستشارية فى برلين، ومعه زوجته إيفا براون. وليس صحيحاً أنه مصاب بشذوذ جنسى من أى نوع. إنه رجل هادئ.. لطيف مع المرأة.. عطوف على الأطفال. أحب فتاة بافاروية اسمها إيفا براون. نموذج للريفية الألمانية: لا ثقافة.. لا ذكاء. فقط تحب أن تكون إلى جواره.

وكانت مرحلة. وقد ظهرت فى حياته فتيات كثيرات كانت لهن نهاية واحدة: الانتحار بالرصاص والسقوط من مكان مرتفع.. وكان الجستابو، جهاز المخابرات الألمانية، هو الذى يدفعهن إلى ذلك.. حرصاً على سلامة هتلر.. وخوفاً من أن يُذعن أسرار الأمن القومى

والنشاط الداخلى لهتلر سياسياً وعسكرياً.. ومن بين اللاتى انتحرن ابنة أخته ولنفس السبب!

وكان لهتلر هواية التقاط الصور للفتيات عاريات، وقد اتخذن وضعاً خاصاً. وكان يقول: إن هذا الوضع أعرفه أنا وحدى حتى إذا وقعت هذه الصور فى يد أى أحد آخر فلن يعرف من هى صاحبته! وأخيراً ثعلب الصحراء رومل (١٨٩١ - ١٩٤٤) أعظم قادة الحرب الألمان فى معارك الصحراء وفى بناء حائط الأطلنطى - وهذا رأى جميع العسكريين والمؤرخين. فهو جندى من الدرجة الأولى، وضابط شجاع ذكى، بعيد النظر. أما علاقته بجنوده فهى شخصية. وهو مثلهم الأعلى؛ لأنه يقدمهم على رجليه وعلى سيارته وعلى دبابته. ولم يقع جندى واحد فى الصفوف الأولى لم يجد رومل إلى جواره.. وفى مرات كثيرة كان الجنود يحاولون بصعوبة أن يقدموا له التحية وهم غارقون فى الدم، فكان ينحنى على أيديهم يقبلها.. ويترحم عليهم وسط الغبار والنار..

لقد حارب الحلفاء فى شمال إفريقيا فبهرهم وقهرهم. وفى سنة ١٩٤٤ اتهموه بأنه تآمر على هتلر. والحقيقة أنه لم يفعل. ولكنه كان صديقاً للمتآمرين. واعتقلوه مع اثنين من القادة الكبار.

صحيح أنه كان ينتقد هتلر، وأخطاءه العسكرية الفادحة. ولكن لم يفكر فى اغتياله. وخيروه بين المحاكمة وبين أن يموت بيده.. فاختار السم!

وقد تزوج رومل الفتاة لوسى مولين سنة ١٩١٦. جميلة. داكنة الشعر. قوية الشخصية. وسيطرت عليه تماماً. فكانت هى الجنرال وهو الجندى الصغير. ولم يكن يخفى حبه لها. وكان يقول: لا بد أن

يكون هناك جنرال فى كل مكان، هو وحده الذى يلقى الأوامر ويتابع تنفيذها. وزوجتى هى هذا الجنرال!

وعندما أصبح بطلا.. أسطورة، كان يتلقى ألوف الخطابات من ألوف البنات. فكان يقرأ الخطابات ويرى الصور الرائعة ويضحك قائلاً: إنهن جميعاً يقدّسن لحظة واحدة من حياتى عندما أصبحت بطلاً.. ولكن زوجتى كانت تقدر كل اللحظات قبل ذلك عندما لم أكن شيئاً!

وكل هذه الخطابات محفوظة حتى الآن فى متحف الأسرة. وله ولد واحد هو مانفرد عمدة مدينة اشتجارت..

ولم تكن صناعته الكلام. فكان يعلق على الخطابات قائلاً: جميلات مثيرات ولكننى قررت أن أكون مخلصاً للجنرال زوجتى! وقبل أن يتناول السم التقى بابنه وقال له ضاحكاً: انتهى كل شىء. لن ترانى يا ولدى بعد اليوم.. ولا تهم كل هذه الانتصارات العظيمة التى حققتها.. ولكن من المؤكد أننى وفرت الهدوء فى البيت.. فلن أوافق على أن تشتري أمك البيانو الذى كانت تتمناه! فقد كانت رديئة الأداء!

كلمة لوقالها زوجها لعاش أبرياء كثيرون!

يقول كازانوفا فى كتابه «تاريخ حياتى» الذى امتد ١٢ مجلداً: وجدت نفسى أتعلق بفساتين النساء. ولا أدعى أننى أكثر الناس فهماً للمرأة ولكننى أكثرهم إلحاحاً واحتمالاً لأحذيتها.. ولا توجد امرأة تستطيع أن تقاوم رجلاً يطيل النظر إليها..

ويقول: لم أنس امرأة رفضتنى. ولن تنسى المرأة رجلاً تركها واتجه إلى إحدى صديقاتها.. ولم أنس امرأة صدقت كل أكاذيبى.. فكم من واحدة قلت لها: يا أجمل مخلوقات الله، يا أعظم العشاق، يا ملكة على عرش القلوب، لو كان فى الأرض عدل لركعت كل النساء عند قدميك.. ولن أنسى ما حييت امرأة عندما صدقت كل ذلك طلبت منى أن أركع أنا أيضاً عند قدميها.. وكنت أصرح قائلاً: يا أكذوبتى أفيقى.. يا مخلوقتى بل أنت التى يجب أن تضعى رأسك عند قدمى!

ويقول: أكثر العشاق لا يفيقون.. وأكثر العاشقات قد ولدن
مملوءات بالغرور!

هذا الرجل هو جيوفانى كازانوف (١٧٢٥ - ١٧٩٨) رمز العشق
والذئاب البشرية. وقد تعلم من معاشرته النساء الإيمان بالسحر
والخرافات. وادعى القدرة على علاج الأمراض النفسية بالأحجية
والبخور والتنويم المغناطيسى.. وهو رجل متعدد المواهب: شاعر
وساحر ورسام ومغامر ورحالة.

يقول: لم أولد نبيلًا، ولكن سوف أصبح نبيلًا..
أمه ممثلة لعبت تزوجت راقصًا مشهورًا. وعندما سافرت إلى لندن
وأنجبت ولدًا، هذا الولد تبناه ملك بريطانيا جورج الثالث.
درس القانون وحصل على الدكتوراه وهو فى السابعة عشرة من
عمره. وطرد من الجامعة لفضيحة جنسية ودخل الجيش. ثم طرد منه
لفضيحة أخرى.

فى يوم ذهب لبيت أحد النبلاء. وجد الزوجة جميلة والابنة أيضًا.
وأوهم صاحب البيت أنه وحده الذى سوف يخرج العفاريات من
جسمه. وأن أحد هذه العفاريات قد اختفى تحت لسانه.. وما زال يقنع
الرجل حتى عجز عن الكلام تمامًا. وانفرد بالزوجة والابنة. ومات
الرجل. وهرب كازانوف إلى الدول الأوربية ١٨ عامًا.

وفى الخمسين من عمره عمل أمينًا لمكتبة أحد النبلاء الألمان.
ووجد الساعات تمر بطيئة مملة. هنا قرر أن يكتب مذكراته فجاءت
فى ٤٥٤٥ صفحة. ويعد أن كتب هذه المذكرات ظل زاهدًا فى الحياة
كارهاً للمرأة لا يغريها ولا يسمعها ٢٥ عامًا حتى مات. ولم تعرف

مذكراته هذه إلا فى سنة ١٩٦٦. وعندما نشرت هذه المذكرات أدركنا أنه كان أقل من الشهرة التى استحقها، فهو لم يعرف فى حياته كلها إلا ١٣٢ امرأة - أى واحدًا على عشرة من الذين عرفتهم الممثلة الفرنسية سارة برنار والأديب الفرنسى موبسان والمطرب الأمريكى ألفيس برسلى!

وقد جاءت هذه العبارة فى آخر المذكرات: مهما عرفت من النساء.. فكل واحدة عالم مختلف تمامًا.. فأنا لم أعرف إلا بعضهن.. أما الباقيات فيحتجن إلى مليون سنة أخرى!

أما ماتا هارى (١٨٧٦ - ١٩١٧) فكل ما يعرفه عنها الناس أنها أشهر جاسوسة فى التاريخ.. وأنها تعمل لحساب الألمان ضد الفرنسيين. أى إنها كانت تستخدم جمالها وخداعها لتجمع معلومات عن الأسلحة من عشرات الضباط الذين عرفتهم.. ولذلك استحققت أن يعدمها الفرنسيون رميًا بالرصاص!

وإذا كان لدى أحد معلومات أكثر فهو يصفها بأنها أول راقصة عارية فى كباريهات أوروبا.

كانت طالبة فى أحد الأديرة بهولندا، قرأت إعلانًا فى الصحف عن ضابط يريد أن يتزوج. فبعثت للصحيفة تقول إنها على استعداد لذلك. ولم يكن هذا الذى نشرته الصحف سوى مقلب دبّره أصدقاء أحد الضباط. والتقت بالضابط. هى عمرها ١٨ عامًا وهو فى الأربعين.. أحبها، فتزوجته. وأنجبت منه ولدًا. وسافرت معه إلى أندونيسيا. ولما عرف زوجها أن لها علاقة بضباط آخرين هدها بالرصاص.. وفى يوم فوجئت بأن أحد الأندونيسيين قد وضع السم لابنها، انتقامًا من اعتداء زوجها على زوجته. فما كان من ماتا هارى إلا أن خنقت الرجل حتى الموت!

وهربت إلى باريس، وكانت العادة في ذلك الوقت: أن تهرب إلى باريس كل امرأة جُرحت كبرياؤها!

وفى باريس عرفها الناس ترقص فى فستان شفاف مرصع بالمجوهرات.. ثم تنزع هذا الفستان لترقص عارية تمامًا. وكان الأغنياء يتسابقون على شراء فستانها وكانت تتفنن فى جعل الفستان عشرين قطعة. وتلقى على كل واحد قطعة مقابل ثمن يتقاضاه صاحب الكباريه.. وكانت تتلوى مثل أفعى ابتلعت ألف قطعة من الماس.. فلا أحد يدرى إن كان الماس فوق الجلد أو تحت الجلد..

وماتا هارى هندية الأصل. اعتادت على الرقص فى المعابد واسمها باللغة الملاوية معناها: عين النهار أى الشمس..

بدأت الصحف الفرنسية تروى عنها الحكايات. إنها جاسوسة ألمانية لها رقم رمزى.. ويقال إنها كانت تستحم فى اللبن، بينما الأطفال يموتون جوعًا.. وقيل إنهم ضبطوها فى مدريد بأسبانيا وقد ركبت دراجة متحركة فى ملابس سيدة عجوز. ولما نقلوها إلى السجن كانت ترقص عارية للحارس.. وقيل إنها قبل تنفيذ الإعدام سألوها: وما هى آخر رغباتك؟

قالت: أن أستحم فى حوض من النبيذ، وأن يجىء الجنود بملابسهم الرسمية يرتشفون القطرات التى تتساقط من أصابع قدمى! وقد تطوع للدفاع عنها كثيرون..

وسألوها قبل تنفيذ حكم الإعدام إن كانت حاملاً! فالدستور الفرنسى يمنع تنفيذ حكم الإعدام فى الحامل حتى تلد.. فطلبت أن ترى جميع ضباط السجن. وجمعوهم. ونظرت إليهم جميعاً واحداً واحداً وقالت: لست حاملاً! وسألوها إن كانت لها أمنية أخرى!

قالت: كانت عندى أمنية جنونية.. تمنيت وأنا أمام تمثال أبى الهول أن يكون أبا لجميع أولادى!

وفى سنة ١٩٦٢ أثبت الإنجليز براءتها تمامًا من الجاسوسية. وإنما الفرنسيون قد اختلقوا هذه القصة تغطية لهزائمهم المتكررة أمام الألمان!

ومارلين مونرو (١٩٢٦ - ١٩٦٢) كانت رمزًا للجمال والسذاجة والتعاسة طفلة وشابة وزوجة ونجمًا لامعًا وعشيقة لأقوى رجل فى العالم الرئيس الأمريكى كيندى ولأخيه من بعده، ويوم كانت زوجة لرجل له عضلات، ولكاتب كبير له موهبة هو آرثر ميللر، وألغوية فى يد العصابات والمخابرات الأمريكية وحالة مرضية للأطباء النفسيين. ولم يحدث فى التاريخ أن أحب الناس امرأة جميلة وعطفوا عليها، واتهموا الذين اغتالوها، كما أحبوا مارلين مونرو. وقد تبارى الأدباء والشعراء والرَّسَّامون فى البكاء عليها.. حتى الذين لا قلب لهم مثل آرثر ميللر وهرمان مايلر.. وخادمتها وسكرتيرتها وسائقها وبوابها ومصوِّرها والقسيس الذى قرأ عليها ما لم تسمع من الإنجيل ورجال المخابرات الأمريكية.. ولم يذبل الورد على قبرها حتى اليوم.. فهو كالدموع متجدد.

كان أبوها يعمل فى معامل السينما. وهى من أصل نرويجى اسمها نورماجان مورتنسون. أما طفولتها فهى حزينه تمامًا. إنها اليتيم والفقر. عاشت مع إحدى قريباتها حتى السابعة. ثم أدخلوها أحد الملاجئ حتى الثالثة عشرة. ورعاها الزوج الثالث لأمها، حتى تزوجت فى السادسة عشرة. وقد روت كيف كان عذابها فظيعة وهى فى الملجأ، وكيف أكرهت على الجنس، وكل أنواع الشذوذ مع زميلاتهن ومدرساتهن ومديرة الملجأ..

عملت فى أحد مصانع الطائرات، عندما اكتشفها مصوّر مغمور.
وهى أيضاً اكتشفت نفسها، فقد أدركت حبها الغريزى للأضواء
والوقوف أمام الكاميرات: جميلة بريئة هشة..

وكانت تحلم بأن تصعد من الفقر والهوان إلى فوق.. إلى آخر
المدى تريد أن تكون نجماً.. أحبها المصور.. ولكنها أحبت الصور.
تقدم لها. رفضت. واتجهت إلى هوليوود.. إلى الباب الملكى لهوليوود.
والباب الملكى هو الذى يجلس عليه عدد من «العواجيز» أصحاب
الملايين من المنتجين. والمعنى مفهوم. ومقبول من كل جميلات
الشاشة. فهذا هو ثمن المجد.

وغيّروا اسمها إلى مارلين مونرو.
وكل الذين أحببتهم مارلين مونرو كانوا كباراً فى السن. طبيعى.
فهى فى حاجة إلى الحنان. وإلى الأب والمال والسلطة معاً. وكان
أكبر الكبار هم الشيوخ أصحاب الملايين أصحاب شركات السينما.
ولم تقل «لا» لأحد منهم.

سألوها: من الذى تحبين أن تتزوجيه؟ قالت: أينشتين! وهو
عبقري الفيزياء فى زمانها، فبعث إليها ببطاقة يقول فيها: مع
احترامى وحبى وشكرى.

تزوجت لاعب كرة. وكانت الحياة معه شاقة. فهو قوى ولكنه غير
غيور. وهربت من صاحب العضلات إلى صاحب العقل: آرثر ميللر.
قابلته أول مرة سنة ١٩٥٠.. تقول مارلين مونرو: إنه جلس أمامى
وراح ينظر ناحيتى فقط. وتزوجها سنة ١٩٥٦.

وكانت الحياة مع مارلين صعبة جداً. فهى حساسة. وهى تعمل
كثيراً. وتتعب. وتنام بصعوبة. وهى عصبية جداً. وتتعاطى المسكنات
والمهدئات والمنومات والمخدرات. وتقضى وقت راحتها فى السرير.

تأكل وتشرب وتتكلم ساعات، وتمسح يديها فى المخدات ثم تنام ويتساقط عليها الطعام. إنها طفلة لا تريد أن تكبر. ويستحيل ذلك.. وقد التقط لها آرثر ميللر صوراً وهى تحتضن التليفون وأحذيتها.. ومخدتها.. وكل ما لديها من فراء.. والدموع على خديها.

وكان لابد أن يطلقها. فكان سنة ١٩٦٠، فى نفس اليوم الذى أصبح فيه جون كيندى رئيساً لجمهورية أمريكا.

كانت لها علاقة بالممثل الفرنسى إيف مونتان. غضبت عندما رفض أن يطلق زوجته سيمون سينوريه. لها علاقة مع سائقها ومع الرجل الذى يدلّكها.. ثم قدمها المطرب الكبير فرانك سناترا للرئيس كيندى. وكان يلتقى بها الرئيس كيندى فى بيت أخته زوجة الممثل بيتر لوفورد.. وأحياناً فى سيارته وأحياناً فى طائرته.. وكان يضايقه أنها لا تجىء فى مواعيدها.. فهى لا تنظر إلى الساعة فى يدها أو بجوار سريرها.. وكانت تطلبه فى البيت الأبيض فى ساعات متأخرة من الليل، فغير كل أرقام التليفونات وهرب منها. ثم تركها لأخيه.

وفى عيد ميلاده ظهرت مارلين مونرو بهرت الناس وهى تقترب من الميكروفون وتقول: عيد ميلاد سعيد يا سيادة الرئيس!

ولما وجدته يتفادى لقاءها هددت بأن تعقد مؤتمراً صحفياً تحكى كل شىء.. وبدأت الشركات السينمائية تعتذر عن عدم التعاقد معها؛ لأن مواعييدها غير مضبوطة.. فحياتها مضطربة فى العمل والنوم والسهر والخروج والرياضة.. وبدأت تشعر بأوجاع كثيرة فى جسمها.. وسموم فى طعامها وشرابها.. ولم تعد تعرف إن كان الذى يزورها هو طبيباً أو سفاحاً.. أو زميلاً أو مندوب المخابرات.

وبلغت حالتها النفسية أقصى وأقصى درجاتها فى سنة ١٩٦٢..

ووجدوها ميتة فى فراشها. قالوا منتحرة. وقالوا قتيلة. وقالوا العصابات.. وقالوا المخابرات، حماية لحياة الرئيس والأمن القومى.. فقد كانت مارلين هى أول من قال إن هناك محاولة لاغتيال كاسترو.. وأنها سمعت ذلك وهى فى أحضان الرئيس..

وفى مسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر يتحدث فيها عن زوجته السابقة مارلين مونرو، ويعيب عليها أنها لا تقول.. لا.. وسبب ذلك أن لديها إحساساً بأنها مدينة لعدد كبير جداً من الناس.. وأنها لذلك فى حالة امتنان دائم للآخرين..

أما غلطتها فهى هذا الشعور الذى لا معنى له. فهم الذين يجب أن يمتنوا لها؛ إنها صاحبة الفضل على المنتج والمخرج والمصور. فهى مصدر ثرائهم جميعاً فقد باعوها فى الدنيا وكسبوا من لحمها ودمها وابتسامتها وجمالها مئات الملايين. فلا فضل لأحد، وإنما الفضل لها وحدها..!

ولكنها كانت قد اعتادت على أن تظل الحمل الوديع الجميل لكل هذه الكلاب من تجار الرقيق الأشقر!

أما الشيخ الذى بهر نساء العالم رغم أنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة فهو رودلفو فالنتينو (١٨٩٥ - ١٩٢٦) فقد كان بطل السينما الصامتة.. فقد وجد العالم فى فيلم الشيخ الذى قام ببطولته عودة إلى الرومانسية وإلى حياة الخيام فى الصحراء، حيث يعيش الرجل للحب والمرأة للبيت والأولاد.. ولم تكن الدول الصناعية قد عرفت وملأت الحياة الصناعية الميكانيكية. ولكنها كانت فى مراحلها الأولى. عندما كانت المرأة تطلب المساواة بالرجل، والخروج إلى الشارع والمكتب. والمصنع.. وليأكل الأطفال فى البيت أصابعهم وليموتوا برداً وجوعاً. المهم أن تتساوى مع الرجل فى كل شىء مهما كان

الثمن. ولكن بظهور فالنتينو رمزًا للحب والحياة والموت من أجله، تدفقت الملايين في أمريكا وأوروبا يتساءلون: هل من الممكن أن تعود الحياة إلى الوراء؟

وقد ظهر فالنتينو في فيلم «ابن الشيخ» وفيلم «دماء ورمال» وهو إيطالي الأصل ولد حالمًا. لا يصلح لأي عمل. ضاق به أبواه.. بعثا به إلى أمريكا يجرب حظه. لم يكن يعرف كلمة إنجليزية واحدة. ولكن يعرف شيئًا واحدًا: كيف يكون أنيقًا نظيفًا، ذئبًا دائمًا.

طلب أن يقوم بدور الجنايني في بيت مليونير ثم تسلل إلى الكباريهات وعمل راقصًا احتياطيًا. أى يظل واقفًا في حالة استعداد دائم ليراقص أية امرأة وحيدة. وتحدثت عنه النساء، وتسابقت عليه الفتيات ورغم أنه ذئب مدرب تدريبًا جيدًا، فقد تعلم من «الذئبنة» أن يكون خجولاً.. كان ذلك يغري الفتيات بأن يهجمن عليه، ويتسابقن في إثارته والفوز به في النهاية. وهذا ما يريد!

واستدرجته إحدى الفتيات إلى هوليوود - وبسرعة دخل السينما. وفي وقت قصير جدًا كان بطلا لعشرة أفلام.

يقول فالنتينو: أن تعرف امرأة واحدة هذه لعنة، أن تعرف ألف امرأة - هذا ألعن!

وقد تزوج سيدة أكبر منه. غنية. جميلة.. واكتشف في أول يوم أنه ارتكب غلطة فظيعة. خانها. حاول أن يدخل البيت تركته حتى الصباح. ثم هرب إلى فراش صديقة لها.

ثم تزوج راقصة باليه روسية. ولم يكن قد طلق زوجته الأولى. ودخل السجن. وطلقها. ثم ألف الاثنان معًا ديوانًا من الشعر عنوانه «أحلام اليقظة».

يقول في إحدى قصائده: ولدت مفتوح العينين.. وجدت صعوبة

فى فهم الدنيا.. وعرفت أن هناك أكثر من دنيا.. دنيا الرجال ودنيا النساء.. ودنيا النساء هى الأقوى وهى الأكثر غموضًا..

وفى قصيدة أخرى يقول: ولدت متأخرًا فى الزمان.. تمنيت أن أولد من ثلاثة قرون؛ لأعيش من أجل المحبوبة وأموت فى سبيلها، بشرط أن تموت هى أولاً.. فليس أروع من امرأة كلها حياة، إلا امرأة ماتت فى ثوب عرسها.

يسمونها فى الأرجنتين إيفيتا.. إنها إيفيتا بيرون (١٩١٩ - ١٩٥٢) زوجة الرئيس خوان بيرون. أقوى امرأة فى بلادها. وقد عملت وزيرة للصحة ووزيرة للعمل من ١٩٤٦ حتى وفاتها..

اسمها ماريا إيفا دورانة ابنة غير شرعية لأحد الفلاحين.. سافرت إلى بيونس آيريس وهى فى الرابعة عشرة من عمرها لتجرب حظها على المسرح، لم تستطع فلهجتها ريفية وأسلوبها وملابسها. فأتجهت إلى الإذاعة، فكانت أحسن الممثلات، أطول من معظم نساء الأرجنتين وممتلئة. تفك الخط بصعوبة. دفعتها غريزتها وطموحها إلى أن تعثر على الكولونيل خوان بيرون وكانت زوجته قد ماتت. وعاشت معه. وتزوجته بعد سنتين، ثم أصبح رئيسًا للأرجنتين. فأطلقت رصاصها وسمومها على كل الأغنياء وكل الذين وقفوا فى طريقها فى الإذاعة والمسرح. وأحبها الشعب الذى أطلقت عليه لقب: عراة الصدور.. أى الذين لا يرتدون قميصًا.. وراحت تطالب بكل حقوق المرأة وأنشأت مؤسسة خيرية، تحولت إليها أموال كثيرة. بعض هذه الأموال دخلت حسابها فى سويسرا.

ولما ماتت بالسرطان عن ثلاثة وثلاثين عامًا، أعلنها الشعب قديسة للبلاد! وهى ذات شخصية قوية تريد القوة والمال. وقفت فى شبابها أمام المصورين عارية وعندما أصبحت فى السلطة أو هى

السلطة، جمعت كل هذه الصور وأحرقتها وأودعت المصورين
السجون..

عندما كانت فى إيطاليا التف حولها الناس يقولون: مومس!
وكان إلى جوارها فى السيارة أحد جنرالات البحر فقال لها إننى
تركت البحر من عشرين عاماً ومع ذلك ينادوننى أمير البحر! ولا
يهمك. سوف يقولون كثيراً. وسوف يكون لكل شىء صدى!

عندما قابلت زوجها الكولونيل بيرون كان عمرها ٢٤ سنة، وهو
٤٨ سنة أمسكته بأظافرها وأنيابها فهو فرصتها وقدرها ووسيلتها
إلى المجد. وهى التى أقنعت به بأن يقفز إلى السلطة عن طريق الجيش..
وأن يكون سيد البلاد وهى سيدتها.

وبعد وفاتها أقام الرئيس بيرون اتحاداً للمدارس الثانوية - وكان
الهدف اختيار أجمل الطالبات وإرسالهن إليه. وكان هناك مركز
خاص يستعرض الفتيات ليختار واحدة كل يوم!

ويقال إن المليونير أوناسيس قرر أن يلتقى بها وحدها. وكان له
ذلك وأعدت له طبق عجة دفع فيه خمسين ألف دولار - أعلى عجة
أكلها فى حياته فى أجمل ليلة! وكانت فضيحة!

وظلت إيفيتا أسطورة فى بلادها. وظهرت فى لندن أوبرا غنائية
اسمها إيفيتا سنة ١٩٧٠ ومن أشهر أغانيها المحبوبة فى العالم كله:
لا تبكى من أجلى يا أرجنتين.. فلن أتخلى عنك!

تقول إيفيتا: امرأة تعيش من أجل نفسها. ليست امرأة فنحن النساء
قد خلقنا الله لندفع الرجال إلى أبعد مما يستطيعون..

وتقول: طبيعى جداً أن تبذل المرأة نفسها من أجل الحب، ففى هذا
البذل قمة عظمتها وحريتها أيضاً!

ثم تقول: من أجل الأرجنتين أحببت زوجي وأخلصت له وسوف أموت من أجله!

أما الانتقام الشخصى الذى اتخذ عنفاً دموياً وطنياً فصورته الحديثة هى أولريكة ماينهوف (١٩٣٤ - ١٩٧٦) زعيمة العصاة الألمانية المعروفة باسم: بادر - ماينهوف - لقد أفزعت هذه الفتاة ألمانيا كلها وشغلت كل قوات البوليس شهوراً لا ينامون ولا يأكلون..

ولكن فى ١٦ يونية سنة ١٩٧٢ اقتربت قوات البوليس من بيت بالقرب من المطار دقوا الباب خرجت فتاة طويلة منكوشة الشعر مفتوحة العينين. وفى البيت وجدوا مسدسات وقنابل. وأمام النيابة روت جرائمها كلها فى ٣٥٤ صفحة: سرقة وتزوير وقتل ونسف وخطف وسطو..

شئ غريب حقاً أن تتحول فتاة مثالية رقيقة ناعمة إلى مجرمة.. أما أنها مثالية فمعنى ذلك أنها لا ترضى عن الواقع وتتمنى شيئاً أفضل. فإن كانت كاتبة عبّرت عن ذلك بقلمها.. أو كانت ثورية دموية استخدمت المسدس والقنبلة. وقد استراحت إلى ذلك..

تقول أولريكة: لو أنه فى أول لقاء لنا قال عبارة واحدة لطيفة.. لو أنه جعلنى أشعر لحظة واحدة أنه ممتن لأننى تزوجته وتركك كثيرين غيره، أغنى وأجمل.. لو أنه قتل لتغير التاريخ!

وكانت تقصد زوجها. فهو صاحب ورئيس تحرير إحدى المجلات الثورية. عرفها. تزوجها. ترك لها المجلة، وراح يسكر ويلعب القمار ويهرب إلى فراش أخريات جميلات غنيات. وتركها تشم الحبر وتمسح عرقها بورق الصحف، وتحرق أصابعها بالسجائر، ولما انتشرت المجلة، كان فى حاجة إلى مزيد من المال.. فأدخل فيها

الحب والجنس والزواج والفضائح فقررت أن تتركه. وهربت معها ابنتان توأمتان.

وكانت أولريكة قد عاشت بعض الوقت مع إحدى قريباتها: أستاذة جامعية. ومنها تعلمت مبادئ الاشتراكية. ودخلت الجامعة وتظاهرت مع الطلبة ضد القنبلة الذرية. واحتلال الأمريكان لفيتنام. وكان ذلك هو جوهر مقالاتها الملتهبة. حتى اكتشفت خيانة زوجها فقامت هي وعدد من الشبان بمهاجمة بيت زوجها. وسرقة كل ما به من تحف. وإطلاق الرصاص على اللوحات والتماثيل وإحراق كل الكتب!

وحاولت مع عدد من الإرهابيين خطف الزعيم الإرهابي بادر، الذي كونت معه عصابة الشهيرة..

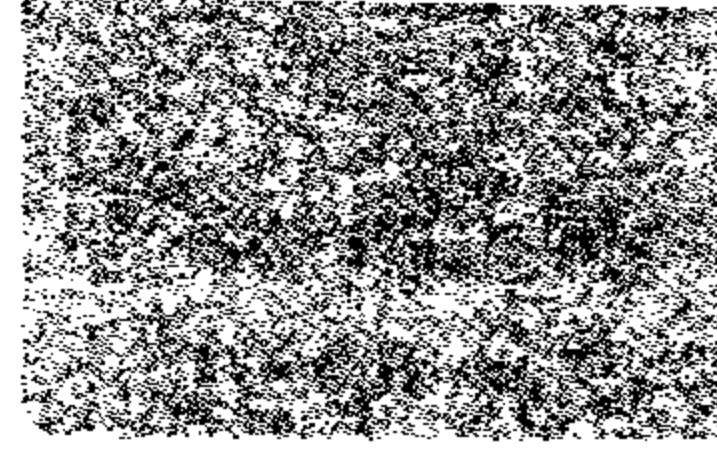
فقد سمحت له إدارة السجن أن يعمل في إحدى المكتبات في برلين، فخطفوه وقادت هي الهجوم يوم ١٤ مايو سنة ١٩٧٠.. واختارت أولريكة واحدًا من هذ العصابة عشيقًا لها.

وأرسلت طفلتيها إلى الشرق الأوسط لتتدربًا على أعمال المقاومة ضد إسرائيل. ولكن بعض المنظمات الفلسطينية أعادت الفتاتين إلى أمهما. فقد اكتشفوا أنها إرهابية بلا قضية!

وحاولت تهريب الطفلتين إلى خارج ألمانيا. ولكن زوجها أفلح في القبض عليهما في جنوب إيطاليا..

وعرفت أولريكة المخدرات، ولذلك احتاجت إلى الفلوس فهاجمت محلات كثيرة. وهاجمت البنوك.. ثم ألقى القبض على بادر وهو يكدس السلاح في أحد الجراجات.. ثم ألقى القبض عليها. وكانت تصرخ في داخل السجن تطلب أي كمية من الحشيش أو الأفيون.. ثم طلبت أن ترى طفلتيها ولكن الأب رفض.. ثم طلبت أن ترى عشيقها،

ولكنه رفض.. ثم طلبت أن تسمع ولو كلمة واحدة من الرجل الذى
أحبته وتزوجته.. طلبت أن يقول لها ولو كذباً كلمة: أحبك، لتكون آخر
ما تسمع ويكون هو آخر من ترى، رفض.
وشنقت نفسها.. وسار فى جنازتها ألوف الشبان قد وضعوا لافتة
على وجوههم. وهم يهددون بالانتقام!
ثم نشر زوجها خطابها الأخير الذى بعثت به من السجن: إننى
أطالب بمحاكمتك علناً.. فأنت المسئول عن كل ما ارتكبت من جرائم..
كان يجب أن أشنقك أنت، لا هؤلاء الأبرياء.. لقد أسأت فهمى من أول
لحظة، فأنا أرق وأكثر إحساساً مما تتصور..
ولكن وجهى الجامد قد خدع كل الناس..
وخدعك أنت أيضاً.. ابعث لى بكلمة واحدة. سوف أحشر خطابك فى
أذنى.. فأسمع صوت الورق وهو يتثنى فى أذنى.. وأتوهم أنك تقول
لى: أحبك!



الفهرس

أكثر من اثنين دائماً !	٣
هذا النوع من النساء	١٢
الكبار والكبائر والكلمات الصغيرة !	٢٦
المستحيل: زوجة السلطان!	٤٠
يسعدنى كثيراً أن تموت كل النساء من أجلى!	٥٤
الرجل «العيل» مشكلة العصر!	٦٦
السندوتش: مقبرة الحضارة الإنسانية!	٨٠
إذا كنت تحبها حقاً تزوج غيرها؟!!	٩٣
«واسكبي روحك فى روحى بكأس الأبدية»!	١٠٢
الحديث الحلو واللحن الشجى	١١١
ما هذا الطوق فى عنق الحمامة؟	١٢٠
لآخر دمة فى عينيه وقطرة من دمها	١٣٠
زينب والاحتقار العظيم!!	١٤١
آه.. لو كانت تحتقره قليلاً!!	١٥١
علماء النفس ليست لهم نفس	١٦٢
لست فيلسوفاً طوال الوقت!	١٧٣
أبطال الحرب.. أسرى الحرب	١٨٤
كلمة لو قالها زوجها لعاش أبرياء كثيرون!	١٩٨

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

محمد (ﷺ).

- ٢٣- على رقاب العباد.
- ٢٤- ديانات أخرى.
- ٢٥- وكانت الصحة هي الثمن.
- ٢٦- الغرباء.
- ٢٧- الخبز والقبلات.

(ج) قصص:

- ٢٨- عزيزى فلان.
- ٢٩- هي وغيرها.
- ٣٠- بقايا كل شيء.
- ٣١- يا من كنت حبيبى.
- ٣٢- فلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

* للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:

- ٣٣- رومولوس العظيم.
- ٣٤- زيارة السيدة العجوز.
- ٣٥- زواج السيد مسيسبى.
- ٣٦- الشهاب.
- ٣٧- هي وعشاقها.
- * للأديب السويسرى ماكس فريش:
- ٣٨- أمير الأراضى البور.
- ٣٩- مشعلو النيران.
- * للأديب الفرنسى جان جيروودو:
- ٤٠- من أجل سواد عينيها.
- * للأديب الأمريكى آرثر ميللر:
- ٤١- بعد السقوط.

(١) ترجمة ذاتية:

- ١- فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
- ٢- عاشوا فى حياتى.
- ٣- إلا قليلاً.
- ٤- طلع البدر علينا.
- ٥- البقية فى حياتى.
- ٦- نحن أولاد العجر.
- ٧- من نفسى.
- ٨- حتى أنت يا أنا.
- ٩- أضواء وضوء.
- ١٠- كل شيء نسبى.
- ١١- لأول مرة.
- ١٢- شارع التنهيدات.

(ب) دراسات سياسية:

- ١٣- الحائط والدموع.
- ١٤- وجع فى قلب إسرائيل.
- ١٥- الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
- ١٦- عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا.
- ١٧- فى السياسة (٣ أجزاء).
- ١٨- الدين والديناميت.
- ١٩- لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
- ٢٠- السيدة الأولى.
- ٢١- التاريخ أنياب وأظافر.
- ٢٢- الخالدون مائة - أعظمهم

** للأديب الأمريكي تنسى وليامز:

٤٢- فوق الكهف.

** للأديب الأمريكي يوجين أونيل:

٤٣- الإمبراطور جونز.

** للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:

٤٤- تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسي أداموف:

٤٥- الباب والشباك.

** للأديب الإسباني أربال:

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- ألوان من الحب.

٥١- شباب.. شباب.

٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.

٥٤- جسمك لا يكذب.

٥٥- الذين هاجروا.

٥٦- غرباء فى كل عصر.

٥٧- أظافرها الطويلة.

٥٨- هموم هذا الزمان.

٥٩- زمن الهموم الكبيرة.

٦٠- الحب الذى بيننا.

٦١- عذاب كل يوم.

٦٢- كيمياء الفضيحة.

٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.

٦٥- الذين عادوا إلى السماء.

٦٦- القوى الخفية.

٦٧- أرواح وأشباح.

٦٨- لعنة الفراعنة.

٦٩- دقائق الصحة هي الثمن.

(ز) فقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.

٧١- وداعاً أيها الملل.

٧٢- كرسي على الشمال.

٧٣- ساعات بلا عقارب.

٧٤- مع الآخرين.

٧٥- شيء من الفكر.

٧٦- لو كنت أيوب.

٧٧- يعيش.. يعيش.

٧٨- الوجودية.

٧٩- طريق العذاب.

٨٠- وحدي.. مع الآخرين.

٨١- ما لا تعلمون.

٨٢- لحظات مسروقة.

٨٣- كتاب عن كتب.

٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.

٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

٨٦- أوراق على شجر.

٨٧- فى تلك السنة.

٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.

٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.

٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.

٩١- فلاسفة وجوديون.

٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.

٩٤- بلاد الله خلق الله.

- ٩٥- غريب فى بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.
٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢- من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

- ١٠٣- مدرسة الحب.
١٠٤- حلمك يا شيخ علام.
١٠٥- مين قتل مين.
١٠٦- جمعية كل واشكر.
١٠٧- الأحياء المجاورة.
١٠٨- سلطان زمانه.
١٠٩- العبقري.
١١٠- كلام لك يا جارة.
١١١- فوق الركبة.
١١٢- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٣- يوم بيوم.
١١٤- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥- إلا فاطمة.
١١٦- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

- ١١٧- حقنة بينج.
١١٨- اتنين.. اتنين.
١١٩- عريس فاطمة.
١٢٠- من الذى لا يحب فاطمة؟
١٢١- غاضبون وغاضبات.
١٢٢- هى وغيرها.

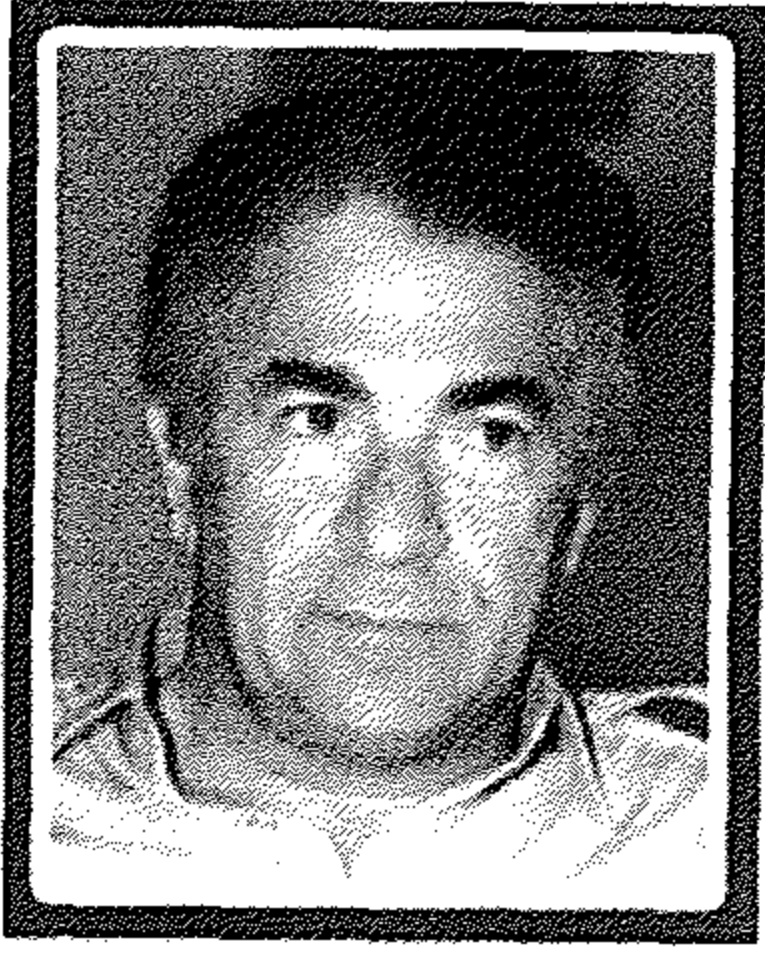
- ١٢٣- هى وعشاقها.
١٢٤- العبقري.
١٢٥- القلب أبدًا يدق.
١٢٦- يعود الماضى يعود.
(ك) كتب (مقالات):
١٢٧- ثم ضاع الطريق.
١٢٨- النجوم تولد وتموت.
١٢٩- هناك أمل.
١٣٠- أحب وأكره.
١٣١- الحيوانات ألطف كثيرًا.
١٣٢- مصباح لكل إنسان.
١٣٣- أتمنى لك.
١٣٤- لعل الموت ينسانا.
١٣٥- اقرأ أى شىء.
١٣٦- ولكنى أتأمل.
١٣٧- حتى تعرف نفسك.
١٣٨- الحب والفلس والموت.. وأنا.
١٣٩- نحن كذلك !!
١٤٠- اللهم إنى سائح.
١٤١- كائنات فوق.
١٤٢- تعال تفكر معًا.
١٤٣- أه لو رأيت !
١٤٤- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٥- انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٦- هناك فرق.
١٤٧- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزء الأول والثانى.
١٤٨- يا نور النبى.
١٤٩- وأنت ما رأيك.
١٥٠- حضارة الأوز والبقر.
١٥١- حلمنا الجميل.

١٥٢- ضاع الجيل ضاع.
 ١٥٣- قالوا (الجزء الأول والثاني).
 ١٥٤- وأخترتها.
 ١٥٥- من أول السطر.
 (ل) الترجمات القصصية:
 ١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب
 الأمريكي أرفنج والاس.
 ١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية
 سيمون ديبوفوار.
 ١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب
 السويسرى ماكس فريش.
 ١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب
 الإيطالى ألبرتو مورافيا.
 ١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى
 كورتسيو ملبارته.
 ١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب
 الأمريكى جينز برج.
 (م) الترجمات الفلسفية:
 ١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية -
 لإميل تسلر.
 ١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية -
 لجان جاك رسو.
 ١٦٤- معنى العدم عند هيدجر
 وسارتر - لجانيت أردمان.
 ١٦٥- مسرح العبث الفرنسى -
 لاتيان ماريبو.
 ١٦٦- الفيلسوف الروسى برديائف
 - لفكتور لوزتسيف.
 ١٦٧- من كيركجور إلى مارسيل -
 لأنطوان بابيف.
 ١٦٨- سيمون ديبوفوار تلميذة
 رصينة - لفرنسواز روسلان.
 ١٦٩- رسائلها إليه - لفرنسواز
 روسلان.
 ١٧٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان
 مارى روار.
 ١٧١- ما الميتافيزيقا - لمارتن
 هيدجر.
 ١٧٢- الوجودية فلسفة إنسانية -
 لجان بول سارتر.
 ١٧٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة
 للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر
 - لآدم برجشتاين.
 ١٧٤- كروتشه فيلسوف الحرية -
 لايرابيل دلورنتس.

١٥٢- ضاع الجيل ضاع.
 ١٥٣- قالوا (الجزء الأول والثاني).
 ١٥٤- وأخترتها.
 ١٥٥- من أول السطر.
 (ل) الترجمات القصصية:
 ١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب
 الأمريكي أرفنج والاس.
 ١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية
 سيمون ديبوفوار.
 ١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب
 السويسرى ماكس فريش.
 ١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب
 الإيطالى ألبرتو مورافيا.
 ١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى
 كورتسيو ملبارته.
 ١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب
 الأمريكى جينز برج.
 (م) الترجمات الفلسفية:
 ١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية -
 لإميل تسلر.
 ١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية -
 لجان جاك رسو.

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
 وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com





التنين التنين



عندما سُئلت رابعة العدوية المتصوّفة وقد جلست وحدها: من معك؟
قالت: أنا وحدي مع الله وحده؟
وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك.. فأنت أكثر من إنسان، أكثر
من صورة لنفسك..

فأنت كما ترى نفسك..
وأنت كما يراك الناس، أصدقاؤك وأعداؤك..
وأنت كما تتمنى أن تكون..
وأنت الأب وأنت الابن.. وأنت المرعوس وأنت الرئيس..
فأنت كثيرون!

بل إن الإنسان إذا كان وحده في زنزانه في سجن.. أو ك
صومعة.. أو كان جاجارين في أحد الأقمار الصناعية، ول
الألوف من العلماء يتابعون نظراته وأنفاسه وقطرات العرق
ودقات قلبه..

ومن أجل أن تتخذ صورتك شكلاً اجتماعياً فلا بد من
وتتزوجها، أو تتزوجها بلا حب.. أو تستخدمها أو هي
تكون في يدها، أو تكون هي في عنقك.. في قلبك أو على قلبك

أنيس ناصف

Biblioteca Alexandrina



0489687



للطبعة والنشر والتوزيع